فريق
متميزون
E-BOOK

رواية

محمد السيد

قَيلُولةُ إِبليس

منشورات إبيدي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قيلولة إبليس

رواية..

الكاتب: محمد السيد

عن الرواية..

رواية تُصنَّف واقعية سحرية.. تدور أحداثها داخل بلدة في زمنٍ ومكانٍ غير معلومين.. كان أهل هذه البلدة غاضبون من (قنديل) العمدة بسبب عثراته المتتالية، وآخر تلك العثرات هو اختفاء صندوق عين الدهب، وهو صندوق أحضره قنديل وقال إنه عثر عليه في سفره الأخير، وأن مَن سيضع فيه ذهباً ستتحقق آماله وأمنياته، وكان هو أول مَن قام بوضع داخله حُليّ ذهبية تخص زوجته (سوزان)، لكي يُصدّق باقي أهل البلدة ويفعلون مثله، ولمّا اختفى هذا الصندوق، هاج أهل البلدة بسبب ذهبهم الذي ضاع هكذا، فأحضر العمدة عرَّافة ضيعة الضوم التي تُدعى (سندس)، واتفق معها أن تقول لأهل البلدة إن عمدتكم سيعثر على الصندوق قريباً، وتجعلهم يهدأون قليلاً، وذلك بالطبع مقابل حفنة من الأموال، فسكنت الأهالي بعض الشيء. ثم ذات صباح استيقظ الناس فوجدوا الغربان تحوم أعلى تمثالاً شهيراً في منتصف البلدة، وهذا نذير شؤم بالنسبة لهم، فبعد رحيل هذه الغربان من هناك سيحلّ بالبلدة شرٍ ما، كما العادة عندهم منذ الأزل. الناس في القرية يكافحون مع بعضهم البعض والقرى الأخرى من حولهم. يتحكم السحر والحروب في عقول الناس وأفعالهم، وبالتالي، المؤامرات يسيطرون على عقولهم وحياتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

{وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفسِكَ}

سورة النساء: 79

منذ أكثر من ثلاثة أيام، لم يتوقَّف الطواف ولو للحظةٍ واحدة، جاء السرب ذات صباحٍ وأقام حلقته المعهودة، ثم بدأ في التحليق فوق تمثال العزيز بمنتصف البلدة. تدور الغربان لامعة السواد ذات العيون الثاقبة في تتابعٍ منتظم أعلى التمثال، نعيقها يعلو تارة وينخفض تارة أخرى، ولكنه لم ينقطع أبدًا، كأنَّ هذه الطيور عاهدت نفسها بدسِّ الرعب في قلوب أهل البلدة أجمعين، طالما لم يحن وقت رحيلهم.

كما زُعم في عُرف البلدة بمرور العقود منذ نشأتها، فإن ما يجري هذا هو نذير شؤم واستهلال ظلمات، فضرب الخوف أفئدة الأهالي بأسرها، وبنى على أشداقهم سدًا من مخاوفِ منعهم عن الحديث مع بعضهم البعض، كبارًا أو صغارًا فقد تسلل الفزع من أعناقهم وحلَّ بداخلهم وأقام، ثم بدأ في لَكْم جنباتهم بقسوةٍ ووحشية، ليجعلهم لا يقومون إلا بالدعاء والتوسُّل لمرور الأيام القادمة بسلام، وحدوث أهون الشرور إن أمكن.

مرَّت الأيام ثِقالاً، والغربان وتدًا انغرس في العقول فأدماها، تعمل بكل جدية على حبس الأنفاس وترهيبها، حتى خفقت القلوب جميعها حين جاء الوقت الذي يخشونه. لحظة بدء غروب الشمس، الحين الذي تمنوا كثيرًا ألا تهجرهم وترحل فيه هذا اليوم، مُتحدِّثين معها متوددين إليها أن تجلس برفقتهم وقتًا أكبر من ذلك، لأنه كما المعتاد دومًا بمجرد غروب شمس اليوم الرابع؛ ستغادر الغربان وينتهي طوافهم، سيتركون التمثال وشأنه، تاركين كل روح في البلدة لايزال يدبّ فيها النفس تنتظر ماذا سيحدث؟ وما الطّامة التي ستخلفها وراءها الغربان هذه المرة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضبابٌ كثيف، تجمَّع بغزارةٍ مهولة بعد أن غابت الشمس، وحلَّ الليل بدُجاه معلنًا بداية السراب والدرب المُعتم، فيطلّ القمر بدوره من خلف أستار الغيوم؛ ليتسرَّب ضيُّهُ بخفَّةٍ من بين التجمُّعات الضبابية، ويُبرز بركة الدماء التي سالت من هذه الجثة الخامدة، المُلقاة بين أحد الأزقة المتوارية في البلدة.

شاب يافع في مقتبل عمره، نال منه خنجر دنس اخترق صدره برشاقةٍ ليجعله طريح هذه الأرض الموحلة، فاتسخت ثيابه باهظة الثمن من الطين والدماء، أما عروق وجهه الذي اكتسى باللون الأحمر فبارزة بشدة حول عينيه الجاحظتين اللتين تكادان تخرجان من محجريهما، فاغرًا فاه الذي أطلق صيحات متتالية بصعوبةٍ بالغة لكي ينجده أحد، ولكن لم يُلب النداء، فخرجت روحه مودعةً هذا العالم للأبد بعد لحظة غدرٍ مؤسفة.

سويعةُ مرت ولم يأبه لأمره أحد، فقط تحتضنه الأرض بلُطفٍ ولا غير، وذلك حتى دنا منه هذا الرجل الفاقد لاتزانه، الذي خطت قدماه هذا المكان بعد أن ضلَّ طريقه بفعل السُكر الذي يبدو على مُحيَّاه. أمسك الفتى وبدأ يُحرّكه في مكانه بغير وعي، غير مكترث لهذا الخنجر البارز من جسده، بعد ذلك اقترب بأذنهِ من يسار صدره ليتأكد إن كان نبضه لايزال قائمًا أم لا، لكن هذا بعد فوات الأوان. فعاد لتُلامس يداه

وجه الفتى وتتحسس قسماته جيدًا ليعرف مَن هو، لمْ يلبث كثيرًا حتى بدأت ذاكرته تعمل، ويستعيد وعيه ويفيق.

مسَّهُ التوتر، فنهض وعيناه الثملتان صارتا مشدوهتين غير مصدقتين ما قد رأياه، وثوانٍ معدودات إلى أن تمالك نفسه، ونطق ببطءٍ بالغ:

- ابن العمدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ظلام دامس وبردٍ شديد، خرجت فتاة حسناء تهرول من خيمتها وهي تندب، تهيم على وجهها الذي يحتلُّه الذعر دون هدى، بدا أن عمرها يتعدَّى العشرين ربيعًا ولازالت في ريعان شبابها، لكن التوجُّس كان قد قتل ملامحها الجميلة وأحالها لسيدةٍ عجوز.

أطلقت صرخاتها بين أرجاء الضيعة، تنادي وتكرر:

- جدتي، جدتي.

خرج أشخاصٌ كُثُر من خيامهم إثر صوتها العالي، لكي يروا ما وراء هذه الضجة المفاجئة، التي قطعت سكون هذا الليل وأيقظتهم من نومهم. أراد البعض أن يقترب منها ويقوم بتهدئتها، ولكن باءت جميع محاولاتهم بالفشل، ازدادت حالة الفتاة سوءًا، صراخها لم يتوقف، ونحيبها مستمر في إفراز دموع تعدو على وجنتيها الورديتين، حينئذٍ تدخَّلت بعض الصبايا اللاتي يعرفنها لكي يروّضن انفعالها هذا، وبصعوبةٍ بالغة تكللت محاولتهن هذه بالنجاح.

مسحت إحداهن بيدها على وجهها برفق، وربتت على كتفها بعطف، وجعلنها تتمالك نفسها وتهدأ أولًا. ثم بعد ذلك سألنها عمّا جرى، فأجابت بصوتٍ خافت:

- لقد اختفت سندس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شمسٌ ساطعة، جعلت حرارتها الموقدة جميع الحاضرين في الباحة الكبرى يتصببون عرقًا، في حين أن نسمات الهواء كانت غير كافية للتخفيف من وطأة طقس الظهيرة. أتى هذا الحشد عَقِب أوامر وجهِّت إليهم فلا يستطيعون رفضها أو تجاهلها، يقفون والوجوم مرسوم بوضوحٍ على وجوههم جميعًا.

باحةٌ واسعة في الجنوب بعيدًا عن المنازل المأهولة، مُخصَّصةٍ للمراسم الكبرى الخاصة بالبلدة سواءً كانت هي، يُحيط جنباتها العساكر مُسلَّحين وعلى أهبة الاستعداد لتنظيم هذا اليوم الموعود جيدًا. يقف رجال البلدة بأكملها في صفوفٍ متوازية أمام منصةٍ خشبية يتم الإعداد لها منذ فترة كبيرة، منتظرين حضور العمدة على أحرٍّ من جمرٍ لتأتي معه لحظة الانطلاق وقضاء الأمر، عسى أن تعود أحوال البلدة إلى سابق عهدها كما وعدوا، ومن ثم البدء في تنفيذ مطالبهم التي طالما نادوا بها.

أما على المنصَّة فتوجد مقصلة كبيرة، هي العروس التي أتى من أجلها الجميع، بجانبها يقف رجلٌ قويّ البنيان، ذو قلبٍ منعدم الشعور، هو المسئول عنها.

ومن خلف هذه المقصلة يوجد رجلان ذوا وجهين شاحبين، وجسدين يبدوان نحيلين للحضور، تخرج أنفاسهما بسرعةٍ لا يُضاهيها سوى سرعة نبضات قلبيهما، وذلك من شدة الرعب، ونتيجة تأكدهما من أنهما سيلاقيان حتفهما لا محالة، يجثوان على أقدامهما في فزعٍ ورهبةٍ واضعين رقبتيهما على خشبةٍ عريضة أسفل نصل المقصلة الحاد منً أعلاهما، ومن أسفل هذه الخشبة بساط جلدي كبير يُكنى بالنطع، وُضع حتى لا تتسخ الأرض وتتلوَّث من مذاق دمائهما التي ستجري أنهارًا بعد قليل.

ثرثرة وهمسات من الجميع قامت ولم تنفضّ، فحلَّت جلبة مزعجة، انقضت فور مجيء العمدة ومساعده، وساد الصمت والهدوء تلقائيًا. ترجَّل العمدة من فوق صهوة حصانه، ثم تقدم متوغلًا بين الحشد ومن خلفه الأخير يتبعه، ومن ورائهما ثلاثة عساكر ببنادقهم، وصلوا جميعهم إلى المنصَّة المشيَّدة في الأمام بتأنٍ بالغ، فوقفت العساكر بتتابعٍ منتصبين، أما العمدة ومساعده فصعدا سلمًا صغيرًا مكونًا من بضع درجات، ثم سارا حَثيثَين عدة خطواتٍ إلى المنتصف، بمواجهة هذين الرجلين.

الأعين في الباحة تترقَّب بشدة، مصوبةٌ بدقة نحو هذا المشهد المنتظر. قبل أي شيء، طفق العمدة يُمرر نظراته صوب الروحين اللتين أنهكهما انتظار مصيرهما بتمعُّنٍ وسُخطٍ واضح، وعلى وجهه معالم انتصار، وعيناه يملأهما الانتقام في جفاءٍ بالغ.

استمر هذا الوضع قليلًا، إلى أن انتبه العمدة مثله مثل الجميع لقول أحد الحاضرين بنبرةٍ منكبَّة على خوفٍ شديدٍ مما يحدث:

- لقد هجرنا الرب مجددًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

(خيوط شكٍ وخداع)

البلدة..

الأمور ليست على ما يُرام، نزحت السكينة ووطأت أقدام الغضب أرض البلدة في الآونة الأخيرة، واستقرَّت بها، وعلى مشارفها رأت السكون يتلاشى ويُودِّعها، تبدَّل بانفعالٍ واستياءٍ تملَّكها، ولم يبق سوى نوبات الأمل تقاوم وحدها كل من يحاول أن يردعها.

من حيثُ لا شيء انبثق التمرُّد كنبتةٍ شيطانية خبيثة، شرارة اندلعت فجأة حين أصبح في الأمر خداع، فأشعل فتيل الحِدَّة داخل أهالي البلدة وثارت حفيظتهم بعد هذا الحدث الأخير. كانوا يعيشون معيشةً بسيطة، يركضون خلف قوت يومهم ولا يأبهون بغير ذلك، يُسيِّرون نهارهم على قدر المستطاع وشفاههم لا تلد كلماتٍ توجَّه إلى العمدة سواء كانت بالخير أم بالسوء، صامتين يتوارى خوفهم وراء الحفاظ على رزقهم حين انشغل هو عن أحوالهم، وثمّة أمر واحد فقط غيَّر ذلك.

فبالرغم من أنه منذ فترة طويلة وهو لا يهتم بمشكلاتهم ولا يسمع لهم مثلما كان في بداية عهده، انقطع اختلاطه بهم كما اعتادوا حتى قاربوا على نسيان ملامح وجهه المعهودة، إلا أن ما أثار الحمم البركانية داخلهم وجعلها تصعد لفوَّهة أعناقهم وأظهر استياءهم تجاهه بشكلٍ بارز هكذا مؤخرًا، هو اختفاء «صندوق عين الذهب»، واختفاء أغراضهم وتحطيم آمالهم معه.

«صندوق عين الذهب»، هو صندوق خشبيّ عتيق، حجمه كبير نسبيًا، أحضره العمدة ووضعه في منتصف البلدة وأحاطه بسياجٍ قصير محدود من حوله، وأسماه للناس بهذه الكنية، ومن ثم ألزم بحراسته أربعة عساكر يتناوبون على حمايته طيلة الوقت دون انقطاع، وخطب في الناس بأن هذا الصندوق مصنوعٌ سحريّ، عثر عليه في سفره الأخير خارج البلدة.

الصندوق به من الأعلى فتحة بيضاوية كبيرة تشبه العين، قال إن من يضع داخلها سبائك أو مسكوكات أو حُليًّا ذهبية ستتحقق آماله وأحلامه، وكلما زاد الفرد من عدد ما يضعه من الذهب، سارعت أمنياته على أن تتحقق، وحياته ستزدهر.

العمدة هو أول من شارك وفعل ذلك أمامهم، فبالتبعية مقابل هذا سارع أهل البلدة جميعهم بالإقدام على الصندوق في طوابير منظَّمة، دون تفكيرٍ كثير، ووضْع ما يقدر عليه الشخص حتى ولو كانت عُملة ذهبية صغيرة، عسى أنْ يحوِّلها الصندوق لسبيكة كبيرة ويضعها أسفل وسادته عند استيقاظه في الغد الباكر، بادروا عليه جميعًا وهم يتوَّسمون فيه خيرًا، وظنوا أنه عوض بُعد العمدة عنهم، وإرضاء لهم، ومنقذهم.

كان الصندوق يمتلئ عن أخره يوميًا، يُوضع الذهب ويتمنّى الرجل مراده ثم يرحل سريعًا ويترك الدور لتاليه، أو تضع المرأة مصوغاتها وتبتغي أملًا في حين، وتتمنى هلاك جارتها أكثر من أن يعود النفع عليها في حينٍ آخر، ثم ترجع لكنف رجلها مُرتاحة البال هكذا. ويأتي غيرهم في اليوم التالي ليجدوا الصندوق فارغًا، فيعيدون الكرَّه ويبدأون من جديد في ملئه مجددًا دون أن يستعلموا أين ذهب محتواه! إن كانت تبتلعه الأرض فلا يَهُم، أو تخطفه سُحُب السماء فلا يَضُر، المهم هو النفع العائد بعد ذلك.

مر شهر كامل على هذا الحال، وسيرة الصندوق هي الشغل الشاغل في البلدة، حتى فرغت قراريط الذهب من الأهالي أجمعين، ولمدة أسبوعٍ كاملٍ لم يأت للصندوق طفل واحد حتى ويطلب العديد من الدُمى الصغيرة بعد أن يسرق حَلَق أمه وهو يريد أن يفعل مثل الكبار! وكأن مُريدي الصندوق استهلكوا جميع ما عندهم، وانقضى الأمر، وهم الآن في انتظار المردود والرزق الكبير.

كعادة كل مساء يخلدون للنوم على أمل أن النهار التالي هو اليوم الموعود، وسيُباشر فيه الصندوق عمله، ولكن نهض الأهالي منذ صباحين على خبرٍ هزَّ أركان البلدة، صدمهم وأحلّ العبوس على وجوههم منذ حينها، شوَّش قلوبهم وأفزعهم، وأرهب الدماء في شرايينهم، أقاويل ذيعت وانتشرت سريعًا تمنَّى الجميع تكذيبها في أقرب وقتٍ ممكن، لكن لم يحدث هذا، «لقد اختفى صندوق الذهب»، «أخذ الجان ذهبنا»، «إن هذه خدعة من العمدة»، كل هذه عبارات وأكثر دوت في البلدة كالنار في الهشيم، وبالفعل ثَبُتت صحتها ولم تُدحض، ولم يجد أحد الصندوق، وكأن الأرض انشقت وابتلعته لتسُد جوعًا حلَّ عليها بغتة.

ماج رجال البلدة ونساؤها وثاروا، اشتاطوا غضبًا كبيرًا يُضاهي آمالهم في الصندوق، فهناك مَن كان يتمنَّى الحصول على عملٍ جديدٍ، وهناك مَن أراد زيادة في المال بغير جهد، ومَن ابتغى السعادة وراحة بال، أو السوء والضرر لغيره، ومَن تمنَّت زوجًا لابنتها العانس، ومَن كانت تأمل بطفلٍ يؤنسها بعد فشل محاولاتها هي وزجها ليلًا ونهارًا، كلها أحلام تحطَّمت أسفل كذبة الصندوق كما تأكدوا بعد ذلك، رغم ما دفعوه من مقابلٍ فيه.

خرج لهم العمدة سريعًا، قطع الشك بحديثه وأخلى مسئوليته عما حدث، وأكَّد أنه أيضًا مثلهم، وقد شارك بكل مصوغات زوجته المصون في الصندوق، فكيف يكون خدعهم وهو من أكثر المتضررين؟ ثم قال إنه ومساعده يعملان جاهدين الآن على معرفة ما حدث، سيتقفّيان أثر الصندوق ويعرفان كيف تم اختفاؤه! وأكَّد للجميع أن العساكر المسئولين عن حمايته أياديهم مكبَّلة في السجن الآن ويتم التحقيق معهم، ووعدهم أن «صندوق عين الذهب» سيعود سريعًا إلى مكانه، في أقرب وقتٍ ممكن، وسيتم عمله وغرضه وكأن شيئًا لم يكُن، وكل رجلٍ أو امرأة وضعوا فيه أيًا كان من أغراضهم الذهبية سيتحقق رجاؤهم في القريب العاجل، ويتم رضاهم.

لكن الناس لم تهدأ، ولم تستمع له، فقد مرَّت كلماته على آذانهم دون أيّ أثرٍ ما، وظلَّ غضبهم يتكوَّم فوق بعضه حينًا بعد حين حتى تفاقم وبزغ بوضوح، فلم يُحرِّك وعد

العمدة فيهم شيئًا، وكأن «صندوق عين الذهب» القشة التي قصمت ظهر البعير، وحرَّكت المياه الراكدة في البلدة، وباتت شرارة البداية لما هو قادم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلتفّ الأشجار حول سراي العمدة بمهابة جنود تحمي وطنها من شرِّ الأعداء، ومن خلفها السور الضخم الذي يُحيط هذا البناء الفخم، ولا يُفرِّق بينهما سوى تلك الأرض الخضراء التي قد لبست ثوبًا صُنع من زهورٍ مختلفة الأشكال والألوان، وما زاد هذه اللوحة جمالًا غير هذا، الرواقُ الكبير الذي يعبر منه الزوّار، فقد امتدَّ طوله إلى باب السراي الكبير مزينًا بكل الورود الزاهية، بابٌ يربط الخارج بجنة الداخل، وعلى مرمى نظر الواقف أمامه سيرى في فناء البيت مجلس العمدة قنديل بالمنتصف، مقاعد عديدة وضعت بموازاة بعضها البعض بانتظامٍ فشكَّلت صفين متقابلين، وفي نهاية المسار بينهما كرسيه المهيب.

يجلس عليه قنديل بأنَفَةٍ وشموخ، ويستند بيدهِ اليُمنى إلى عصاه الحديديَّة الطويلة، رجل في العقد السادس من عمره، طويل القامة وملامحه صارمة، ذو عينين ثاقبتين وله شارب كَث ولحية كثيفة، صوته قوي ولسانه فصيح، وشخصيته طاغية على سلوكه شديد الحِدَّة بوضوح، يُعلي مصلحته فوق الجميع أيًا كانوا، فإن كان كفّ يده اليُمنى يُنجز له أمورًا بسلاسةٍ ويُسر، فسيعتني به ويُهمل شأن اليُسرى طوال الوقت، وهكذا تنعكس تصرفاته وآراؤه في أغلب الأمور.

يجلس بهدوءٍ بالغ في انتظار موعد مع مساعده. لم ينقض وقت كثير في ذلك الوضع، فقد ظهر من عند الباب الذي يحرسه عسكريان مُسلحَان، رجل يتقدم ويسير باتجاه قنديل، ومن خلفه سيدةٍ عجوز تتبعه ببطءٍ مثيرٍ للشفقة.

وصل الرجل سريعًا، فأحنى رأسه قليلًا تحيَّةً للعمدة، ثم اعتدل ولاحت ملامحه عندما أردف الأخير:

- مرحبًا حارث.

هو المسئول الأول عن نظام البلدة العام وحمايتها، خليل العمدة منذ صغرهما فقرر الاعتماد عليه في كل مهامه لثقته العمياء فيه عندما وصل إلى منصبه هذا مباشرةً، أعطاه مقاليد هيئة البلدة سريعًا، وصار العقل المدبّر ويدهُ اليُمنى التي تعرف جيدًا كيف تُنهي عويص الأمور بلا مشقَّة، وأصبح المسئول عن زمام العسكر ومسيِّرهم، فهو حازم وقوي البنيان، سريع البديهة ويُشهد له برجاحة العقل من الجميع.

- ها هي عرَّافة الضوم.

قالها حارث وهو يُشير خلفه لعجوزٍ شمطاء ترتدي عباءة سوداء واسعة، وجهها تملؤه التجاعيد، لكن تبرز منه عينانِ ساحرتان عبارة عن لؤلؤتين تمكثان بين هذه الملامح المتغضّنة، وبالإضافة أيضًا لشامةٍ خضراء تُزيِّن منتصف جبهتها.

هي عرَّافة فريدة من نوعها ليست كالباقين، عُرفت بنبرتها الهادئة وكلماتها القليلة الموحية بالثقة دائمًا، تُمسك في يدها بإحكامٍ كيسًا صغيرًا به أحجارها الخاصة،

أحجار التوباز السحرية مختلفة الأشكال والألوان، ورثتها بالمهنة عن جدتها لأمها، تضرب هذه الأحجار بيدها فتقرأ الحدث في عقلها، وتخبر من أمامها بما لا يقدر عليه غيرها، قيل إنها ولدت في يوم كبيس، وغريب، لحظة ولادتها كان الظلام دامسًا رغم أن الوقت حينها يُشير إلىً الظهيرة بشمسها الحارقة! اشتُهرت بقدراتها العجائبية، التي من أهمها هي معرفة ما يدور داخل دهاليز عقل الشخص الذي أمامها عن طريق رائحة فمه، وما يُمكن أن يقابله في المستقبل كذلك، فعَلَت مكانتها في ضيعة الضوم والبلدة، وصارت سيدة مهمة بالنسبة للجميع، رغم دناءة تنازلاتها في بعض الأحايين.

- سندس، طلب العمدة لا يُرَد.

نطقها حارث ثم عاد للخلف بظهرهِ قيد بضع خطوات، فتقدَّمت حينئذٍ العرَّافة سندس أمام قنديل بتريُّث، وهي تقول له:

- اعطِ قدر المستطاع، حتى تأخذ أكثر مما تُريد.

ضحك العمدة من زاوية فمه، ثم بدأ حديثه معها برويَّة:

- مكانتكِ معروفة لأهل البلدة، وأنا قدَّرتها بمبلغٍ من المال وحُليّ ذهبية.

أومأت سندس رأسها وهي تبتسم دون أن تنطق، فأكمل قنديل:

- ستأتين وتقفين بثقتكِ هذه، وتخطبين فيهم بأن «صندوق عين الذهب» سيعود قريبًا، فليطمئنوا، لأنني بحنكتي سأعثر على سارقه سريعًا، وسيُعاقب عقابًا صارمًا، وإن لم يَعُد مجددًا ويحدُث ذلك، فأنتِ ترين أن في جميع الحالات سيتحقق مُراد كل رجل أو امرأة شاركا بشيءٍ في الصندوق، وأن جميع أمانيهم مُجابة عاجلًا أم آجلًا، ودنياهم ستزدهر بالفعل.

- حسنًا حضرة العمدة، أنت تأمُر.

- جيدٌ، لهذا أحضرناكِ أنتِ بالتحديد.

قالها قنديل مبتسمًا بثقة وهو ينظر إلى حارث ويهزّ رأسه بتأنٍ. بعد ذلك بلحظاتٍ معدودة حكَّ ذقنه قبل أن يسأل:

- إذًا أخبريني، ما رأيكِ في أمر الغربان التي تُرهقنا فوق تمثال العزيز الآن، ألا يوجد مفر؟

- هذه من مُسلّمات البلدة، عادة لا يُمكن التنبؤ بها أو التغلُّب عليها.

تهيّأ قنديل للرد عليها، فأوقفته متابعة قولها مجددًا بهدوء:

- فلا تنس المرة الأخيرة بعد إتيانهم، حينما وقع سقف الغرفة حديثة التشييد على الأطفال وأستاذهم لمّا كان يُعلِّمهم الحساب لليوم الأول، وقُضي نحبهم جميعًا وقتئذ، وغيرها وغيرها من وقائعَ لم يستطع أحد التدخُّل فيها لفعل شيء، الأمر ليس بيد أحدٍ يا عمدة، وأنت تعلم ذلك جيدًا.

- لا محالة!

- أجل، عليكم أن تأملوا فقط ألا يكون الضرر كبيرًا.

خيَّبت سندس أمل العمدة، قبل أن تأخذ ما وعدها به وتودِّعه وترحل في صمتٍ كما أنها لم تأتِ، على أن تحضر في الغد كما اتفقا فيما بعد.

حينذاك، نهض قنديل من مقعده بتؤدةٍ شديدة وهو يتنهَّد بتمهُّل، تحَّرك إلى الأمام بضع خطوات ثم وجَّه كلماته لحارث الذي لايزال واقفًا في مكانه ولم يُحرك ساكنًا:

- لكل فعل مردوده ثمين ضريبة قاسية، علينا أن نأخذ حذرنا.

- لا تقلق، سيَمُر الأمر كما لم يحدُث شيء.

ربَّت قنديل على كتفه، ثم قال:

- أعلم أنكَ بقدر ما أوكله إليك دائمًا يا صديقي. الآن انصرف واجعلهم ينفخون في البوق منادين أهل البلدة لكي يجتمعوا غدًا في السوق، بدلًا من تمثال العزيز لوجود الغربان الآن، وتُحدثانهم أنتَ وهذه العرَّافة المخبولة وتقنعانهم ليصمتوا، ثم تعامل أنت مع تُجار السوق بما تراه سيُجدي نفعًا، بعد ذلك أخبرني بما تم.

- حسنًا، كما تريد.

بأمانٍ قالها مُطَمْئنًا ثم انصرف حارث ليُنفِّذ ما طُلب منه، تاركًا قنديل الذي عاد وجلس على كرسيه، ثم رويدًا رويدًا هام في غياهب أفكاره التي لا تكُف عن مراوغته في الآونة الأخيرة، ولا تجعله يهنأ أبدًا، كأنها تعده بشق رأسه نصفين في القريب العاجل، متفقين عليه غير معلنين ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بوقٌ كبير في منتصف البلدة، تم النفخ فيه مساءً خمس مرات، دوى صوت ندائه في جميع الأرجاء وتردد كما المعتاد، وبذلك علم الأهالي كلها أن هنالك أمرًا يُريد العمدة إيصاله لهم في الغد، فتجمَّعوا حشودًا في عصر اليوم التالي بالسوق الكبير ليُلقى عليهم المطلوب، في عادة متكررة كحلقة وصل بين العمدة وحاشيته.

السوق منعقد يوميًا، لا ينفضّ أبدًا، يتسابق فيه أصحاب المهن والحرف والتُجَّار بأسرهم على بيع وشراء السلع والمؤن، سواء مباشرةً بين الناس أو عن طريق الدلاَلين، يأخذ السوق حيزًا كبيرًا في أقصى شمال البلدة، بُنيت فيه الدكاكين بتتابع بجانب بعضها البعض على شكل دائرة كبيرة مُفرَّغة، قُسِّمت إلى أجزاءٍ محددة، فهناك جزء خُصص للعطّارين، وجزء للحدَّادين ولبائعي الفُخَّار وكذلك الخبز والأقمشة، هكذا وأكثر من المهن المهمة والمختلفة، ثم في المنتصف بينهم يقف بعض الشُّبان لعزف بعض المعزوفات الشعبية المنوَّعة على أعوادهم بغرض كسب المال، ومن ورائهم القرداتي يطلب من القرد الخاص به تأدية حركات بهلوانية لتسلية المارَّة مقابل بعض النقود، ومن أمامه يجلس مصطفّين بائعو اليانصيب وقارئو الطالع الذين يلتفّ حولهم الكثير من الناس طيلة الوقت ولا يتركونهم قط.

في هذا الحين تبدّد جَمع الحرفيين المُقام في منتصف السوق، وحل بدلًا منه صخب وضجيج نزل مباشرةً بنزول أهالي البلدة تلبيةً لنداء العمدة، نزلوا وهم محملين بغيظٍ لا محدود، فأقاموا جَلَبة حرَّكت زمنًا راكدًا، حتى جاءت العساكر فصَمَتَ الحشد سريعًا، وانفضَّت الضوضاء التي قامت بين مَن يحاولون أن يتوقعوا الكلمات التي ستُلقى عليهم، متسائلين أهي بغرض «صندوق عين الذهب» أم لغرضٍ آخر؟ أم هو ملعوب جديد من العمدة كما يزعم البعض؟ أم أن هناك انفراجة ووجد رجال العمدة الصندوق؟ غير مَن يثرثرون هكذا مِن دون سببٍ مهم، ولكنهم في النهاية صمتوا جميعًا منتظرين أن يأتي ما يهزم هذه التكهُّنات بالواقع، ومن ثم يتبدَّد تجمُّعهم هذا، ويذهب كلٍ منهم لمباشرة عمله وإكمال المضي في دربه.

حضر مساعد العمدة وعرَّافة الضوم، سارت سندس بخطواتها البطيئة وظهرها المنحني ووقفت أمام أهل البلدة، وبجانبها وقف حارث ينظر لهم نظراتٍ حادة وقوية. ساد الهدوء على عكس عادة السوق دومًا، سكوتٌ تام وترقُّب، فتنهَّدت سندس، قبل أن تستهلّ حديثها:

- جئتُ اليوم لأطمئنكم.

صمتت حينًا وهي تتفحَّص وجوههم، ثم استأنفت قولها ووجهها مرفوع لأعلى:

- «صندوق عين الذهب» راجع، أحجاري تقول إن العمدة سيجده في أقرب وقتٍ ممكن، الذهب الذي وضعتموه لم يكن هباءً، فثقوا في رجل بلدتكم وحاميها، وإن لم يَعُد فهذا لا يُبطل من عمله، سيتم غرض الصندوق على أكمل وجه.

وثوانٍ حتى أكملت مُطمئنة:

- لا تقلقوا نهائيًا.

باغتتهم بفوزٍ مستحق، فانبسطت أسارير الرجال والنساء أمامها، فقد صادف الأمر هوى في أنفسهم، ولم يَكُن نزولهم هذا ضياعًا للوقت، اطمأنوا وهدأت قلوبهم، فوقْع كلماتها عليهم أثلج صدورهم، وشَفَت جزءًا صغيرًا من عِلَّتهم العسيرة.

سندس العرَّافة المرموقة ذائعة الصيت، وكلماتها دومًا ما تكون محلّ ثقة للجميع، فسلَّموا إليها تمامًا، ولمْ يكذبونها قط.

تقدَّم حين ذلك حارث للأمام قليلًا، عازمًا التدخَّل هو الآخر، فنادى فيهم بصوتٍ قويّ ليصمتوا بعد أن عَلَت همهماتهم وأقاويلهم قدرات أحباله الصوتية جرَّاء حديث سندس:

- وعلى التُجَّار أن يخفِّضوا من أسعار سلعهم في الفترة المقبلة، ليكون كل شيء متاحًا لجميع الطبقات بسهولة.

كجُرَّة ماء وقعت وانكسرت بعدما وجدها تائهٌ في الصحراء؛ فخاب أمله. ساد الوجوم وجوه التُجَّار وامتعضوا جميعًا، هكذا هم المتضررون فقط، فلا يصح أن ينتهي عَنَت العمدة بالنسبة إلى الأهالي كلها، إلا هم، يَرفُض ويُقرر التمسُّك بهم، مُصرًا على ملازمتهم.

فعاجلهم حارث سريعًا بقوله:

- الخير قادم للجميع، فلا تقلقوا أنتم الآخرون، إن لكم جزية كبيرة مُقدَّمة من العمدة، ستُرفع الضرائب المفروضة عليكم الآن، وتُخفَّض في الشهور المقبلة أيضًا.

حينئذ اعتدلت ملامح التُّجار كالباقين، وتهلَّل حال الحشد كله. غادر حارث وسندس مباشرةً وَسَط حماية العساكر، تاركين غِبطة أهل البلدة جميعًا تجول الأخضر واليابس، وعلى عكس ما كان في الصباح وباقي الصباحات الماضية، انقلب الوضع لنقيضه، وصاح البعض بهتافات تحية وتقدير وثناء للعمدة، «عاش العمدة قنديل، يحيا العمدة قنديل»، سادت السعادة وجوههم، وبدأ غضبهم ينخفض مقدارًا تلو الآخر، على أمل تحقيق هذا الوعد لهم، وسير الأمور في الدرب الذي يأملونه بعد هذا التجمُّع المُثمر، الذي عقبهُ سكون بلدة الصخب والضوضاء تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد يوم مرهق وطويل، عُدَّت مائدة العشاء وتكوَّنت من أشهى وأقرب الأكلات إلى قلب قنديل، صنوف مختلفة الأشكال ذات رائحة تجرُّ أيادي الجائعين وأنوف الممتلئة بطونهم، على مائدة طويلة جاءت يُسرية المكلَّفة بأمور الطبخ في السراي الضخمة ووضعت في نهايتها السطل الكبير الذي به تكتمل الوليمة بين العمدة وزوجته، ثم تمنَّت لهما أن يسترسل الطعام إلى بطونهما بالهناء والشفاء، بعد ذلك استأذنت وعادت إلى الخلف عدة خطوات بظهرها ثم رحلت سريعًا إلى حيث مرتعها في الداخل.

بدأ قنديل وزوجته سوزان في التهام طعامهما بهدوءٍ وتأنٍ بالغ، سوزان ورغم كبر عمرها فإنها لازالت كالبدر في تمامه، حسناء، هي حُب الطفولة بالنسبة إلى العمدة، شاركته طريقه منذ البداية ولم تتخل عنه مطلقًا، تزوجها في مطلع شبابهما سريعًا، فقد سُحر بدلالها وأنوثتها التي لا تُضاهى، ولم يقدر على تركها أبدًا.

رمقته سوزان بعينينٍ ضيقتين وهو يتباطأ في تناوله للطعام، بعد أن لاحظت انشغاله الدائم هكذا في الأيام الفائتة، ونظراته الحائرة بغير هدى لما حوله.

تركت ما بيدها سريعًا، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم سألته بحُنُوٍّ مطلق:

- ما بكَ قنديل؟

تنهَّد، وأسند ظهره إلى كرسيه، ثم بادلها النظرات وهو يُجيب بشجن:

- لو أن حظي كرِقَّة نظرتكِ، لخارت المصاعب أمامي وحدها.

احمَّرت وجنتاها اللتان ملأهما الزمن بالتجاعيد خجلًا، وتبسَّمت رغم اعتيادها على مغازلاته الدائمة لها، فبرغم مرور السنين عليهما فإنَّ ما بالفؤاد لا يتغيَّر، بل ينضج بينهما أكثر.

فردَّت بعفويتها المعتادة:

- لا تقلق، سيستحيل كل مُرٍّ إلى لَذة، وكل صعبٍ إلى يسير.

- آمل ذلك حبيبتي.

لفظها قنديل وهو يومئ رأسه في تمنٍّ، ثم بعد ذلك أكملا مجددًا متابعة تناولهما للطعام. ولحظات لم يكثر عددها حتى بدت سوزان مترددة، تُفكر وتُريد أن تتحدث، فتبدّلت وعادت إلى العادة التي ينبذها فيها قنديل، ولكنه قد ألِفها وتعوَّد عليها. فقد قالت له بنبرة موبِّخة ما كانت تود قوله منذ بداية جلوسهما وما يدور في ذهنها منذ عدة أيام:

- ألن تتطرَّق للحديث مع غيث فيما اتفقنا عليه؟

بُهتَ كأن كلماتها تورد على مسامعه للمرة الأولى، فاستفهم منها:

- وما الذي اتفقنا عليه؟

- أنسيت؟! غيث ابنك استهل درب الضياع وبدأ المضيّ فيه قدمًا، يوميًا لا يعود إلى هنا إلا مع بزوغ شمس الصباح، تصرفاته وطريقة حديثه قد تغيرا للأسوأ، حتى وصل الأمر به إلى أن رأيته أكثر من مرَّة وهو يدخل غرفته ثملًا ولا يقوى على تمالك قدميه الاثنتين!

هزَّ قنديل رأسه بتوعَّد وهو يُنصت جيدًا، فأكملت سوزان:

- يبدو أنه انضم مؤخرًا إلى صُحبة فاسدة.

- سيندمون ويعاقبون على جرمهم هذا إن صحَّ حديثكِ.

- ولمَ النظر إليهم؟! علينا بولدنا فقط.

عاجلها مُطمئنًا:

- لا تنشغلي بهذا الأمر كثيرًا، سأتحدَّث معه اليوم.

فردَّت ساخرة:

- هذا إن لحقته قبل أن تنام!

امتعض قنديل منها، نفد صبرهُ وملّ، قرر ترك العشاء ولم يُكمله وهمَّ في أن ينهض ويهجر مجلسها هذا، ليُريح رأسه الذي سأم من كثرة التفكير في المصاعب مؤخرًا، فأوقفته سوزان ممسكةً يديه، وقد لمعت عيناها وترقرقتا بطبقة دمع شفافة، وأشرق ثغرها بابتسامةٍ ودودة تحاول إظهار القوة والثبات، قائلةً برفق:

- أنا خائفة على ابننا الوحيد، فقط أريد التحدُّث معكَ.

رمقها بغضبٍ شديد بعد أن جلس مرة أخرى، وتابعت هي حديثها:

- أنتَ الذي انشغلت عنه بجمعك للمال بشتَّى الطرق الشرعية وغير الشرعية، كان عليك أن تفيق له، لا لغير ذلك، ولقد حذَّرتكَ كثيرًا أيضًا من ردود الأفعال على الصندوق هذا.

لم يأبه لقولها الذي صفع وعرَّى وجهه الزائف، تجاهلها فأصرَّت مُعاتِبة:

- لا أعلم لمَ تجاهلتني وسرت وراء أهوائك، أنسيت ما قلته لك؟

انفعل قنديل انفعالًا يشوبه قلق طفيف، ثم أجاب وهو يسعل مرتبكًا:

- كُفّي عن ذلك، أتذكَّر كل حرف ذكرتِه.

ثم أكمل موضحًا بصوتٍ رخيم:

- الأمر قد مَر، وحدث ما نخشاه، فبدلًا من هذا التوبيخ عليكِ أن تقفي بجانبي لكي أستند عليكِ كما عاهدتُكِ لنتجاوز مرارته.

- بجانبكَ زوجي العزيز دومًا، الأمر وما فيه هو خوفي عليكَ وعلى غيث لا أكثر.

- أعدُكِ أن تسير الأمور في طريقها الصحيح قريبًا، لا تقلقي.

ربتت سوزان على كتف قنديل برفق، فهدأ وأُخمد غضبه الذي يهزمه الوِد الطاغي منها عليه سريعًا. نادت سيدة البلدة الأولى على يُسرية لتأتي وتحمل أطباق الطعام إلى الداخل، فحضرت الأخيرة سريعًا ونفذت ما أُمرت به تلقائيًا.

ظل قنديل وزوجته جالسين في مكانهما ولم ينهضا، منتظرين إعداد دلَّة القهوة التي يختتمان بها ليلتهما يوميًا قبل أن يخلدا للنوم. مرَّت الثواني، هدوءٌ انتشر حولهما وسكينة مريحة، فلم يُعكِّر صفو جلستهما هذه مجددًا سوى دخول أحد عساكر العمدة يهرول من الخارج دون إذن، يهرع إليهما في ريبة، فنهض قنديل من مكانه متعجِّبًا لإيقاف هذا المخبول، وتعنفيه على مداهمة السراي هكذا، فازداد تعجُّبه هو وسوزان أكثر، عندما رأيا معالم الفزع تحتلّ قسمات وجه ذاك العسكري المُنهك، الذي يبدو وكأنه يخوض سباق عدوٍ على قدميه من بداية البلدة إلى هنا في نهايتها.

سأله قنديل سريعًا:

- تكلَّم، ماذا حدث؟

صمت الرجل المسكين قليلًا ليتمالك ذاته وتهدأ أنفاسه، قبل أن ينطق لاهثًا:

- اعذرنا يا حضرة العمدة.

نظر له قنديل بغير فهم منتظرًا إجابته، فصدمهما مجيبًا بألمٍ دفين ونبرة ارتياع:

- لقد وجدوا جثة غيث غارقة في الدماء منذ قليل.

اخترقت كلماته حُجُب الآذان وتردد صداها، ونزلت صاعقة موجعة على وجه العمدة الذي اتسعت عيناه غير مصدق ما قيل، وسوزان التي أطلقت صيحات حزن متتالية على ابنها كمدًا، وبدأت عيونهما في تحرير الدموع وإظهار الجوى، قلباهما عاجزان عن استيعاب وطأة الخبر ونكبة الفقد، فهو سليلهما الوحيد، قُرَّة عيونهما ويساوى الكثير.

خارت قوى قنديل الذي تكتَّم فمه من تلقاء نفسه، اهتزّ طوله وهوى فاقترب منه العسكري وقام بإسناده مباشرةً، أما سوزان فقد فقدت وعيها سريعًا ولم تقدر على تحمُّل هذه الطَّامة، وغابت عن الدنيا بعد صراخ ملأ الأرجاء وزلزلها بقوته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أُعلن الحداد وتحدَّد ميعاد الجنازة عن طريق البوق في الحال، بعد أن انُتشلت جثة غيث من دمائها التي سالت حولها سريعًا، وجُهِّزت للدفن توًّا، فتجمهر أهالي البلدة تعزيةً لقنديل واحترامًا له قبل أي شيء. عُدَّ موكب مهيب لدفن ولده تلبيةً لأوامره، فالتزم به جميع الحضور وعلى مُحيَّاهم الأسف.

تقدَّم المسيرة المتجهة صوب مقابر الصالحين جرحان يتنفسان، قنديل وسوزان، ومن ورائهما تابوت ابنهما المحمول على أيادي بعض العساكر، ومن خلفهم جَمع المعزين يتبعهم، أما على اليمين واليسار فتوجد عساكر أخرى تحمل شعلات نارية كبيرة لإنارة الطريق جيدًا في ظُلمة الليل الحالكة. تسير الأم باكية تشعر بطعنات قاسية تستقرّ في قلبها، تُتَمتِم منكسرة في سرِّها الأدعية جلبًا للسكينة والصبر، وبجانبها الأب ملفوفًا بالأسى، واجمًا هزمه الصمت، يحاول إظهار قوته وتحمُّله قدر الإمكان، يُحدِّق أمامه هائمًا بوسع ما أمكنه من رؤية، لا يكفكف دموعه فتنزل فوق جلده تحرقه، وهو يناجي بدر حبَّات التراب تحت قدميه قائلًا: «ليت الموت التهمني، وتركَكَ أنت».

مرَّت الخطوات مترَّعة بالحُرقة حتى وصلت المسيرة إلى نهاية المطاف، قبر ابن العمدة فخم التشييد، فوقفا ينظران للتابوت بألم جلل. نزلت جُثة غيث إلى قبرها في صمتٍ تام أمام نحيب أمه المسكينة، وأُغلق عليه بابه الأخير سريعًا، ثم حيَّا قنديل ابنه مودِّعًا إيّاه بمرارةٍ شديدة، بعد ذلك رأفة بحال زوجته أخذها ورحلا مباشرةً بعدما أوكَل إلى حارث شُكر الوفود المعزية، فسارا طريقًا ثقيلًا إلى بيتهما أخذ من عمرهما الكثير، وهما مذرفين الدمع تائهين في غُمَّة قاسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترك قنديل زوجته في حالةٍ يُرثى لها والدموع تنهمر بشدة من عينيها، مواعدًا إيَّاها بأنه لن يتركها وحدها كثيرًا، ونزل من غرفته متحركًا ببطء شيخٍ مربوطٍ بأصفادٍ حديديَّة والحزن قد تملَّكه كليًا، وذلك لاستقبال أهل الرأي وأخذ تعزيتهم.

عثمان حكيم البلدة، جعفر العمدة السابق الذي طعن عمره، رزق كبير الأطباء ومعلمهم الأول، بشير القاضي القديم، وعنتر شيخ التُجَّار. هؤلاء هم أهل الرأي في البلدة، خمس ذقون من أهم رجالها والأعلى مكانةً فيها، لهم السلطة المُطلقة، والمنزلة الأعلى، ومكانتهم تقبع في الرأس الهرمي لهذه البقعة من الأرض. أهل الرأي يتكوّنون ممن هم الأكبر سنًا والأكثر خبرةً، ومَن مروا بتجاربَ إنسانية عديدة في خضم حياتهم أصقلت من شخصياتهم وآرائهم، ولا يجوز مخالفة هذه القاعدة القانونية ولا تغييرها مطلقًا، فهي من عُرف وعادات البلدة منذ أن تأسست وبدأ عهدها، ولهم منذ أمدٍ بعيدٍ الثقة الكاملة من أهلها، الثقة التي تتوارثها الأجيال تباعًا، لينشأ الجميع على اتباعهم وتنفيذ آرائهم مهما كانت، فهم المسئولون عن تعيين العمدة أو عزله متى شاءوا، آراؤه وقراراته لا تسري ولا تتم قبل أن تمر عليهم، لهم المشورة الأولى وتقديم الشكوى والرأي الذي لا يخالفه آخر، متعاهدون

طيلة عمرهم على إعلاء شأن بلدتهم العزيزة أيًّا كانوا مَن، فلا يأبهون لمصالحَ شخصية ولا مجدٍ ذاتي أبدًا.

جاءوا بدورهم الآن للوقف بجانب قنديل في محنته، وبرفقتهم أيضًا غريب القاضي الحالي في البلدة، جلسوا في المجلس الكبير بالأسفل منتظرين قدومه. لم يتأخَّر عليهم، فنزل بعد أن حاول تغيير حالته البائسة، وقابلهم بوجهٍ عزم أن يكون قاسيًا في مواجهة ما حدث بصلابةٍ شديدة، تقبَّل عزاءهم وشكرهم كثيرًا، ثم جلس برفقتهم محاولًا تمالك ذاته أمامهم. بعدئذ بدأ حديثه معهم ممتنًا:

- مجيئكم مهم بالنسبة لي، بوركتم.

ثم تنهَّد بعنف، وأردف متوعدًا:

- يجب أن يمُت شرَّ ميتة.

فرد عليه بشير متفقًا:

- القصاص وإعدام القاتل، ولا غير ذلك.

ثم نظر لغريب القاضي، الذي تابع:

- معكَ الإذن قنديل، جِده ونفِّذ.

أومأ رأسه وهو يحاول كبح دموعه وسلسلتها في مكانها، فعمدة البلدة يجب ألا تظهر عليه معالم الضعف مهما كان، كما يُزعم. حين ذلك تدخَّل جعفر قائلًا:

- من الممكن أن يكون القاتل من أحد المتضررين بشدة من اختفاء «صندوق عين الذهب»!

وأكمل على حديثه عنتر شيخ التُجَّار بنبرةٍ تحمل في طيَّاتها خُبثًا بيِّنًا:

- الصندوق الذي تبخَّر هكذا دون تفسير!

استنبط قنديل ما يرمون إليه، فردَّ عليهما بحزم:

- الصندوق سُرق من مدة قريبة كما تدرون، ولا أعلم عنه شيئًا حتى الآن، ولكننا نبحث ورائه جيدًا وعازمون على إيجاد الحل سريعًا.

ثم أضاف بعد صمتٍ لم يدُم، وهو ينظر للأرض جَزِعًا:

- إنني أستبعد ذلك الرأي، من المؤكد أن قتل ولدي يُخطط له منذ فترةٍ كبيرة، ولم يأت هباءً هكذا، إنه لا يخطو خطوة واحدة أبدًا دون حراسة، فمن المؤكد أن قتله بتدبيرٍ أخذ وقتًا كافيًا لمعرفة كل شيء عنه، متى تتبعه العساكر ومتى يهرب منهم لكي يأخذ راحته قليلًا، فيتم حين ذلك التنفيذ! دعونا نعترف أن الناس هنا ضعفاء، جبناء لا يقدرون على فعل هذا، أو حتى التفكير فيه!

امتعض عثمان عَقِب كلمات قنديل، واعتبرها مجرد هذيان، لم تكَن على أهوائه وأزعجته كثيرًا، لكنه اختلق له مبررًا وأشفق على أبٍ مكلوم قُتل ولده دون أن يقدر

على حمايته رغم نفوذه وقوته.

فأخذ لحظاتٍ معدودات ثم قال له بنبرته الهادئة دومًا:

- كفى، ليس آنه. يبدو أن موت غيث هو المصيبة التي خلَّفتها وراءها الغربان هذه المرة إثر رحيلها، فاهدأ وتحلّ بالصبر لكي تستطيع أخذ ثأر ولدكَ، وإنني أتمنى لك الرزانة الكافية للقيام بذلك، وأثقُ بكَ.

ثم أكمل بعد أن مرَّر نظره على بقية أهل الرأي:

- ونحن جميعًا معكَ فيما ستفعل، وسنكون بجوارك من أجل استرداد حق دمائك التي أهدرت، لأنه طالما وصل الأمر إلى هذا الحد، فيجب علينا أن نُغيِّر آراءنا ومعتقداتنا باتباع الخشونة والقسوة في المعاملة والحديث، ليتم رَدع كل من تسول له نفسه ارتكاب جرمٍ آخر.

بتأنٍ هزَّ قنديل رأسه وهو يحك ذقنه، قبل أن يرد موضحًا ما سيحدث:

- مشكورين، إن حارث بدأ من الآن عمله هو ورجاله في التخطيط للبحث عن المجرم الذي قام بهذا الفعل، الحقير الذي عجَّل بقُرب نهايته، فسيقضي نحبه آجلًا أم عاجلًا.

- حسنًا، تصرَّفوا في دربكم كما ترون، ولكن ليس بعجالة، تريَّثوا، بالتوفيق.

وافق أهل الرأي على حديث عثمان وأيَّدوه، فتمنّوا لقنديل الخير فيما هو قادم، وأعطوه جميع التراخيص والصلاحيات لفعل ما يشاء في حدود هذا الأمر شفهيًا، ثم تمنوا له ولزوجته الصبر والسلوان مرة أخرى على فقدان ابنهما الوحيد، بعد ذلك استأذنوا للرحيل في هدوء، وتركوه يعود لسوزان وكل همّه محمَّل على عاتقه في هذا الحين، لا يعرف كيف سيحاولان مواساة بعضهما البعض في هذه الليلة الحزينة! التي تشوبها العتمة من كل جانب، فحملته الأرض إلى أعلى بعد أن لم يقدر المشي على قدميه من فرط حزنه الشديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح اليوم الأول في الحداد واليوم الخامس بعد مجيء الغربان، كان صباحًا باهتًا وكئيبًا، وذا طعم مرير، كما المعتاد بعد كل مرة تأتي وترحل فيها هذه الطيور الخبيثة والملعونة في نظر أهل البلدة وكما ينعتونها، حتى زُعم في حينٍ قديمٍ بينهم أنها تأتي بأمرٍ من الشيطان، فحلولها دائمًا صار ينشر الرعب في نفوسهم.

انتشرت الأقاويل حول واقعة قتل غيث، وزادت التكهُّنات عليها وتنوَّعت من كل حدبٍ وصوب، فهناك مَن حزن مِن أجل العمدة وزوجته على فقدان ولدهما الوحيد، ومَن أشفق على روح هذا الشاب الصغير الذي لم يعش حياته بعد، وهناك أيضًا مَن لم يأبه إطلاقًا لما حدث ولم يكترث للأمر من قريبٍ أو بعيد! وهنا حارث يجتمع بكبار عساكره وأكفأهم عملًا في مقرهم ليبحثوا جيدًا ما وراء حادث أمس، وبدء تحقيقاتهم حياله.

يجلس مساعد العمدة بوجهٍ صارم على مكتبه الكبير في غرفته الخاصة بمقر هيئة البلدة المسئولة عن نظامها وتقنينِ قواعدها وقوانينها، وردع المخطئين ومطاردة المجرمين فيها، وإدارة الشئون العامة، وتسجيل وتدوين الضرائب وغير ذلك من المهام.

غرفته وحدها في الطابق العلوي، أما الطابق السفلي فهو لبقية الموظفين في الهيئة، وفي الخلف من وراء هذا المقر توجد فتحة دائرية كبيرة في الأرض مؤصدة ببابٍ حديديّ صلب، يؤدي إلى قبوٍ شبه مظلم مساحته ضخمة، فيه غرف متتالية بجانب بعضها البعض، هي الزنازين، وهي السجن الذي يوضع فيه المذنبون والمشكوك بهم حتى يُعرض أمرهم على غريب القاضي الحالي في مقره الذي لا يَبعُد عن هنا كثيرًا، ويتم البث في شأنهم أيًّا كان هو، بعد أن يُلقى القبض عليهم عن طريق العساكر التي يُطلق عليهم أهل البلدة أيضًا (الحامية).

استهلّ حارث قوله وهو يلكم وجه مكتبه بقبضة يده لكمة قوية:

- يجب أن يأتي خاضعًا في الحال، سيُدفن حيًّا.

بعد ذلك أردف مُكلفًا إيّاهم:

- لا أريد أحدًا منكم أن يغفل ولو لوهلةٍ واحدة، أبتغي أعينًا متسعة ومنتشرة بغزارة في أرجاء البلدة كلها، والتنقيب فيها عن أية معلومة قد تفيدنا.

ثم استأنف متباطئًا وهو يطلب منهم:

- يتحتَّم علينا الانتهاء سريعًا، لكن بهدوءٍ ورويَّة، ولن نلجأ لسندس كما يُفكِّر العمدة، فنحن نستطيع.

رد عليه أحد رجاله الذي يقف في المقدمة قائلًا:

- أوامرك، ولكن ما وضع حرَّاس غيث الآن؟

- العسكريان المنوطان بحمايته يظلان في الحبس حاليًا كما هما، سأذهب أنا لهما لمعرفة شتَّى التفاصيل التي تمت يوم أمس، والأيام التي سبقته، وعليكم أنتم الانتشار في البلدة الآن لمعرفة كل شيء عن غيث من أهلها، أين كان يذهب؟ ومع مَن؟ وما هي اهتماماته التي لا نعلمها؟ ومَن هم أعداؤه؟ وكيف كانت أيامه الأخيرة؟! حتى أتفه التفاصيل دوِّنوها وأحضروها لي، لا تهملوا شيئًا.

- وبالنسبة للرجل الذي قد رآه قتيلًا؟

- أطلق سراحه، تحدَّثتُ معه كثيرًا، ووجدت أننا لن نستفيد منه بشيءٍ مطلقًا، جبان ويبدو أنه يشرب حتى الثمالة كثيرًا، عقله ممحي! وبالفعل قد وجده بمحض الصدفة.

- لا بأس، سأفعل.

حينئذٍ نهض حارث من مجلسه، ووضع يديه الاثنتين مترابطتين وراء ظهره، وأخذ نفسًا طويلًا ثم ذفره بتمهُّلٍ شديدٍ ونظراتٍ قوية، ثم قال آمرًا:

- سوف نضع مَن هم في خلافات قديمة مع العمدة من داخل البلدة وخارج حدودها نصب أعيننا، في المقام الأول مع أعداء غيث أيضًا، وبالنسبة لإمكانية أن يكون القاتل من أحد المتضررين من «صندوق عين الذهب» فلن نتجاهله كما يرى العمدة، سنبحث فيه أيضًا عسى أن نصل لشيء قد يُفيدنا، موت غيث سيضعف من قوتنا كثيرًا، فيجب أن نتصدى جيدًا لهذا العائق، ولا نضعف.

- عُلم.

ثم أشار بيده، مستطردًا:

- اذهبوا الآن وباشروا عملكم، أريد في أسرع وقتٍ أن ينتهي هذا الأمر البتَّةً.

- حسنًا، سنعمل جاهدين على ذلك في اليومين القادمين، نحن أهلٌ لذاك.

حيّا هذا الرجل وباقي العساكر قائدهم ووجوههم تتسم بالعزم والإقدام، ولكن قبل أن يهمّوا بالانصراف كما طُلب منهم، تذكّر حارث أمرًا أخيرًا، فقال:

- على أحدكم أن يذهب وينفخ في البوق، هنالك وثيقة أوامر خطَّها العمدة ويريد إيصالها لكل شخصٍ تدُب قدماه على أرض هذه البلدة أيًا كانت مكانته وعمره، ستُملى عليهم في عصر الغد.

أومأوا برؤوسهم مستجيبين سريعًا، ثم بعد ذلك ولّوا ظهورهم ورحلوا جميعًا حيثما قيل لهم، مستهلين دربًا عسيرًا يخوضونه للمرة الأولى، فقتل ابن العمدة لا يُشبه أي قتل! إنها جريمة تفوق جميع الجرائم هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يبرح قنديل مرافقة سوزان التي صارت هشَّة منذ ليلة أمس وبعد عودتهما من تشييع جنازة ابنهما وتوديعه للمرة الأخيرة غير مرتين، الأولى عند تعزية كبار البلدة له، والثانية عندما شيَّع بكلماتٍ خاصة ومهمة لحارث مع أحد العساكر الموجودين لحراسة بيته وحفظ أمانه طيلة الوقت.

ومن بعد ذلك وهو جالس بجوار زوجته في غرفتهما يخفف عنها قدر المستطاع، بعدما طفقت تهذي هكذا بأحاديثَ غير مفهومة دون وعي، مرَّ عليهما الزمن موحِشًا تتخلله صدمات غير رحيمة، مرَّ وهما غير قادرين على الخروج وترك مضجعهما ورؤية هذه السراي الضخمة دون وجود غيث! رحل فتاها المدلل، الذي رحلت أنفاسه الثمينة من بينهما وودعتهما، فرحل معها الجزء المُشرق من روحهما، فردَّا الطعام وردَّا كل شيء، وظلا يواسيان بعضهما بالصبر وتحمُّل هذه المصيبة الجمَّة والرضاء بها، وهو يوعدها بأن حق وثأر ولدها لم ولن يذهب هباءً، وسيتم دَحر هذا البؤس بإحضار رأس قاتل ابنها أمامها شفاءً لغليلهما، كعقابٍ قاسٍ ورادعٍ لهذه الجريمة الآثمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوضع ازداد توترًا، حالة من الشدّ والهلع فرضت في البلدة، العساكر يمرون في الطرق جميعها في الوقت ذاته، يستجوبون الجميع بلا تفرقة، انتشروا في كل ركن سريعًا كانتشار النار في الهشيم، يمرون على جميع المنازل والدكاكين، سواء كانت في السوق أو خارجه بين الفينة والأخرى، بوابة البلدة وجميع منافذها مغلقة، فلن يخرج أو يدخل أحد في هذه الفترة، بقرارٍ نَتَج وصدر جرَّاء النيران المشتعلة داخل صدر العمدة، التي لم ولن تهدأ إلا بتحقيق مبتغاه.

بعد أن استطاعا أن يفلتا مما وراءهما، ومن هذا الذي يدور في البلدة لكي يتقابلا، عبرا سويًا هذا الطريق الخلفي لكي يستهلا المضي سيرًا في الطريق المؤدي في نهايته إلى تمثال العزيز بمنتصف البلدة. يمشي يافث بثغرٍ مشرقٍ من فرط السعادة، مبتهجًا بعد أن طلَّت عليه محبوبته اليوم طلّة رقيقة كعادتها، فتى في نهاية العقد الثالث من عمره، طويل القامة، ملامحه وسيمة، وقسماته بارزة وقوية، ويملك نظرة هادئة توحي بالرزانة الكافية، ويُعرف بنبرتهِ التي ما تكون منخفضة دائمًا، بَيْدَ أن لديه دكانًا صغيرًا في السوق يبيع فيه الغلال وما شابه من ثمار، ولم يؤثر ذلك على عاداته تلك رغم تعامله اليومي مع الزبائن، فهو يعول نفسه بعدما ماتت أمه وهي تلده لسوء أحوالهم آنذاك، فلم تتوفر الرعاية الكافية لها، وبعدما كَبُر وشبَّ طوله انتحر والده بعد أن طعن ذاته بسكينٍ حاد لأنه لم يَعُد يقوى ولا يقدر على إعالته، تركه للدنيا تعوله ورحل هو مكتفيًا بما رآه منها، فبرغم هذه المعاناة التي تكبَّدها هذا الشاب، وصخب الحياة الذي حَبَس روحه وكظمها، فإنه تمالك نفسه بكل ما أوتي الإنسان من قوة، وصار يطوف في البلدة ويعمل بها هنا وهناك مع هذا وذاك حتى ملك قوت نفسه، وصار يعتني بذاته جيدًا، وأصبح صاحب تجارة مُربحة، وانتصر.

نظر إلى محبوبته نظرة حانية، وسألها مستفسرًا عما يراه منها اليوم:

- ما بكِ يا حُلوَة؟

إنها وداد، أجمل الصبايا في البلدة، تملك حُسنًا لا يُضاهى، تتشح رداءً ورديًا مشرقًا يواري جسدها المنحوت ببراعةٍ ومتقن التركيب، بشرتها خمرية جذّابة، وشعرها بنيّ طويل مسترسل يصل حتى خصرها فتداعبه نسمات الهواء دومًا، إنها ذات تغنّج لا مثيل له. يافث اعتاد دائمًا أن يناديها بالحُلوَة، ولا يزال كذلك، نادرًا ما كان يلفظ اسم وداد، لأنه يزعم أن اسمها أسمى من أن يجتمع مع أي كلماتٍ أخرى في جملةٍ واحدة، بعد قصة حب طالت وتنوَّعت فصولها في تتيُّم، فباتت تنتشي دائمًا بهذا النداء الذي راق لها وأحبّته، مثلما تَبادل الحب بصفاءٍ بينهما. عدا اليوم، ملامح جامدة بادية عليها منذ أن رآها، وتردُّد بدأ يظهر على وجهها قبل سؤاله الأخير، أما بعده فردَّت مبتسمة ابتسامه مصطنعة، بصوتها الناعم ككل ما فيها:

- لا شيء.

ألحَّ عليها ناظرًا إليها وهما يكملان سيرهما:

- لستِ كما المعتاد عليكِ، أحدث شيء يُزعجكِ؟!

حينما أنهى سؤاله كانا قد وصل بهما السير إلى مركز البلدة، بعد أن تخطيا ذلك الطريق الطويل، ووقفا أسفل جسد رخامي هائل، وهو تمثال العزيز. العزيز أهم رجل جاء في تاريخ هذه البلدة، الشخصية الأكثر شهرةً فيها، قيل عنه حكايات كثيرة ومختلفة لكنها مثيرة، منها أنه من مؤسسي البلدة وأحد الرجال الأوائل بها الذين أرسوا قواعدها وصكّوا قوانينها ووثقوها، ولا يقدر أحد حتى الآن على مخالفتها، وقيل إنه ممن جعلوا لها شأنًا عاليًا، وممن جعلوها تتفرَّد بحالها وتختلف عن غيرها وتسود كلمتها وحدها، زُعم عنه الخُلُق الدمث والكرم والعلم الوفير، كان شجاعًا وفارسًا محنكًا قام بحماية بلدته كثيرًا وصدّ الأعداء عنها، كما حدث في الهجوم الشرس لقبيلة الجبابرة على البلدة، فكان هو من أوائل المواجهين لهم، حتى ردّوهم. إنه رجل يحزن لحزن أهلها، ويطير سعادةً بفرحهم، فمن أعماله الجمَّة هذه أصبح أسطورة البلدة المتوارثة فيها، فشُيِّد له هذا التمثال الذي صار علامة فارقة، وذا أحداثٍ مثيرة وشأن مهم حتى بعد موته، كان رجلًا مهيبًا منحوتًا ببراعةٍ ودقة، حتى كاد البعض من مختلي العقول أن يركعوا إليه بغرض أن ينقل لهم ميزاته وبركاته، ومن الأقاويل المثيرة للدهشة والتعجُّب التي ذيعت أيضًا، هي أن تمثال العزيز يشعر بما يحدث في البلدة، ففي بعض الأحايين يصير لونه داكنًا عند حزنها، وفي آنٍ آخر يصبح مُشعًا ولامعًا عند سعادتها، وهذا كما كانت عادته قبل وفاته، وقيل كذلك أنه في حول الوهن تشقَّق، وبعد انتهائه وانقضائه اِلتأم وعاد كما كان، وغير ذلك أنه عندما تأتي الغربان وتطوف أعلاه، يعلمون أن هناك مصيبة ستحل بهم حينما ينتهي الطواف كما يتم حتى الآن، وحدث ذلك مرارًا وتكرارًا، لكن كل هذا لم يغير شيئًا في أن العزيز عزيز للغاية على أهل البلدة، وأصبح رمزًا خرافيًا بها، والجميع يود أن يكون مثله.

يتفرَّع من حول التمثال ستة طرق طويلة تُقسِّم البلدة، تؤدي في نهايتها إلى أهم الأماكن فيها، هو المركز ومن عنده يتسنَّى لأي شخص الذهاب إلى أي مكان يريده. ومن أمامه الحين وأسفل شمس هذا النهار، يقف محبوبان هزمهما عشقهما المتبادل، الفتى يُمسك بيد فتاته محاولًا معرفة ما حلَّ بها اليوم، وهي في حالة غير معتادة عليها.

- يافث، لم يحدث شيء، قلتها لكَ كثيرًا، صدّقني.

قالتها وداد مجيبة بنبرتها الدافئة، فهزَّ يافث رأسه متأنيًا، ثم أردف:

- أنا أريد الاطمئنان عليكِ لا أكثر يا حُلوَة.

- ألم تحزن بشأن غيث؟

فوجئ يافث بسؤالها واضطرب، تردَّد قليلًا قبل أن يُجيب متلعثمًا:

- بالطبع حزنت.

ثم بعد ذلك أكمل:

- ولكن لمَ أحزن حتى الآن؟! لا يخصني شأنه.

- ألم يَكن صديقك المُقرَّب؟!

انتفض يافث ولم يرد عليها، وظلَّ ينظر لها متعجبًا، وقد بدأ يشوب قسمات وجهه القلق. بعدئذ بقليل، تنهَّدت وداد بقوة، ثم نظرت إلى الأرض برهة قبل أن تعاود النظر إلى وجهه أمامها، تجاوزت صوتها الذي يأبى الخروج، وقررت أن تنهي هذه الحيرة عازمة على أن تتحدَّث معه فيما كانت تنتظر آنه:

- حسنًا يافث، انشغل عقلي كثيرًا بهذا الأمر في المدة الماضية، وضعت عقلي في كفة، وقلبي في كفة أخرى، لأزن الأمر وأرى من منهما الأرجح، فاز العقل واضطرني لقول ما جئتُ اليوم لأبلغك إيَّاه بفؤادٍ مُفتت، وبالٍ منزعج، وحزنٍ طاغٍ، وظُلمه تسود وتقتلني، لكن يجب أن يحدث ذلك سواء شئنا أم أبينا.

امتعض يافث أكثر وظل مكملًا في صمته بغير فهم وهو يحملق في وجهها الصغير، وقد ازداد توتره أكثر، حتى أكملت هي بعينين ترقرق منهما الدمع ووجهٍ ملأه الأسف بكلماتٍ ممزوجة بالشجن:

- آسفة، إنني مضطرة للرحيل عن هنا بلا رجعة، لن تراني مجددًا، فيتحتَّم علينا أن نترك بعضنا نهائيًا، وإنهاء هذه العلاقة بشكلٍ جيد نتذكره بالخير فيما بعد.

كقبضة يد قوية كانت كلماتها، فصدمت قلبه قبل وجهه بضربة شرسة وقاسية، كُسر بداخله شيء يعلمه جيدًا، ولن يتم تضميده مهما حدث، فلم يستطع أن يرد عليها سوى بأن يقول بصوتٍ يتخلله الأسى:

- لن أقدر على الإكمال دونكِ، أنتِ الوحيدة التي بجانبي الآن، ابقي.

- إنني أعتذر لك يافث، آمل ألا تنساني.

قالتها ثم رحلت وهي تهرول بعيدًا عنه باكيةً بحُرقة، آهٍ من القسوة، نصَّبت نفسها ملاكًا وديعًا بعد أن نهره حديثها، وأوجعه بشدة، وسكب في جوفه كأسًا من العلقم، وبقيَ فقط أن تُصيبه سكتةٌ قلبيةٌ إثرَ نوبة الهيام التي انقطعت أوصالها للتوّ، فوقف مشدوهًا غير مستوعب ما تم منذ لحظات، كلماتها الأخيرة تضرب عقله وتؤلمه بلا هوادة، ود وحب كان بينهما فجأة استحالا إلى رمادٍ نُثر في الفراغ وتفرَّق، شعر وكأن صراخًا مزعجًا يترامى من حوله يكاد يخرق أذنيه، فتألَّم، وشفقةً على حاله بكى، والتعجُّب ملأ قسمات وجهه، وأُجبر بغير إرادةٍ على أن يتصلَّب في مكانه بلا حركة، يأمل أن تبتلعه الأرض بعد أن تفتح ثغرها بشراهة جائع من أسفله، حاله الآن صار كحُرقة طفلٍ صغيرٍ يسير بجسدٍ نحيلٍ وهالك، يرتدي ملابس رثَّة ولا يبالي، يعدو بين المشاة برائحتِه العطنة فخورًا ولا يبالي، يذهب ويقف أمام الفتاة التي يُحبها بكل كبرياءٍ ويعطيها وردة بالية وقبيحة الشكل فتصفعه على وجهه ثم تتجاهله وترحل، وهو لايزال لا يبالي، صارت الدنيا من حوله بكل ما فيها لا تساوي شيئًا على الإطلاق، الحُلوَة جعلتها طعمًا مريرًا فقط.

دوامة حزن دار فيها، وشتتته عما حوله، فلم يُخرجه من الفراغ الذي رمته فيه وداد وتاه خلاله، غير سماعه لصوت البوق يدوي بنغمته المرتفعة بشدة هذه المرة، إشارةً لأهالي البلدة كالمعتاد فيعلمون ما عليهم فعله، ويلبون الأوامر، ولكن مرَّ

النداء عليه مرور الكرام، ولم يأبه له حتى، ولملم شتات حاله بعد أن صار الابتهاج انكسارًا، والنشوة انتكاسة، ونضب إحساسه بالسعادة التي غمرته منذ قليل قبل أن تحل عليه هذه الطامة القاسية، ورحل وهو يهذي مع ذاته، ولا يجد في قرارة نفسه مبررًا لما قالته محبوبته، التي أسف سريعًا على مشاعره التي تعرَّت أمامها بثقةٍ أصبحت محل سخرية الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شيخ وامرأة عجوز وكهل، صغير يتمتم على كتف أب الوجوم مرسوم على وجهه، أم حاملة ابنتها الصغيرة على كتفها، وشاب في مقتبل العمر يُهمل ما بيده ويأتي إلى هنا. ترك الجميع ما وراءهم من أشغال مهما كانت، وتوجَّهوا إلى محيط تمثال العزيز إثر نداء أمس، التمثال بمنتصف البلدة في العادة هو الذي يجتمعون حوله في مثل تلك المواقف، لكن عندما تأتي الغربان يسارعون بتغيير مكان الحشد بعيدًا عن نذير الشؤم هذا كما حدث من قبل.

استهلوا خروجهم وأتوا جميعًا في الوقت ذاته، فكانت الطرق المؤدية للتمثال جميعها مزدحمة ومكتظة بأهالي البلدة كلها، فنشبت بعض المضايقات بينهم لكنها سرعان ما انفضّت وانتهت، ووقفوا مجتمعين حول التمثال في حلقة دائرية، وبدأوا يتبادلون أطراف الحديث منتظرين مجيء مساعد العمدة، فأقاموا كما المعتاد «غاغة» مزعجة تؤلم الآذان وتُرهقها.

سويعة وحضر العساكر وفي مقدمتهم حارث وبجانبه يسير عثمان حكيم البلدة، بعد أن مرَّت القرارات التي ستُقال في هذا الحين عليه هو وأهل الرأي ووافقوا عليها، واعتمدوها كما يَنُص عُرفهم. التزم جميع الحضور الصمت ليروا ما هو الشأن الذي جاءوا من أجله، فتقدَّم حارث وعثمان ورجاله متوغلين بينهم حتى وصلوا أسفل التمثال، وانتصبوا واقفين. بنظراتٍ حادة رمق حارث الجميع من أمامه، معلنًا بذلك، مع ما يتم منذ أمس، أن الوضع حاليًا يختلف عن السابق تمامًا، وأنه لن يكون هناك تهاون فيما حدث، وسيكونون قساةً في تعاملهم مع الجميع وحادّين.

شرع حارث حديثه مناديًا بصوتٍ عالٍ وعينٍ يبرز منها الشرار:

- انتظرنا مرور أول أيام الحداد دون حديث، وها نحن الآن قادمون لتنبيهكم.

ثم تابع متوعِّدًا:

- العقوبة ستكون مُذلة، جرَّاء استباحة دم غيث بسهولةٍ هكذا.

دوى السكوت بين هذا الحشد فجأة بعد أن أفقدهم الخوف قدرتهم على الحديث، فقط تكتفي أعينهم بأن تُحملق تجاه مساعد العمدة وكبير أهل الرأي أمامهم بإمعانٍ وذُعر. فأكمل حارث خطابه إليهم:

- هذه أوامر وثّقها العمدة، فتُتلى عليكم لتنفِّذوا.

تقدَّم عثمان بخطواته البطيئة التي أضعفتها السنون، ثم بدأ يقول نَص القرارات بصوته المتقطع، بعد أن حيَّا الحضور أمامه تقديرًا لهم:

1- الترحُّم على غيث ليلًا ونهارًا، جهرًا.

2- عدم الحديث حول الواقعة بتاتًا.

3- عدم تسمية أبنائكم ومواليدكم القادمين بإسمه.

4- منع إقامة الأفراح حتى يوم القصاص.

5- مَن يحصل على معلومات تفيد الواقعة فليحضرها فورًا وله جزيةٌ لذلك.

6- يوم القصاص يكون الجميع حاضرًا ليروا ثأر العمدة لابنه.

تلا نداء عثمان تعقيب حارث:

- ومَن لم يقدر على المساعدة، فليمتثل لأوامر العمدة فقط، ليس أكثر حتى يتجنَّب العقوبات التي لن تخطر ببال أحدٍ منكم.

حلَّت جَلَبة عَقِب أن أنهى عثمان وحارث حديثهما، وعَلَت نداءات اعتراضية من بعض الذين رأوا أنها قرارات جائرة ومبالغ فيها، فأطلقت العساكر طلقات نارية من بنادقهم الخاصة- التي لا توجد بكثرة بين صفوف الحامية، لغلوّ ثمن وندرة وجود ذلك الاختراع الجديد-، فصمت على إثرها الجميع خوفًا وارتيابًا، ثم أمر حارث أحد رجاله بأن يُحضر شخصًا محددًا أشار عليه بيده من بين الذين اعترضوا ليكون عبرةً للآخرين، فذهب سريعًا برفقة عسكريٍّ آخر وألقيا القبض عليه قبل أن يفرّ هاربًا، لم يستطع ذاك الرجل مقاومتهما، فأحضراه وأرغماه أن يجثو على قدميه أمام الجميع وهو ينظر إلى الأرض في ذُلٍّ ومهانة، قبل أن يأخذوه معهم ويزجّوا به في السجن.

بعد ذلك قال حارث مُنذرًا:

- أما مَن قام بالواقعة أو مَن تستَّر عليه، فلهم المفاجأة الكبرى.

نطقها وهو يُجحِّمهم بعينه تجحيمًا مريعًا، فسقطت قلوبهم أسفل أقدامهم حتى وهم يعلمون أنهم ليسوا الفاعلين ولا القَتَلَة، فقط ارتعدوا من هول ما يحدث الآن، وعقد الخوف ألسنتهم عن الحديث مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمر الوضع كما هو في اليوم الثالث من الحداد، والأول بعد إملاء قرارات العمدة عليهم، عزم الجميع تنفيذها كلها دون استثناء، وبرغم ذلك لم يتوقَّف رجال العمدة وعساكره عن المرور في أرجاء البلدة والحديث مع أهلها، ينتهون ويكررون ذلك مجددًا في اليوم التالي من دون ملل، وفي كل مرة تختلف الأسئلة التي يلقونها عليهم كأنهم يلدونها من رحم عقولهم في مساء كل ليلة، فسأم الجميع لكن بالطبع لم يظهروا هذا الاستياء، فقط أظهروا تعاونهم اليسير وإمدادهم ليد العون.

لكن في زحام السوق بمكانٍ يتوارى عن العساكر والأعين المنتشرة في كل ركن، اختلف ذلك قليلًا وحاد البعض عن هذا الدرب الذي فُرض عليهم، ففي حانوت

البوظة الذي يقل عدد الزبائن أمامه على عكس باقي الدكاكين المجاورة له، أردف سيف البوظي الرجل الكبير بارد الطباع، المعتاد على الثرثرة والمزاح وتماديه في الهراء دائمًا، وهو يمد جُرة بوظة إلى مشترٍ أمامه:

- رغم أن الأوامر الستة مجحفة كما يرى الكثيرون، فإنني أختلف على تبرُّمهم هذا، وأتفق معها مشفقًا على العمدة قنديل.

أخذ منه الرجل جُرة البوظة وأعطاه المال ثم رحل سريعًا دون أن يرد عليه، خوفًا من مشاركته في ذلك الحوار حتى لا يُعاقب كما قيل لهم وحُذِّروا. فتعجَّب سيف قائلًا بصوتٍ خافت وهو يلتفت ناظرًا حوله جيدًا حتى لا يسمعه أحد:

- الخوف عمى بصيرتهم! إننا نحتاج رجل الكهف ليحل كل هذه المشكلات!

ثم عاد إلى داخل حانوته لكي يُباشر عمله، متجاهلًا ما يتم في الخارج تمامًا. بعد ذلك بقليل جاء له مشترٍ آخر، فخرج له بدوره ليرا كم لترًا سيشتري، وجد أمامه كهلًا قصيرًا عينه اليُسرى ودعَّته وذهبت هباءً، بدا أنه يعرفه جيدًا، فقال له مباشرةً وهو يُغمض عينه اليُسرى وينظر له باليمنى فقط:

- ضع مالك يا إسحق، أعرف طلبك.

أشار إسحق بيده نافيًا ولم يكترث للمضايقة التي بدرت منه، ثم رد:

- لا، أريد الضعفين هذه المرة.

- حسنًا، كما تريد.

أخرج إسحق ماله ووضعه أمام سيف الذي لم يشغل باله كثيرًا بتغيير الطلب هذه المرة، وهمَّ يُنفِّذ ما طُلب منه. في ذلك الحين أتى رجلٌ آخر ووقف بجانب إسحق وهو ينظر له مزدريًا إياه بغير سببٍ بيِّن، عاد سيف ومعه كم كبير من البوظة ليُعدَّ طلب إسحق، فحيَّا الرجل الآخر حينما رآه مباشرةً بحميمية الأصدقاء:

- مرحى سالم، سُررت برؤيتك الآن.

- مرحبًا صديقي.

قالها سالم وهو يتنهَّد، ثم صمت حينًا، قبل أن يُكمل بنبرة تهكُّم:

- هيا دعكَ من مُربّي الحيوانات هذا، واصرفه سريعًا، لكي أخبرك بأمرٍ مهم جئتُ لكَ من أجلهِ خصيصًا.

ضحك سيف مستهزئًا وهو يُفرّغ طلبات إسحق من البوظة أمامه، والذي ملأ الاستياء وجهه، وصوَّب نظره مباشرة إلى الأرض خجلًا ولم يعلّق. بعدئذ رد سيف سائلًا سالم قبل أن ينتهي من ملء أخر جرة بوظة:

- صندوق عين الذهب؟

- لا لا، غير ذلك.

- أجئت بشأن قرارات العمدة لنتناقش بها؟ لا يوجد عندي مانع.

- لا.

- نتوقع من هو القاتل؟

- لا أيضًا.

حينذاك كان سيف قد انتهى من تحضير طلبات إسحق كلها ووضعها أمامه، فأخذها الأخير في عُجالة بأيدٍ مرتعشة، ثم انصرف مسرعًا تاركًا إيَّاهما، دون أن ينهمك معهما في مهاترات حديثهما، لم يولّ ظهره لأحدٍ وتوارى عن الأعين سريعًا. فعقَّب سيف:

- ما حلَّ بِابن الحرام هذا؟! مثله مثل الجميع، جبناء.

ثم بعد ذلك وضع يده على كتف سالم صديقه، وأخذه ودلفا داخل الحانوت، عندما علم أنه يريده في موضوعٍ شخصيٍّ بحت، وهو يقول:

- هيا نُكمل حديثنا في الداخل، حتى لا يشكوا في أمرنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على قارعة الطريق، التقى الأصدقاء في نهاية الأسبوع بعد أن انقضت أعمالهم وأتمّوا ما وراءهم، لكي يتسكَّعوا سويًا في البراح كعادتهم دومًا. يافث، بدر، حسن، وسعد. رفاق الدرب منذ نعومة أظافرهم، تجاوزوا جميع المراحل برفقة بعضهم البعض حتى شبَّ طولهم وصارت أشغالهم تفرّقهم حينًا، لكن لا يمر أسبوع واحد إلا ويلتقون في نهايته يتسامرون ويتشاركون الأحاديث والأفكار، عدا غيث رفيقهم الخامس، مُكمل الجَمع، ومُنقصه كذلك، الذي رحل توًّا وترك الجميع يبحث وراء سبب مقتله في فاجعة هزَّت تماسك البلدة، بل إنه أيضًا قبلها قد عزم البُعد والرحيل عن أصدقائه وتركهم في نفس الحيرة أيضًا، فبهذا زاد حزنهم عليه أكثر.

بأسفٍ استهلَّ بدر الحوار، بعد أن تبادلوا التحية:

- استجوبونا في موت صديقنا! إنني الحين أشعر بفقدان غيث أكثر.

- الآن فقط خسرنا فردًا، رغم بُعده الأيام الأخيرة.

قالوها بهدوء كرجلٍ واحد، ثم تمتموا بالتعزيَّة، عدا يافث الذي بدا الوجوم على وجهه بازغًا كشمس الصباح منذ أن قابلهم. تعجَّبوا، فقال حسن:

- ماذا بكَ يا يافث؟ ولمَ لمْ تفتح دكانك في السوق منذ يومين؟ مختفٍ ولا تُباشر عملك!

- أجل، لاحظت ذلك أيضًا!

لفظها سعد مذهولًا، فأخذ يافث وقته حتى رد عليهم هائمًا:

- ملامحها لازالت تحتل مخيلتي، وطيفُها برِقَّةٍ يتراقص أمامي.

اندهش الأصدقاء لهذا الرد المُبهم، ولم يفهموا ما يدور بطيَّاته مباشرةَ، وجدوا صديقهم في حالةٍ يُرثى لها، صوتٌ خنقهُ الضيق، وملامح يائسة لا تدُل إلا على ضجرٍ بيِّن، لم يكُن بهذا المظهر من قبل، فعاجله بدر بعد أن مال عليه ووضع يده على كَتفه:

- تحدَّث يا خِلّي، هيا بُحْ بما داخلك.

لكمهُ سعد بخفَّة وهو يقول:

- الحزن يُدهس في هذه اللَّمة يا رفيق، أنسيت؟!

التفَّ حسن ووقف أمام ثلاثتهم وهو يلوّح بيده للوقف، ثم أشار إلى يافث مازحًا:

- صهٍ جميعًا، الآن لكَ الكلمة سيد يافث.

فابتسم قليلًا رغم المعاناة التي كادت أن تمزّقه أشلاءً في الفترة الماضية، ثم بعد ذلك بلحظاتٍ زهيدة قاوم صمته وانتصر عليه، وأردف بصوتٍ منكسر:

- فكرة أن أعود وحيدًا تقتلني، كانت هي عائلتي التي حُرمت منها وأفتقدها، لا أعلم لمَ ألقت بي في التهلكة بهجرانها لي؟!

رد حسن مسرعًا بنبرةٍ متعجبة:

- وداد؟!

فأشار له بدر بعينيه لكي يَصمُت، حتى يُكمل يافث:

- كانت نفسي التي نافست طواحين الحياة حتى أظفر بحبها، قاومت وتركت ورحلت عن الكثير من أجلها، رأيتها نارًا، فقررت أن أطفئها أو أن أُحرق داخلها، من يوم أن رأيتها منذ عامين وهي لا تفارق ناظري، آنذاك كان بداية ربيع حياتي، فصرنا نلتقي كل نهار بلا كلل، أقطع لها المسافات سيرًا على الأقدام مهما كانت كبيرة، ليقيني التام بأن رؤيتها تُعطيني أملًا في أن يكون اليوم جيدًا، فأكملهُ بابتسامةٍ ودودة، علاوة على أنني كنتُ أُضيء إثر تلاقي نظراتنا، وطلَّة ثغرها المشرق عليّ، هي حلمي وأمنيتي، قراري الوحيد الذي اتخذته، فداومت أحضر لها أزهارًا وأسرد لها الشعر غزلًا معبرًا عن حبي لها، عشقي لها يصعب على لساني وصفه، كل المعاني الآن لا تُحيط مشاعري، فقط هو سيل من الكلمات ينهمر من عقلي الذي خرَّبتهُ بحُسنها، لقد كنا من قريب نُنهي الاتفاقات الختامية حتى نكون سويًا بصفةٍ رسمية، كنت أعمل ليلًا ونهارًا بكد حتى يتسنّى لي إكمال زيجتنا بيُسر، لكنها ختمت علاقتنا وأنهتها للأبد بأن تزُج بي في غياهب الشقاء، وتعيدني لوحدتي مجددًا، بعذرٍ واهٍ يدُل على أنني أخطأت في حق نفسي كثيرًا، وها أنا الآن أتمادى في الخطأ بلًا مبالاة، تركتني وهي تلوّح بيدها راحلة متمنية لي النعيم في هذا الجحيم! أحرقتني نارها بقسوة، وأطفأتني، عاملتها بقلبي فقط، فخدشته ثم اختفت، وما تركتني إلا وأنا عبارة عن انتكاسة تلفظ أنفاسًا، ويُحيط بي هالة سوداء تخنقني.

حزنوا بشدة من أجل صديقهم، فهم يعلمون جيدًا كيف كانت تتمثل وداد في حياته، حلّ العبوس على وجوههم مشفقين عليه، ووجدوا أن أي رد لن يُجدي نفعًا الآن، ولن يُطفئ هذه النار المشتعلة أبدًا، فذكرياته مع وداد تُقيم حفل شواء داخل فؤاده الحين، وتُفتت جنباته بلهيبها، فاكتفوا جميعًا قائلين بلطفٍ يُربِّت على انكساره:

- نحن بجانبكَ يا صديقنا، لن نتركَكَ.

لم يكترث يافث الذي لايزال شاردًا، وهنيهة من غيابه حتى تابع تَرِحًا:

- وبّختني من أجل غيث قبل أن ترحل، متناسية كل شيء حيال هذا الموضوع!

- أجل، لقد كانت سبب مشكلتك مع غيث، والعراك الذي نشب بينكما.

قالها سعد مُتذكرًا؛ فانفعلوا، وتبدّل حينها حالهم جميعًا، وعقَّب عليه بدر:

- فرَّقت بينكما، وقعتما أنتما الاثنان في حبها بغير إرادتكما، وتنافستما على الظفر بها، فضّلتك عنه، فوقع بينكما هذا الخلاف الكبير متناسين صداقتكما القديمة، والذي يبدو أنه سبب بُعد غيث عنا أيضًا، يا للأسف عليكما!

- ومن بعد أن توعَّدتما لبعضكما يوم أن تشاجرتما في لقائنا الأخير به، وغيث يستمر على مضايقتك في عملك بالسوق من خلال نفوذ والده، وهذا أمر لم يتم البوح به لأحد ولا يعلمه غيرنا حتى الآن، لأنه يأبى بغطرسته المعتادة أن يعرف أحد أنها رفضته! وأنت لقد حذّرناك منها كثيرًا ولم تُنصت بعد أن غيَّب سحرها عقلك، خصيصًا أننا لا نعرف عنها شيئًا، مَن عائلتها! ولا من أين أتت! وأخذت تقول إن الحُب لا يأبه لمثل هذه الشكليّات!

قالها حسن واللوم يكتنف صوته، فامتعض يافث، ومسَّهُ الضيق عَقِب حديثهم هذا، أصدقاؤه الذي من المفترض أن يخففون عنه، يضربون ألمه بلا مبالاة، لكي تزداد أوجاعه وتتفاقم، لكنهم لم يتعمّدوا ذلك بالطبع، هم أرادوا فقط قول الحقيقة، وإيضاح الأمور ليس أكثر، ولم يودوا خداعه قط، فغضب كثيرًا بعد أن لاح عليه التوجُّس، وزحفت الريبة إلى حواسه، ثم أخذ حاله مرتعدًا وترك جَمعهم الذي صار حملًا عليه، ورحل بعيدًا عنهم، دون أن يودّعهم حتى، أو أن يلتفت لنداءاتهم المتتالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نفوسٌ تصدَّعت وأصبحت مهترئة لا تصلح للعيش، تقوقعت في جُحرها بلا خروج، ليالٍ عامرة بالصمت، فقط تستطيع سماع أنفاسها الهزيلة ودقات قلوبها الخائرة كحال من لا أمل له في الحياة، هكذا كان يُساير العمدة قنديل وزوجته سوزان أيامهما بعد قتل وليدهما، حالة الأم تزداد سوءًا من حين لآخر، بلا تحسُّن، والأب لا يملك إلا تكثيف البحث وطلب إيجاد القاتل في أقرب وقتٍ ممكن، لكي يُرضي ذاتهما ويضمد الثقب الذي جرح روحهما بخشونةٍ وعنف.

نفذ حارث من باب السراي الكبير، البناء الذي ساده الظلام، فهو الشخص الوحيد المسموح له أن يجتمع مع قنديل في هذه الآونة، ليبلّغه بما يتم في البلدة، ويحيطه علمًا بكل كبيرةٍ وصغيرةٍ تجري بها. كان الأخير جالسًا بعينٍ مُعتمة تسكن وجهًا

عابسًا لا يفارقه منذ أيام، موقنًا أنه لن يودّعه إلا عند رؤية دماء مَن أمسك بالخنجر الذي طُعن به غيث غدرًا تسيل أمامه أنهارًا، أما الأول فانتصب أمامه باسلًا كما عاهدة دائمًا، ثم أجاب مترويًّا بعد أن سُئل عما وقع مؤخرًا:

- في البداية تم التحقيق واستجوبنا أهالي البلدة كلها كما أخبرتك، بعدما يأسنا من الرجل الذي وجد الجثة والعساكر المسئولة عن مراقبة غيث، ثم قمنا بجمع وتدوين كل شيءٍ يقوم بفعله وهو بعيد عن أعيننا لنرى ما خفي عنا، ولكن كل هذا لم يصل بنا لطريقٍ واضحٍ نسير خلاله! حتى مَن زاد الشك بهم ألقينا القبض عليهم ووضعناهم في السجن، لكي يذوقوا العذاب بمختلف طرق طهيه، ولكن بلا فائدة أيضًا، واتضحت براءتهم سريعًا، فيبدو أن الإبرة خارج كومة القش من الأساس! ثمّة أمر مُريب لا نعلمه! لم نجد هنا حتى طرف خيط صغير نمسكه ونبحث وراءه، الجميع كان يهاب غيث، ويهاب الحراسة التي لا تفارقه أغلب الوقت، فلم يَكُن له خلافات مع أحد، أو بالأحرى لم يقدر أحد على مضايقته، سواء كان من أصدقائه القدامى الذين أخبرونا أنه بَعُد عنهم فجأة دون مبرر ولم يتم بينهم شيء يدعوه لذلك، أو من أصدقائه الجدد الذين أكّدوا هم والشهود أن ولدك تركهم في الحانة وعاد وحده دون أن أي خلاف مع أحد حينها أو في أي وقتٍ سابق، ورحل كعادته كل يوم برأسٍ أشبعها السُكر، فبالكاد هناك من يتربّص به منذ فترة كبيرة لسببٍ ما، شخص أو عدة شخوص أعدك أنني سأجدهم قريبًا.

رفع قنديل وجهه حانقًا بمقابل حارث، أمعن النظر إليه قليلًا، ثم ردّ عليه بصوتٍ منكسر:

- كل ثانية تنقضي في بحثك هذا، تُطعن بها روح زوجتي!

- أعتذر لكما، فليس بمقدوري فعل أكثر من ذلك، ولكنني سأحاول بالطبع، وأريد إخبارك أنني حققت مع المشاركين في صندوق الذهب بصفةٍ خاصة بوصفهم طرفًا تقع عليهم التهمة، لكن أحاديثهم كلها رفعت من عليهم اللغط، وأبعدت كل الشكوك عنهم كما قلت أنت، عوضًا عن ذلك فقد تم إرضاؤهم قبلها، فلا يوجد إذن مبرر قوي يدفعهم لاقتراف هذا الذنب، أما بالنسبة لأهل البلدة فكل كلمة كانت تخرج من أفواههم النتنة هذه كانت تُعقّد البحث أكثر، وتدل على أن كل شيء سار ليلتها بعيدًا عن غيث، بالإضافة لهذا فإن أحاديثهم توحي وتُثبت أنه كاد يقترب من السراي هنا. كثيرون قالوا إنه اقترب من المجيء لبيته، فكيف وجدناه طريح الأرض في أحد الأزقة البعيدة عن هنا بكثير! ولم يره حينها ولو شخصًا واحدًا حتى، إلا بعد أن قُتل بالطبع، عقلي يضربه الشك والجنون في آنٍ واحد، لكن سأتمالك نفسي، فالمتبقي هو تقفّي أثر أعدائكَ أنتَ من خارج البلدة، دعني أُحزّر من هو في الخيط الأخير هذا، ولنرى إذا ما ستؤول إليه الأمور بعدئذ.

فصاح قنديل بنفسٍ جريحة:

- خلّصنا أرجوك.

- لا تقلق حضرة العمدة، ثق بي كعادتك، أنا أقدر على إتمام هذه المهمة، وما أود قوله لك أخيرًا واعذرني إن كان هذا يُزيد من الضغط عليك، لكن يجب أن تولّي له عقلك، هو أن مخزونك عند أهل الرأي يكاد أن ينفد، شكوكهم بنا تزداد، ولا نعلم إن كانوا سيقلبون الكفّة علينا في أي وقتٍ أم لا! فيجب أن ننتبه لهم ونعمل على إرضائهم رغم صعوبة ذلك الأمر، لأن بالطبع أهل البلدة سيذهبون لهم ويوغرون صدورهم ويقدمون شكواهم فينا حيال ما يتم معهم الحين، لكننا سنلعب على وتر الحزن ونكبة الفقد لنبرر ما يتم الآن، ثم إسكات أفواه حاشيتك بما يريدون ونكمل دربنا بهدوء، لأن مصلحتهم فوق كل شيء كما اعتدنا منك دائمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في دُجى الليل، أنهت اختباءها المنعقد ببيتها الصغير في الساعات المنقضية، خرجت معهُ وسارا سويًا إلى أطراف البلدة في خفية، يتلفتان حولهما بتؤدةٍ شديدة كي لا يلمحهما آخر، كمُذنبَين يهربان من جريمةٍ قاما بها للتوّ، سارعت خطواتهما بحذرٍ تعلم تمامًا إلى أين ستقودهما، فتخطّيا الطرق حتى وصلا إلى بيتٍ قديم مُتهدِّم يترامى كغيره من البيوت الهالكة على الحدود، ثم تواريا خلف أطلاله في منأى عن العيون.

وداد تلف غطاء رأسها على كل وجهها بغية إخفاء ملامحها، وأمامها رجل ضخم البنية، طويل القامة، ملثم لا يلوح مظهره فلن يتعرَّف عليه أحد، تقف الفتاة كقطةٍ بريئةٍ بمحاذاة غولٍ قوي البنيان. بعد أن تأكّدا من أمان موقعهما، شرعت وداد في الحديث بأنفاسٍ أنهكها السير، ورأسٍ محنٍ:

- لقد انتظرتك منذ يومين! لمَ تأخرت؟

رمقها بعينيه، ثم أجاب بصوته الغليظ:

- عطّلني حال البلدة، كانت جميع منافذها مغلقة فاستعصى عليّ الدخول إليها، حالة من الشد والحذر غير معتادة، لكنني تسللت بصعوبةٍ الآن بعدما ارتخى الأمر قليلًا.

- لا أستطيع الانتظار ليلة واحدة بعد الآن!

- ليس قرارُكِ، اهدئي.

- حسنًا، ماذا بعد؟

- أخبريني أولًا، ما الذي تم بالضبط؟

- بعد مقتل غيث ابن العمدة بغرابةٍ هكذا، حلَّت هذه الحالة بالبلدة، ولم تهدأ قط، فوقفت على قدمٍ وساق ولم تعتدل حتى الآن إلا قليلًا، العساكر يجوبون أرجاءها ليعلموا كل شيءٍ عن القتيل وما تم معه عن طريق استجوابهم للأهالي، ثم بعـ...

قاطعها مستفسرًا، بنبرةٍ تحوي توترًا جليًّا:

- حتى أنتِ! بماذا أخبرتهم؟

- أنا لا أعرفه، ولم أره مطلقًا، وإن كان قد جمعتني به أية مقابلة، فهي من قبيل الصدفة، ويوم أن قُتل أنا لم أكن في البلدة بالفعل، هذا ما قلته، لأنني أعلم جيدًا أن غيث يخفي كل شيء يخص حياته عن أبيه ورجاله.

- أحسنتِ صُنعًا، وهل وقع الشك على أحد؟

- لا أعتقد ذلك، فلن يتحدّث أي أحد في هذه البلدة بكلمة واحدة قد تضره أو توقع الضرر على غيره، أغلبهم سينفون معرفتهم بما حدث، حتى أقرب الأشخاص له.

- كما المتوقع إذًا، أكملي.

- أصبحت هناك حالة من الغضب في نفوس جميع الناس مما يتم معهم، يبدو أن الضربة موجعة كما يتضح، وستطرأ تغيُّرات عدة في الفترة المقبلة لن يُحمد عقباها، أما بالنسبة للأمر الأخير الذي طلبتموه مني، فإنني قد عُدت لصوابي كما أمرتم ونفَّذته، وتركت هذا الفتى إلى الأبد.

أومأ الرجل رأسه في رضى وهو يزفر نفسًا عميقًا، ثم أكمل بعد أن مَسَح أنفه:

- جيد، وهذا هو المطلوب، إذًا هي النهـ...

آنذاك سمعا صهيل خيل قادمًا من بعيد أربكهما، فأمسك الرجل وداد مُطبقًا فمها، ثم أخذها سريعًا وتلامسا مع الحائط المتبقي من هذا البناء بلا صوتٍ حتى يختفيا تمامًا، انتظرا لحظاتٍ معدودة حتى بَعُد عنهم هذا الصوت وتلاشى، فتركها وعادا لوضعهما مجددًا، ثم تابع مسرعًا:

- إنها نهاية دوركِ هنا، لقد أبليتِ بلاءً حسنًا، فلترحلي الآن كما قيل، لكن قبل ذلك، نفّذي ما سأقوله لكِ بالحرف الواحد، ثم اختفي تمامًا بلا أثر، ولا عودة.

- أمرُك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباحًا يسيرُ على نحوٍ جيدٍ عكس الصباحات الماضية، الوضع هادئٌ وساكنٌ، وبدأت الأمور تعود إلى مجراها مجددًا كما كانت من قبل. هزم يافث ظنونه المنهكة، وتغَّلب على كلٍ من حزنه الطاغي ودوامة الأفكار والتساؤلات التي وضعته فيها وداد، فأنار عقله تلك الظُلمة من حوله، ليقرر أن يتناسى ما حدث تمامًا، معاهدًا نفسه على إعلاء شأنه من أجله فقط وليس من أجل أحدٍ آخر، وعدم هدمه لما بناه طوال السنوات الماضية من أجل أي شيء ما، فوجد أنه عندما يتوه في مصاعب عمله ويشغل ذاته به، فسيقدر حينئذ على تخطي هذه العقبة التي أحنت ظهره، وسيعمل جاهدًا على جعلها حافزًا للمضيّ قدمًا في حياته، وتحويل هذه الورود الذابلة التي تُحيط به إلى ياسمين زاهية تزدهر بها آماله، والسير بجؤجؤٍ(1) رحبٍ بدلًا من النفس المنهزمة هذه.

خرج من بيته يقارع نِصال العالم، توجَّه إلى مصدر رزقه بالسوق راجيًا مترقبًا ألا تخذله الحياة هي الأخرى، فتحهُ وثكم(2) به واستعدَّ إلى مباشرة يومه طبيعيًا كما

كان، رغم أن دكانه يكاد يكون فارغًا من الغلال الحين، إلا أنه يأمل أن المؤن الموجودة هذه توفّي غرض هذا اليوم، وفي القريب العاجل سيجلب المزيد إليه.

سريعًا قد جاءت له امرأة وابتاعت جزءًا صغيرًا ثم رحلت في الحال، بدأ بها يومه، ثم لم يمكث حينًا آخر بعدها حتى حضر رجل نحيل واهن الجسد وقصير القامة، مكدودٌ ويبدو عليه الإرهاق والإعياء، ووقف أمامه مباشرةً.

- أهلًا بخيت.

استقبله بها يافث، فرد عليه:

- جئتُ لكَ كثيرًا هنا، ولم أجدك، بل كان دكانك مغلقًا!

- كنتُ منشغلًا فقط.

قهقه بخيت، وهو يُضيف بعفوية:

- رجال العمدة أصرّوا على استجوابي، أقول لهم إنني ضيفٌ جديدٌ ولستُ من هنا، وهم لا يصدقونني إطلاقًا، لكن في النهاية سأموا مني وتركوني ورحلوا.

لم ينسق يافث لمزاحه، قائلًا:

- أنصت، وكفى هراء. كما اتفقنا مسبقًا، بعضُ المال بالإضافة إلى جزءٍ من الغلال تتصرَّف بهما كما تشاء.

ضحك بخيت:

- اتفقنا.

- قريبًا!

- حسنٌ، كما تريد.

- جيدٌ.

وبرهةً حتى تابع يافث مجددًا:

- ستأخذ الغلال عندما أقوم بجلب دفعاتٍ جديدة من الضيعة، فكما ترى الدكان فارغ من البضائع الآن، سأذهب وأحضرها قريبًا وستكون عندك، فلا تعبأ لذلك.

حكَّ بخيت ذقنهُ متذمرًا، ثم استطرد وهو يومئ رأسهُ:

- لا توجد مشكلة.

ثم أضاف سريعًا، وهو يتساءل:

- لقد سمعتُ أن عرَّافة الضيعة قد اختفت، ولم يجدوا لها أثرًا حتى الآن! ألا يوجد عندك تفسير لهذا؟

- لا، لا تهمني هذه الأخبار.

قالها يافث بنفاد صبر ولا مبالاة، ثم أقبس بخيت مالًا حتى يتسنى له الرحيل وتركه، لكي يُكمل هو متابعة زبائنه كما يشاء، فمرَّ الوقت رشيقًا حتى نفد كل ما عنده من غلال، وجمع إثرهم مبلغًا جيدًا من المال، بعد ذلك اعتذر لكل من أتى له متأخرًا، ثم همَّ بإغلاق دكانه مجددًا، متأهِّبا للعودة إلى بيته مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطبقت النجوم والليل مقمرٌ، خيَّم الظلام على البلدة فقلَّت الحركة بها مباشرةً، أناة الليل حاضرة عند مرتع الجميع، عدا سراي العمدة التي تهتز جوانبها مرتعدة من هياج قنديل وسخطه، الذي يقف منفعلًا ويزفر أنفاسًا متوهجةٌ شرارتها، وتبرز عروق وجهه الذي أربد واكتسى بحُمرة الغضب، بعدما أخبره حارث أن هناك من خالف وثيقة الأوامر، وكسرها. قال له إن هناك رجلًا يقبع في أطراف البلدة يُقيم حفل زفاف لابنه الآن، ولم يأبه لما أمروا به وتجاهل القرارات تمامًا، فحدَّجهُ قنديل بنظرةٍ حادة، وهو يصيح:

- متمرِّدون! اِلق القبض على كلاهما حالًا، وضعهما في السجن، أفسد عليهما فرحتهما حتى يكونا عبرةً للآخرين.

- الآن، الحفل لم ينته بعد!

- حالًا، العصا لمن عصى.

حجارة الغضب تتدحرج وتَكبُر تدريجيًا منذ أن قُتل غيث، فآن لها أن تسكن جوف الأرض ليطول بطشها الجميع. انصرف حارث مودعًا قنديل لكي يُنفِّذ ما طُلب منه، وتركهُ وحدهُ يحارب ضيقهُ ويُناوش تداعيات عُسر البحث عن قاتل ابنه قدر تحمُّله، ليذهب بدوره ويهدم الفرحة على رؤوس أصحابها، ويحطّمها بلا رحمةٍ ولا شفقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في وَسَط النهار، تحمل وداد في كلتا يديها حقيبتين صغيرتين ممتلئتين بأهم أغراضها ومقتنياتها من ملابسٍ وحُليّ وغير ذلك، عازمةً النزوح أخيرًا من هنا، تسير بهما وحدها في إحدى الطرق بالبلدة، متجهة إلى بيتِ إحدى صديقاتها المُقرَّبات، وصلت له بعد حينٍ من الوقت، فطرقت بابهُ بتريُّثٍ ثلاث مرات، لتخرُج لها خليلتها التي تُدعى هند، ثم رافقتها إلى الداخل بعد أن رحَّبت بها بحرارةٍ شديدة، لكن سرعان ما بدا عليها التعجُّب مما رأته في يديّ وداد.

- ما هذا؟! إلى أين أنتِ ذاهبة؟

سألت هند مندهشةً، فأجابت صديقتها:

- جئتُ لكي أودعُكِ.

- لمَ؟

- سأرحل للأبد من هنا، بلا رجعة مطلقًا، ولمْ أقدر على فعل ذلك دون أن أراكِ، وأودعكِ للمرةِ الأخيرةِ.

التفتت لها هند مشدوهة:

- إلى أين؟ ولمَ بشكلٍ مفاجئ هكذا؟!

- هذا ما حدث، سأظل أتذكَّر جُلّ الوقت الذي قضيناه سويًا، ممتنةً له، وأبتسم.

- يبدو أنه قرار نهائي.

أومأت وداد بأسى، فتابعت هند مذهولة:

- وبالنسبة إلى يافث؟

تكوَّرت آنذاك دموعٍ كثيفة في عيني وداد، ثم سالت على جبينها بألمٍ:

- لقد أحببتهُ حبًا جمًّا، كغيرهِ من الأشياء الجميلة والنقيّة التي أنارت دُنيتي، لكنه انتهى أيضًا، فحياتي دائمًا تفرض عليّ النهايات المفاجئة، ولا يوجد بيدي غير القبول، وللأسف حتى هو لن يعرف إلى أين سيكون مثواي القادم، وسأحاول نسيانه ومحوه من ذاكرتي على قدر المستطاع.

اقتربت منها هند واضعةً راحة يدها الناعمة على كتفها، ثم همست برِفقٍ لتُخفف عنها حزنها، دون إرهاقها بأسئلةٍ أخرى:

- لن أنساكِ أنا يا صديقتي، سأشتاقُ للحديثِ والجلوسِ معكِ كثيرًا.

ثم تعانقتا مجددًا بحميميةٍ عناق الوداع وهما تبكيان، فقد كانا أقرب الصديقات لبعضهما، تتشاركان الحديث والآمال والأغراض والأفراح، وحتى لحظات الحزن طيلة الوقت في العامين الماضيين، لم تترك أيديهما مرافقة بعضهما ولو يومًا واحدًا أبدًا، لكن آن الآن حدوث ذلك، وانتهاء هذه الفترة الرائعة بكل ما تحتويها في حياتهما، والبدء في فترةٍ أخرى. كفكفت وداد دموعها ثم أخذت حقيبتيها وخرجت من بيت هند شاردةً، سارت وهي تتذكَّر كل لحظةٍ مرَّت عليها في هذه البلدة بحلوها ومُرِّها مع كل خطوةٍ تخطوها على أرضها الحين، جميع الذكريات تمرُّ جليّة أمام عينيها، شاعرةً من الآن بالحنين الذي سيراودها كثيرًا حيال كل ما تعلَّقت به هنا، وستعاني بشدة من فقدانه.

لكل رحلةٍ نهايةٌ محددةٌ، ولكل مغادرٍ بصمةٌ ختاميةٌ يرغب في تركها، فقبل نزوح وداد نهائيًا كان هنالك أمر أخير تنوي تنفيذه، وتختم به مسارها هنا، فأفاقت من شرودها جيدًا وتيقَّظت، ثم عرَّجت بخطى متثاقلة وبما تحمله في يديها على مقر هيئة البلدة مباشرةً، من بيت هند ذهبت إلى هناك وقابلت خارجه العساكر الماثلين أمام مدخلهِ للتأمين، طلبت منهم أن تقابل مساعد العمدة بشكل عاجل، لكي تُبلّغه أمرًا مهمًا لا يحتمل الانتظار، ولحسن حظها أنه كان موجودًا هناك حينئذ، فوافق بترحابٍ وسمحوا لها بالدخول إليه.

- ما اسمكِ؟

قالها حارث وهو يُمرر نظراته بين ورقاتٍ مبعثرة وموضوعة أمامه على مكتبه الخاص، فردَّت وداد برهبةٍ وعرَّفت نفسها إليه سريعًا، ثم بعد ذلك نظر إليها

متسائلًا مرة أخرى:

- ها، ما هو الأمر الذي أحضركِ إلى هنا وتودين تبليغهُ إليّ؟

تنهَّدت وداد قبل أن تزدرد ريقها، وتُجيب بنبرةٍ مرتجفة وضربات قلبٍ مسموعة:

- جئتُ لكَ لأُبرئ ذمتي، وأقول الحقيقة.

فانتبه لها حارث جيدًا، وكله آذان صاغية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو لوهلةٍ بالنسبة إلى الناظرين كأنه هائم في اللا شيء، تائه لا يجد ذاته، لكنه على العكس تمامًا، حارث يُفكر، يتدبَّر، يلملم جميع ما استنتجه في الفترة الماضية ويحضّره للتأهُّب والخروج من عقله بعد قليل، فهو يمتطي حصانه ويمضي به متجهًا صوب سراي العمدة في ظلام الليل هذا، لكي يقابله. انتهى به السير إلى هناك على مهلٍ شديد، دلف من الرواق الخارجي ثم نفذ إلى جوف البيت الكبير فورًا، في بادئ الأمر قابل سوزان، التي تغيَّرت كثيرًا عن ذي قبل، لأول مرة يظهر عليها الكِبر هكذا، فَقْد ابنها سارع في تغضُّن جلدها ورسم الحزن بازغًا عليها، ما لم تقدر عليه السنوات، فعله الموت في غضون أيام. كانت تخطو بخطواتٍ هزيلة للصعود إلى أعلى، فلمّا رأت حارث وقفت، حيَّاها وهو ينحني لها واضعًا يده اليُسرى على صدره احترامًا وتقديرًا، فبادلته التحيَّة بوجهٍ يرفض الابتسام، ثم أشارت له بالانتظار في المجلس، لحين نزول العمدة من أعلى، فأومأ رأسه وفعل ذلك تلقائيًا.

أرسلت سوزان أحد الخدم حتى يُخبر زوجها بقدوم مساعده، وأنه يمكث في انتظاره بالأسفل، فلم يتأخر قنديل جرّاء هذا النداء وجاء إليهما سريعًا، ألقى السلام على صديقه ثم جلس على كرسيه الضخم بالمنتصف، حينذاك طلبت سوزان منه أن تظل معهما إن كانت هناك أخبار تخُص قتل غيث، فهي بانتظار أي كلمة حتى لو كانت نتاج تكهُّنات لكي تُبرِّد النيران التي بداخلها، هزَّ حارث رأسه موضحًا حدوث ذلك، فوافق قنديل رأفةً بحال زوجته، وسمح لها بالجلوس برفقتهما، لمعرفة مصير حق ولدها القتيل.

شرع حارث الحديث بقوله:

- المستعمرة.

فوجئ العمدة وزوجته بهذا القول، ولم ينبسا ببنتِ شفة، فتابع موضحًا وهو ينظر إلى قنديل:

- بعد تفكير طويل، وقع شكي بنسبةٍ كبيرةٍ على الراعي، فمن بعد الخلاف الذي حلَّ بينكما منذ عامين، وهو بالتأكيد تعطَّل عمله وتجارته وتكبَّد ضررًا كبيرًا حينما نشب بينكما هذا الخلاف على أخر تجارة عُقدت بينكما، حين رفض الانصياع لقراراتك، فقطعتَ آنذاك قدمه هو ورجاله من البلدة، ومنعت دخولهم إليها إلى الأبد، وأبعدتهم عنها. لقد حاول كثيرًا إرضاءك طيلة هذين العامين لكنك كنت تأبى ذلك، فأرى مثلًا أنه من الممكن أن يكون قد ثار وفاق غضبه مقدار صبره، وقرر الانتقام

منك بقتل غيث ابنك، تعويضًا لخساراته الكبيرة التي واجهته بسببك، فيتلذذ بحسرتك عليه، بل يصل هذا الرأي إلى الصواب بنسبةٍ هائلة.

- مَن هو الراعي؟! وما هي هذه المستعمرة يا قنديل؟

رمق قنديل سوزان بعينين ثاقبتين ونظراتٍ حادة لكي تصمت، إشارة منه لها بالتوضيح فيما بعد، حتى يتسنى لحارث إكمال حديثه:

- برغم إبعادك له عن هنا، فإن عيونه في البلدة كثيرة، ومجهولة الهوية، ومن المؤكد أنه طوَّعها لمساعدته في تنفيذ مخططه، الذي انتظر كثيرًا حتى تأتي اللحظة المناسبة لإنهائه.

تقدَّح الشرر من قنديل، وصارت عيناه جمرتين من لهب، أما سوزان فكعادتها تبكي بحُرقة كلما ذُكر اسم ابنها، فعاجلهما حارث مُكملًا وهو يلوّح بسبابته:

- هذا هو المسار الأول، أما المسار الثاني فجاءت خيوطه إليّ عصر اليوم.

انتبها له مجددًا:

- انقسم الشكّ إلى نصفين، فقد حضرت إليّ منذ ساعات معدودة فتاة تُدعى وداد، زعمت أنها كانت محبوبة غيث ومتيَّمته الأولى، وقالت أمرًا مهمًا سنضعه نصب أعيننا ونحقق فيه بجانب المستعمرة، أخبرتني أن هناك شابًا اسمه يافث، وذلك تاجر غلال صغير لديه دكان بالسوق، هو وغيث كانا صديقين مقرَّبين، لكنها أحالت بينهما عن غير قصد، فهما الاثنان وقعا في حبها حينما رأياها للمرة الأولى، فهي كما رأيت مليحة وحُسنها يستحق ذلك، وقالت بكل وضوح ودون خجل إنها أعجبت بيافث، وبادلته شعور الحب مع مرور الوقت، فبالتالي رفضت تقرُّب غيث منها، فغضب ولدكما من صديقه، وقامت بينهما عداءات كثيرة وخلافات، ووصل بهما الأمر أكثر من مرة للشجار والتطاول على بعضهما البعض وتراشقهما بالألفاظ، حتى تفاقم الأمر ووصل بيافث أنه توَّعد لغيث بالضرر إن لم يبعُد عنهما، ثم قالت إنها نصحت محبوبها بالتحلي بالصبر وأن يبعدا هما عنه، لكنه رفض ولم يرضخ إلى طلبها، وأصرَّ على ذلك مرارًا وتكرارًا، وبدأت ضغينته تظهر رويدًا رويدًا بوضوح، حتى انتهى الأمر بعد موت غيث، فقد لاحظت عليه تغيُّرًا وارتباكًا واضحين، حتى أنه لم يخرج في جنازة صديقه القديم، ولم يُقدِّم فيه التعزية، فإذعانًا لضميرها وشكِّها به، ضربت قلبها بخنجر الرضوخ للحق، وجاءت توشي به حتى لا تُخفي الحقيقة، ويُعاقب من تلطَّخت يداه بالدماء، وقالت إنها امتنعت عن قول ذلك في التحقيق من ذي قبل لأنها كانت مترددة، وخائفة، لكنها هزمت ترددها بالعقل، فهي لم تعُد تستأمنه على نفسها بعد الآن، فشكرتها ثم سمحت لها بالرحيل، أما بالنسبة للتحقيق مع البقية فلم يقُل أصدقاء غيث ويافث كل هذا، وأنكروا هم الآخرون معرفتهم بشيءٍ قد يُفيدنا، تملَّكني الغضب كثيرًا، فخرجت أنا بدوري وذهبت إلى هؤلاء الفتية، عدا هذا الشاب المشكوك بأمره، لأتقصّى أثر هذا الحديث، في البداية وبَّختهم فارتعدوا وخافوا كثيرًا من أن يُعاقَبوا، حدَّثتهم بكل ما قالته هذه الفتاة وأمرتهم بقول الحقيقة، فأقروا بهِ سريعًا ولم ينكروا، وقصّوا جميعًا ما رأوه

وحدث أمامهم بالتفصيل الممل، بعد أن أمرتهم بتنحية الصداقة جانبًا حتى لا يمسّهم الأذى والضرر، ثم قالوا أيضًا إن غيث كان قد بَعُد عنهم بعد تلك الأحداث في الفترة الأخيرة، واختفت جميع أخباره عنهم، فلم يقولوا شيئًا جديدًا قد يساعدنا، واكتفوا بتأكيد ما كنت أريده، فشكرتهم هم الآخرين لتعاونهم معي رغم تأخره، وأمرتهم مرة أخرى بألا يعرف يافث بما حدث، وأن يتعاملوا معه بطريقةٍ عادية، دون إثارة أي شبهة، حتى نرى نحن ماذا سنفعل معه، فهنا أيضًا يوجد لبث يحتاج إلى التروّي في أخذ القرار.

- الراعي، ويافث التاجر!

الأمر جللٌ، فامتعض قنديل واشتاط غضبه، ونطقها بتباطؤ ينجلي خلفه تفكير مليٌّ، اكتفى بكل ما قيل، وقرر أمر حارث بالانصراف وإكمال عمله كما كان، وتكثيف تحقيقاته أكثر حيال هذين الرجلين، لكن بخفيةٍ وهدوء، وتركه الآن على أن يأتي له مجددًا، حينما يكون هو قد أخذ قراره، وبحث جوانبه مع ذاته بتعقُّلٍ شديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بتأنٍ وخطى وئيدة أخذ قنديل زوجته وصعدا السُلم سويًا، متجهين إلى مضجعهما في الأعلى، بعد أن تركهما حارث وغادر السراي، وصلا قُرب غرفتهما وهما يسندان بعضهما البعض، فتقارُبهما هذا عكاز يحارب الزمن ويدحض مضرّاته، متعاهدين عليه منذ طويل الأمد، ولا يخلفانه أبدًا. دلفا إلى غرفة نومهما، جلس قنديل على سريره وراحت سوزان كعادتها تساعده في تبديل ملابسه، حتى يخلدان في سباتٍ يُريحهما قليلًا من هذا الزخم المُثار حولهما.

بعد أن انتهيا، قالت وهي تنظر له بنظراتٍ واهنة:

- لن أسألك عن أي شيءٍ مضى، ولا أريد منكَ أية تفسيرات، ولن ألومكَ إن كنت المتسبب في موت غيث، فقط ما أريد قوله لكَ، هو ألا تُضيع حق ابنك مهما تطلَّب الأمر.

تنهَّد قنديل متأففًا، مطَّ شفتيه ولم يرد. ازدادت ريبتها، فتابعت وهي توغر قلبه، وعيناها المرهقتان يسبحان في دموعهما:

- حتى لو وصل بكم الحال للانتقام من الاثنين!

وبرهةً حتى أكملت وهي تدور حول نفسها في الغرفة، تُخمّن بعد أن عادت إلى هذيانها وفلتت أعصابها مجددًا:

- ولمَ لا يكون الراعي هذا قد خطط، والتاجر نفَّذ، من الممكن ذلك!

ثم صاحت وهي منهارة في البكاء:

- دمهُ المسفوك يناديني كل ليلة بألا نهجره، ولدنا ليس صيدًا سهلًا، فلا تكن ضعيفًا!

نهض قنديل سريعًا، وروَّضها بأن أخذها بين ذراعيه لكي تهدأ، وراح يتحسس خصلات شعرها بعطفٍ ويربت على كتفها بحنانٍ بالغ، يُقدِّر حالتها ويمسح دموعها

بيديه الاثنتين، وهو في الوقت ذاته يحاول كبح دموعه من التحرُّر والزجّ بها خلف قضبان جسارته وحِدَّته، ويقول بنبرةٍ قد خارت قواها:

- اهدئي حبيبتي، سنأخذ ثأر ولدنا قريبًا، أعدُكِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على بُعد أميال من البلدة..

سياجٌ معدنيٌّ طويل أُقيم على مساحةٍ كبيرة وله أربع زوايا، يُحيطه الحُرَّاس بكثرةٍ متناثرين هنا وهناك، بغرض حماية المستعمرة وتأمينها. في منأى عن الأعين بُنيت، ولا يعرف مكانها غير مَن لهم شأنٌ بها فقط، يلي هذا السياج مسافة شاسعة تصل حتى باب المستعمرة الكبير، طوله ثمانية أمتار، وعرضه يسمح بمرور أكثر من عشرة أشخاص خلاله بجانب بعضهم البعض.

المستعمرة مكانٌ كبيرٌ موحش، مكانٌ يتجمَّع فيه كل قُبح العالم، تكاثرت عليه الأقاويل وتضاربت في كل مكان دون الجرأة على التطرُّق لفعل شيء تجاهه، أو حتى لمعرفة ماهيته، لأنه بقعة مجهولة على الأرض بالنسبة للعوام، فقط اسم يُشاع ويتردد بأنه مقر للدناءة! هو مبنى خشبيّ ضخم مكون من طابقين، الطابق السُفلي يحتل الظلام أغلب جنباته الآن، ضيّ القمر لا يُظهر منه سوى بعض الصناديق الموضوعة بجانب الباب الكبير، التي توضع فيها أطعمة وأقمشة وبعضها الذي يحتوي على سِياط وقرون المها الحادة، علاوة على وجود بعض أقفاص الخيزران الصغيرة التي تحتوي على ثمرات الفاكهة والأعشاب الجافة كذلك. وبالمنتصف على الجانب الأيمن مكتب خشبيّ هائل، ومن أمامه على الضفة الأخرى لوحة ضخمة مرسوم بداخلها رجل يجلس على كرسيه ويتكئ على عصاه في ترفُّعٍ وشموخ، وبمقابل الباب في نهاية المطاف يوجد مجلس الأستاذة التي تُعطي دروسًا شتّى لتعليم الفتيات الصغار، دروسًا معينة ولأمرٍ محدد! فهذه المستعمرة مِلكٌ لراعٍ يختطف الصبايا الحسناوات من القرى في صغرهن ويأتي بهن إلى هنا، يسلبهنّ وتنقطع أخبارهن عن ذويهن حتى يفقدوا الأمل في رجوعهن، أو حتى تصل به الجرأة لشرائهن بأبخث الأثمان من الفقراء، فيرعاهن ويعتني بهن ويعلمهن كل شيء يريد أن يؤديهن له، ويعمل على نسيانهن لإنسانيتهن لكي يستخدمهن في أفعالٍ ماجنة إن أراد، أو لإطلاقهن في بعض القرى لتأدية أغراضٍ مُخلَّة، أو تُسبب الضرر، أو تنقل له أخبارها وذلك مقابل المال طبعًا، أو استخدامهن باعتبارهن عُمْلة في تجاراته بعدما يكبرن وتُغسل عقولهن، يُسيّرهن بأصابعه كما يشاء كعلكةٍ أسفل أنيابه.

لا أحد يعلم مكان هذه المستعمرة وما يحدث داخلها سوى مَن يعمل بها فقط، أو المتواطئين من الرؤوس الكبيرة مع الراعي، لتسهيل تأديته لتجاراته وأعماله بسلاسةٍ ويُسر، هذا العبث في منأى عن العقول التي لم يتلفها الزمن، كأنها مخبأ سري ومقر مهم، والتجنيد فيها يتم في دقة شديدة وبصعوبةٍ بالغة، مهام المُجنَّدين تُقسَّم إلى ثلاث، حرَّاس في الخارج، ومراقبون ومُعدَّو الطعام في الداخل، ولكلٍ منهم كبير يقودهم، بالإضافة إلى الأستاذة، وجميع هؤلاء رضخوا للراعي بمحض

إرادتهم، فمال المستعمرة وفير، وأمرها خطير، فلذلك تَطبق أفواههم جميعًا بأي شيءٍ يبتغونه، حتى لا يفشوا أمرها، فقد خُيّل إليهم أن مكسب هذه الحياة أفضل من جوع الشرف!

وفي الداخل أيضًا ترى سُلمًا جانبيًا نهايته تؤدي إلى الطابق العلوي، هناك يُشدد على الجميع عدم الصعود إلا لمسئولي المراقبة فقط. فهذا الطابق مخصص للفتيات، فيه هنَّ يضطجعن على الأرض فوق فُرشٍ بالية، في صفين متوازيين، كل فتاة بمقابل نظيرتها، وأما على الجدران فتُعلَّق العديد من الشعلات للإنارة وتدفئة المكان، لتكون الرؤية جيدة والمناخ مناسبًا لهن ليلًا، حرصًا من ذلك الراعي على تصدير فتيات يافعات دون أية عيوب، جميع الفتيات يرتدين زيًا معينًا صُمم من لونٍ مخصصٍ، يختلف باختلاف الدُّفعات من الصبايا، والدُّفعة منهن يتم تجميعها في وقتٍ محددٍ، وتحضر بعدما تنزاح سابقتها، ثم يتم البدء على العمل بها بخطةٍ مدروسة، وبعد ذلك حينما ينتهون من إعدادها يتم الخلاص منها أيضًا في الوقت ذاته، حتى ولو بطرقٍ مختلفة، لكي تأتي مَن تليها، وتُعاد الكرَّة.

في هذا اليوم، وبعد انتهاء الجدول وما خُطط لتنفيذه، نهضت الفتيات وتركن أستاذتهن، وسرن منتظمات في صفٍ واحدٍ يرتدين جميعهن زيًا لونه أزرق قاتم، من أمامهن مراقب ومن خلفهن آخر، والاثنان مُمسكان بسياطٍ طويلة ويقودانهن إلى أعلى لكي ينمن. فجاءت بعد ذلك الأستاذة كبيرة العُمر ذات الظهر المقوَّس والخطوات الهزيلة، واتجهت إلى المكتب بالمنتصف، وقفت أمامه ثم أحنت رأسها بخضوع، وتمتمت:

- لقد انتهى دوري اليوم.

رمى لها الجالس على الكرسي صُرَّة بها بعض المال، ولم ينبس بحرفٍ، أخذتها في صمتٍ وتأهَّبت للمغادرة من هنا على الفور كعادة كل يوم. كان هذا هو الراعي، المُشيِّد والمالك، عمرهُ يتعدَّى الستين خريفًا، سمين ومتوسط القامة، عيناه واسعتان ولديه شارب كبير وبعض الشعيرات المتفرّقة في ذقنه، نبرته صلبة وقاسية، ملامحه ساخطة وشرسة، ودائمًا لا يسير إلا وهو يتكئ على عصى طويلة وصلبة ملفوفة بسيرٍ من ذيل ثعلب، ورأسها منقوش على هيئة رأس أسد، وأسفلها كعب حديدي متينٍ، كما يظهر في لوحته المعلَّقة أمامه بالضبط، التي ينقصها فقط ذلك القفص الحديديّ الموضوع بجنابه على اليسار، الذي يوضع به هذا النسر الجامح.

خرجت الأستاذة ورحلت، فدخل من بعدها مباشرةً متوغلًا من الباب الكبير رجل ضخم البنية، طويل القامة، ثم وقف بمقابلة المكتب ويديه الاثنتان خلف ظهره. يُدعى ضوي، هو كبير المراقبين هنا، الرأس والكلمة التي تلي الراعي مباشرةً، فهو ماكر، تكتنفه العصبية والغضب بسرعة، بيد أنه يمتاز بالحنكة والذكاء أيضًا إذا تمهَّل فلا يتأثر بهما كثيرًا، يَعرف جيدًا من أين تؤكل الكتف، يهرول وراء مصالحه ويأخذها حتى ولو كانت في فم الأسد، ويُعرف عنه بين الجميع قدرته على إتمام العديد من المهام في آنٍ واحد وبكفاءةٍ عالية. قال:

- جاء إليك مرسال من بلدة قنديل.

فضحك الراعي:

- العمدة قنديل! هه.

ثم تابع بصوته المتحشرج وهو يُشير بيده إلى الباب:

- حسنًا، أحضره لنرى.

خرج ضوي ملبِّيًا، ولم يلبث كثيرًا حتى عاد وهو يصطحب في يده رجلًا آخر، وقف وسلَّم إلى الراعي لفافة طويلة متحدثًا والعرق يركض على جبينه:

- يقول لكَ العمدة، تفكَّر في كلماته جيدًا.

فضحك الراعي ملء شدقيه متهكِّمًا وهو يأخذ منه اللفافة، ثم طرق بإصبعه وهو يشير إلى ضوي بطرف عينيه وأنفاسه تتأرجح بِخفَّة، ولم يتحدَّث، فهمَّ ضوي سريعًا بمباغتة هذا المرسال من الخلف، وإمساكه بإحكام وخنقه بقوةٍ حتى فَقَد وعيه، ولكن لازالت تدب فيه الروح، فأخذه إلى أخر المستَعمرة من الداخل وهو يزحف على الأرض، ووضعه مرميًا على كومة قش متّسخة، حتى يتمكَّنوا من قراءة رسالة العمدة على راحتهم، ويأخذون كل وقتهم للتفكير في الرد، والفعل.

عاد ضوي مرةً أخرى بعدما انتهى، فوجد الراعي يُستشاط غضبًا، ويحتوي الحنق قسمات وجهه كله، فسأله مستفسرًا عما وجده بين طيّات الرسالة، فرد عليه ساخطًا:

- ذلك الرجل يهددني! يتوَّعد إليّ قائلًا في رسالتهِ إنَّه إنْ كان لي دخل في موت ابنه، فسيقتلني بلا رحمة، ومن ثم يُحطم هذا المكان فوق رأسي أنا ومَن معي! هذا الوغد الذي تسبَّبَ في أضرارٍ كثيرة لي، يأتي الآن ويحذّرني من شرِّه!

- إنه هكذا يطأ أرضًا خطرة.

فنظر له الراعي بإمعانٍ وهو يزفر نفسًا طويلًا، ثم أكمل آمرًا:

- احتفظ بهذا الرجل هُنا، كما هو هكذا، وقدِّم له واجب الاستقبال عندما يفيق، لكي يأخذ الرد معه عندما يرحل وبعد أن أفكر جيدًا، وآمل ألا تكون قد أخطأت فيما فعلته أنت، أريد أن نظل بعيدًا.

- كما تريد، وإن كنتُ أخطأت، فأستحق العقاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني
(فَقْد.. وتبعاته)
ضيعة الضوم..

كثُر التجوال، وتعددت الهجرات، وعلى أرضٍ خصبة كان مثواهم ومستقرّهم.

منذ عشرات العقود قدموا بالقرب من البلدة، أقاموا واستقروا وعزموا المكوث إلى الأبد، يدعون بـ»الضوم» أو «الدومريين»، وهم قبيلة من قبائل الغجر الرحَّالة. في البدايةِ رفضت البلدة وجودهم، وامتنعوا عن التعاون معهم، وعدم الاختلاط بهم إطلاقًا، فنبذوهم وبعدوا عنهم. لكن الضوم تجاهلوا كل هذا، وسرعان ما أقاموا في الأرض التي جلسوا بالقرب منها زراعات عدة يبرعون فيها، وظلوا هكذا لسنواتٍ طوال حتى أن استقروا بعد حين على زراعة الغلال فقط، والكسب من ورائها، كالقمح والشعير والذرة، فحينئذٍ توطّدت الأمور قليلًا بينهم وبين أهل البلدة، وقامت شراكة في العمل فقط، غير ذلك لا. صاروا يصدّرونها إليهم ولغيرهم من آخرين، فشاعت عنهم هذه الزراعة، وكلما ذُكر الضوم ذكرت الغلال، وسريعًا ما سُميَّ مكانهم بالأرض المُغلّة، وأطلقوا عليها الضيعة. بالإضافة إلى ذلك فإن رجالهم اشتهروا أيضًا بصناعة أعمال الخزف، والحدائد، ونساءهن عملوا في صانعة المناخل من الجلد أو شعر الخيل، ولا سيّما أيضًا دور فرق الموسيقى والرقص الذين ذاع صيتهم في كل مكان، فتنوَّعت أعمالهم ووُجِد الاختلاط مع الآخرين، ولكن ظلّ رغم ذلك بحدود.

الضوم يتميزون بهيئتهم وملابسهم المختلفة، فالنساء يلبسن الملابس الفضفاضة والمزركشة بالعديد من الورود والأولوان الفاتحة، والكثيرات منهن يقمن بالرسم على وجوههن بالوشم الأخضر، ويضعن غطاء رأس شفّاف جدًا يربطنه بربطة عادة ما تكون باللون الأسود أو الأحمر، ويوجد أيضًا بعضهن اللائي يجدلن شعرهن ويضعن به شرائط من خيوطٍ ملونة. أما الرجال فبسطاء، فكانوا يرتدون الأقبية والسراويل والقمصان والقفاطين الواسعة، فضلًا عن القلانس والعمائم المميزة فقط.

من بعيدٍ تُرى الضيعة عبارة عن صخورٍ هرمية بيضاء اللون وكبيرة الحجم، يقسمها ممشى طويل إلى نصفين، لأن أهلها في بداية عهدهم شيَّدوا خيامًا بسيطة تأويهم، وتصبح هي بيوتهم، فظلت هكذا إلى هذا الحين. أقاموها من الأقمشة البيضاء، جميع الخيام بلا استثناء بيضاء، وذلك خوفًا منهم على أطفالهم، فحسب معتقدات الضوم فإن البوم حيوان خبيث، وقاتل، يقتل الرُضَّع والأطفال الصغار بعد إتيانه مباشرةً والتحليق فوق الخيمة لبضع دقائق، فاختاروا اللون الأبيض هذا كساءً لمأواهم، لكي يخاف منه البوم ويهرب بعيدًا عنهم، ولا يقرب الضيعة مطلقًا، للمحافظة على مواليدهم من ذلك الشر، وتتتابع أجيالهم باستمرارية.

هم عائلة وكتلة واحدة. عُرف عن الضيعة المناخ الهادئ، يعيشون حياة هنيئة، لا بُغض فيها ولا ضغينة، الود ولا شيء آخر، يسود الأمان والاستقرار التام فقط. نزح الليل وحلَّ بدلًا منه نور الصباح، فنهضوا جميعًا بنشاطهم المعتاد، وذهب كل منهم لكي يُنجز ما وراءه من أشغال. طلَّت الشمس بحرارتها المتوقدة، فبالتالي فتحت في إحدى الخيام الشمس الأخرى عينيها، مستيقظة الفتاة من نومها. شمس فتاة نجلاء رشيقة، شقراء، بشرتها بيضاء مشرقة على عكس فتيات الضيعة ذوات البشرة السمراء، مثلها مثل أبيها وأجدادها الدُخلاء على هذه الجماعة منذ زمن، حتى صارت الآن هي أخر نسلهم، ولم يعُد غيرها هكذا. شمس ذات وجنتين ورديتين خلابتين ماكثتين أسفل عينيها الخضراوين، شفتها شديدة الحُمرة دون أصباغ، إنها حسناء يفُوق جمالها جميع قريناتها فتسحر كل من ينظر إليها من الوهلة الأولى. حنونة، وتمتلك الكثير من الطيبة التي اعتيدت عليها، وعُرفت عنها، الآن هي تجلس وحدها مع جدتها سندس، عرَّافة الضيعة، وهي جدتها لأمها، فتعتني بها وتهتم لأمورها دومًا، بعدما فقدت والديها منذ سنوات قريبة.

بعد أن أفاقت من نومها، وأزاحت النُعاس بعيدًا عن عينيها، واجهتها الدهشة مباشرةً، نظرت حولها بإمعانٍ فلم تجد جدتها في الخيمة، رغم أنهن لا زلن في الصباح الباكر، فطفقت تبحث عنها في كل مكان في الخارج وتسأل هذا وذاك. ولكن لم تجدها، فعادت إلى مكانها بائسة الرجاء، تجرُّ وراءها ذيول الخيبة.

قامت شمس بإنهاء ما وراءها ورتَّبت الخيمة جيدًا، ويُخيَّل إليها أنها هكذا تشغل وقتها لعل سندس في مكانٍ ما وستحضر قريبًا، فلما انتهت ولم تأتِ ازداد شكَّها وريبتها، ولكنها ظلت كما هي، مكثت في الانتظار رغم القلق الذي بدأ يراودها، مرَّ عليها الوقت مجددًا بالساعات ولم يحدث جديد، فلم تقدر على الجلوس هكذا أكثر، نهضت من مكانها وخرجت من الخيمة، عزمت السير بين الخيام والذهاب إلى خيمة مكانها في أخر الضيعة، تأنت في المشي وهي تتلفَّت يمينها ويسارها عسى أن تلمح جدتها في أي مكان، وذلك حتى وصلت إلى مسعاها فوجدت صديقتها هناك في الخارج، ووقفت معها.

حنة، السمراء الجميلة، قصيرة القامة ذات الجسد الرشيق، عندما يبدأ خصرها في الحركة وعيناها في بث سحرهما يذوب عشقًا كل من أمامها من الرجال، فهي راقصة الضيعة الأجمل والأشهر والأهم.

- ما بكِ يا شمس؟

نطقتها حنة مندهشة من منظر صديقتها، التي أجابت عليها بنبرةٍ خافتة:

- نهضتُ من نومي ولم أجد سندس، وحتى الآن ليس لها أثر.

- لا تقلقي ستظهر قريبًا، فلن تختفي!

ثم أخذتها حنة من يديها ودلفا سويًا داخل الخيمة، كانت بداخلها أمها تُماضر، وأخوها الصغير ذو الثلاثة أعوام، فألقت شمس التحية ثم جلست القرفصاء على شلتة صغيرة من القطن موضوعة على الأرض. توارت حنة في جانب لكي ترتدي

زيّ الرقص الخاص بها، وتتكحَّل، فيبدو أنها تستعد لحفلٍ ما في مساء اليوم. ظلت شمس واجمة كما هي، والشرود بازغًا على مُحيَّاها، فسألتها تُماضر سؤال ابنتها بنفس التعجُّب، وردَّت عليها الرد ذاته، فعقَّبت تُماضر:

- يبدو أنها خرجت إلى عملٍ ما، أو ذهبت إلى البلدة ونسيت أن تُخبركِ، أنتِ تعلمين جيدًا ظروف جدتك.

- لا، إنها ذهبت هناك أول أمس واليوم الذي سبقه أيضًا وعادت متأخرة، وبالنسبة للأمس فكانت موجودة طيلة اليوم ولم تُخبرني أن وراءها شيئًا آخر، أو أنها ستخرج اليوم، خلدنا للنوم مبكرًا، ولما استيقظت فوجئت بعدم وجودها في أي مكان.

ثم تابعت شمس بنبرةٍ مهتزَّة:

- إنني خائفة عليها، قلبي غير مطمئن!

حينئذ كانت حنة قد انتهت مما وراءها، فاقتربت منهما وتدخَّلت في الحديث:

- لقد سمعتُ منذ قليل أخبارًا تفيد بأن البلدة غير مستقرة، وأنها مقلوبة رأسًا على عقب، وهذا كما يتردد بسبب مقتل ابن العمدة مساء أمس.

- إذًا يبدو أنها ذهبت للتعزية.

قالتها تُماضر، فنفت شمس وهي تُحرِّك رأسها في حيرة:

- لا، أستبعد هذا الرأي، جدتي لا تهتم لمثل هذه الأمور، فهي قد أخبرتني من قبل أنها تذهب إليهم فقط إن كان هناك عمل مهم ولا تستطيع رفضه، غير ذلك لن تخطو بقدميها خطوة واحدة في هذه البلدة أبدًا.

- اطمئني حبيبتي، لن يكون هنالك مكروه.

نطقتها تُماضر متمنية، فأومأت شمس رأسها بأملٍ ورجاء، ثم نهضت ووقفت بجوار صديقتها حنة ورافقتها. ودّعا أمها ثم خرجا سويًا من الخيمة، حنة متجهة إلى عملها لكي تتأهب جيدًا للحفل، وشمس تنوي العودة إلى خيمتها، وتظل هناك تنتظر سندس حتى حلول الليل، لترى ماذا سيُحدثه هذا الوقت من أمور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع انقضاء كل ثانية من الزمن يتفتت جزء صغير بداخل شمس، وهي ماثلة تقاوم الظنون السيئة وتنتظر جدتها، الشخص الوحيد الذي بجوارها، عائلتها، وعكّازها في هذه الحياة، عدم وجودها سيسبب لها الكثير من المشقّات والمتاعب، يوم واحد دون سندس كفيل بجعل هذه الفتاة الجميلة تبدو كما العجوز طاعنة العمر. شمس رشفة من إناء الجمال، ثمرة تعالت بحُسنها على ضروب الفاكهة، كيان وردي تمايل ونشذ عن دروب الافتتان. لكن كل هذا غير كفيل بإظهار قوتها وصمودها في عدم وجود جدتها، ومقاومة هذه الشكوك حيال مصيرها.

يمر الوقت فيزداد القلق، غربت الشمس وخيَّم الظلام، فغرب إشراق وجهها وحل العبوس بدلًا منه. شمس تعلم في قرارة نفسها أن هناك شيئًا مريبًا قد حدث، يستدعي كل هذا التوجُّس، فسندس طيلة الأعوام الماضية لم يبدر منها مثل هذا الفعل، لم تختفِ هكذا دون سابق إنذار، كانت مع كل عمل تقوم به تخبر حفيدتها لتطمئنها، تُقول لها ما ستفعله وأين، ليظل كل شيء على ما يُرام. لكن هذه المرة بدا الأمر فاجعة، يوم كامل انتهى ولم تأتِ، نهض الجميع من نومهم وأتمّوا أشغالهم، ثم جاء منتصف الليل وحلّوا في سُباتٍ مجددًا، في أناةٍ وهدوء، عدا هذه الخيمة، التي يحتويها الهلع، فمنذ الصباح والابنة في انتظار جدتها بنفاد صبر، تُمنّى النفس بعدم حدوث أي شر للتي يكمُن قربها بين جنبات قلبها. ففاق الخوف مقدار تحمُّلها، انفجر الهمّ بداخلها وشوَّش تفكيرها، فبالتالي انفجرت شمس ونهضت من مكانها بغير وعي وأنهت صمتها هذا، خرجت من الخيمة في هذا البرد القارس تهرول وتهذي وهي تصيح باسم جدتها باحثة عنها في جميع أرجاء الضيعة، تنادي وتكرر بشجنٍ وهي تبكي بحُرقةٍ لفظ «جدتي»، تركض على أرض الضيعة فيشعر التراب بأنين خطواتها، تمر بين نسمات الهواء الباردة فتربت برفقٍ وعطفٍ على وجهها المشتعل من شدة الارتياع، لم تكُف عن المناداة على سندس رغم خفوت صوتها وضعفه، فنهض الضوم من نومهم إثر نداءاتها العالية تلك، وخرجوا من خيامهم ليروا ما الذي يحدث، حتى وصل الأمر برمّته إلى حنة، فأسرعت هي الأخرى في السير وحضرت إلى صديقتها، مثلها مثل باقي صديقاتهما من صبايا الضيعة، اللاتي عملن سريعًا على تهدئتها بصعوبةٍ بالغة، فشمس شرعت في البكاء خوفًا وحزنًا على مصير جدتها التي تأكدت الآن أن مكروهًا ما أصابها، أخذها الفتيات بعد عناء وعدن بها مرة أخرى إلى خيمتها، ثم انصرفن جميعًا بعد قليل من الوقت، ولكن ظلت حنة الوحيدة بجوارها، فقد عزمت ألا تترك رفيقتها في هذه الحالة وحدها، وقررت قضاء هذه الليلة معها، والتي ستعاني فيها كثيرًا، لكي تُخفف عنها آلام الفَقْد وتواسيها في محنتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّ أكثر من ليلتين، والعرَّافة سندس لم تَعُد إلى خيمتها، وانقطع أثرها وأخبارها، فانتشر خبر اختفائها سريعًا في كل مكانٍ بالضيعة وخارجها، في حالةٍ من الذهول والتعجُّب من المستمعين الذين يحلّ عليهم الدهشة فور معرفتهم بذلك، جميع الضوم يتحدثون عنها ليلًا ونهارًا متبادلين التوقعات عما حدث معها، أمن الممكن أن تكون اختطفت؟ قُتلت؟ أو ربما فقدت ضالتها في مكانٍ بعيدٍ وتاهت؟ لا أحد يعلم، ولا يوجد حتى من يستطيع أن يتوصُّل إلى أمرها، الذي يُضمر عن الكل، وكأن سُحُب السماء نزلت إليها ليلًا وحملتها إلى أعلى. الأغلبية في الضيعة حزانى عليها، فهي ورغم طبيعة عملها المريب- الذي لا يحبذه أحد على الإطلاق- فإن جودها وحبها للجميع لا يختلف عليهما اثنان، يوجد الكثير ممن يحبونها ويتعلّقون بها، ممتنين لها على مساعداتها لهم في كثيرٍ من الأحايين، أما الآخرون وهم قِلّة قليلة فمرّ عليهم الحدث مرور الكرام، ولم يأبهوا إليه قط، وكأن شيئًا لم يتم قطعًا مع فرد من العائلة.

الفقد حتمي، لكن بُعد الشخص وهو لايزال على قيد الحياة هو البليَّة التي لا تَحمد، فتُطفأ الملامح وتتغيَّر، وتُصبح شاحبة لا تنطوي إلا على بؤسٍ مُهلك. تبدد إشراق شمس الدائم منذ آنذاك، وتملَّكها صمت جنائزي لا يتركها أبدًا، تتوق في أقرب لحظة إلى سماع همسات جدتها، ظهرها الطيّب على سطح الأرض، التي لا يوجد لها سواها. منذ صباح يوم اختفاء سندس وحال حفيدتها انطوى ولم يستقم البتّة، مقلتا عينيها مغرورقان بالدموع طوال الوقت، فشربت أرض الخيمة منهما حتى ارتوت، ممتنعة عن الأكل والشراب الذي يقدمه إليها صديقاتها بين الفينة والأخرى، فلما يصررن عليها به لا تأخذ منه إلا فُتاتًا تستند إليه لا أكثر، تمُر الدقيقة وراء الأخرى، فلا تهدر بصوتها الواهن إلا بقول:

- عودي يا جدة إلى فتاتكِ.

الأرض بما اتسعت قد ضاقت على شمس، اختفاء سندس بمثابة جرحٍ لن يندمل البتّة، عجزها وضعف حيلتها هما العامل الأكبر في وصولها إلى هذه الحالة الميؤوسة، ولا يزداد عبوسها وتوتُّرها إلا عندما تخالجها أفكار نزقة توحي لها بهلاك جدتها، وعدم رجوعها مرةً أخرى، حيلة العاجز دموعه، فتندب وتبكي، لقدرتها على فعل هذا فقط، هذا ما تقدر عليه، فتعمل رفيقاتها على تهدئتها قدر الإمكان، حتى تمُر الأيام القادمة بسلامٍ عليها، مطمئنات إيّاها بحدوث كل الخيرات إلى جدتها، ليسكُن ضعفها قليلًا وتستريح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خَلُص ضوء النهار رويدًا رويدًا بميل الشمس تدريجيًا ناحية الغرب، لكي يفرض الليل سطوته على العالم ويأتي مسيطرًا بظلامه الدامس، مُعلنًا خلاص اليوم.

انتهى حينئذ الريس داغر وولده مما وراءهما من عملٍ خصصاه لهذا اليوم، فضبطا ورتّبا كل شيء في مكانه، ثم أغلقا محلّ عملهما ورحلا. هو حدّاد يعمل في الصفيح والنحَّاس، وولده من تحت يده، يُعَد كبير رجال الضيعة، وفتوَّتها، فله الكلمة العُليا بها، والحُكم والفَصْل في الخصومات. يسير في الممشى الذي يتوسَّط الخيام متململًا بقامتهِ الطويلة وجسده الممتلئ ذي الكتفين العريضين، كملكٍ يتوغَّل بين رعيّته ويتفقَّد حالهم. عُرف داغر بصوته الغليظ ووجهه العبوس دائمًا، فنادرًا ما كان يلوح التبسُّم عليه، يبدو ساخطًا فقط طوال الوقت، يفرض سيطرته على سكان الضوم كلهم مقابل حمايتهم وحفظ حقوقهم من بعضهم البعض، فهم قد ابتاعوا أمانهم وسلامهم بالخضوع له، لأنه تقلَّد بقوَّته منصب كبير العائلة، وحامي الحما، فاستغل ذلك في أن يطول بطشه كل من يعوق رأيه بقسوةٍ ووحشية، وإعلاء مصلحته فوق أي شأنٍ دون الاكتراث لأي شيءٍ آخر، ثم بعد ذلك تأتي بالمنزلة التالية شئون الآخرين، فاشتهر بالشدة والجفاء والأنانية المُفرطة، فعملوا له ألف حساب، وهابوه، وخافوا منه. بجانبهِ مرافقًا طيفه ابنه الوحيد علي، الشاب فاقد الهوية، الذي يسير بأوامر والده فقط حتى يصبح الكبير من بعده، نسخة مكررة منه، فلا يفعل شيئًا في حياته إلا بقرارٍ وأمرٍ من الريس داغر، وبالتالي لكي تكون هذه النسخة كالأصل بالضبط، فهو يساعده في العمل دومًا ليشرب الحرفة جيدًا ويُكمل الدرب من خلفه،

فيخطو معه يدًا بيد أغلب الوقت ولا يفارقه. الآن هما يمشيان متجهين في طريقهما صوب مجلس السمر المعتاد، مع باقي كبار رجال الضيعة، كما العادة بينهم كأصدقاء مساء كل يوم، يتبادلون أطراف الحديث بعد انتهائهم جميعًا مما وراءهم من أشغال.

على شكلٍ دائريّ مركزه حطب يشتعل نارًا لتدفئة المكان والإنارة الجيدة بجانب ضوء القمر، يجلس الرجال الثلاثة. نديم، صبري، ونبيه. وبينهم تلك النَّارجيلة التي يفوح دُخَّانها من أفواههم، ثم هناك الريس داغر وولده علي اللذان وصلا حالًا، فانضمَّا إليهم وأكملا اللمَّة. جلس الاثنان المتأخران على المقاعد الخشبية الباقية بعد أن تبادلا السلام والتحيَّة مع الحضور، فأقبسهما نديم آنذاك قدحي شاي من ذاك الإبريق النحاسيّ الذي أعدَّهُ على هذه النيران المشتعلة، حيث أخذا في احتسائهما على مهلٍ شديد، نَتُج عن فرط إنهاكهما من العمل.

في البدء حلّ صمت جليّ، ولكنه لم يدُم كثيرًا، فقد قطعه صبري متسائلًا:

- ما دورنا فيما حدث إذًا يا رجال؟

رد عليه نبيه بسؤالٍ آخر:

- ماذا تقصد؟

فأجابه الريس داغر بصوتٍ أجش، بعد أن أخذ رشفة من قدح الشاي:

- اختفاء العرَّافة سندس.

فهزَّ صبري رأسه مُعربًا عما يرمي إليه بعد أن نفث دخان النَّارجيلة في وجوه مَن أمامه:

- بالضبط، نحن الكبار هنا، وهي عجوز وحيدة ليس لها في الدنيا إلا حفيدتها، لا يوجد معهما رجل يهتم لأمرهما، فعلينا نحن أن نتدخَّل إذًا، لقد مرَّت أيام كُثُر ولم تَعُد، ولم نسمع عنها أية أخبار!

ثم أضاف نديم بعد برهة من الوقت:

- ولا ننسى أنها فرد قديم في عائلة الضوم، بالإضافة أيضًا إلى أنها ساعدتنا كثيرًا من قبل!

- أجل، يجب بدورنا أن نُعيدها إلى الضيعة مجددًا.

حينئذ انبرى علي في الحديث مستفسرًا بعفوية:

- لمَ أحجارها لمْ تُساعدها؟

- كفى، لقد حدث الأمر، واختفت، فلن نُكثر من التساؤلات، وكما يقول صبري بالضبط، علينا أن نبحث عنها ونُعيدها مرة أخرى، وأنا أتفق معكم، فبعيدًا عن أننا نحتاج إليها أحيانًا، إلا أن هذا الأمر سيجعلني أرتقي وأتقدم أكثر في نظر أفراد

الضيعة، بدلًا من خوفهم وأحاديثهم هذه المتحاملة عليّ! هكذا نضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ.

قالها الريس داغر وهو يكشف عما بداخله بوضوحٍ ولم يُخبئ مقصده مطلقًا، فاتفق معه باقي الرجال في جزءٍ، وتجاهلوا الجزء الآخر، لأنهم رأوا أن هذا لصالحه فقط دون أن يأبه لهذه العجوز المفقودة، لكنهم التزموا صمتهم ولم يعارضوه رغم قربهم منه. فقط عزموا النيَّة معًا على تأدية هذا الاتفاق فعلًا، البحث عن العرَّافة سندس واقتفاء أثرها لكي يعيدوها مجددًا إلى مكانها بالضيعة، عليهم أن يعرفوا ما حدث بالضبط؟ وكيف تم؟ وإن اختطفت فمن الفاعل؟ وسيكونون بذلك في نظر الضوم أجمعين هم الرجال المخلّصون الذين يقومون بدورهم على أكمل وجه.

ثم بعد حينٍ من الوقت دنا علي من أذن والده حثيثًا، ثم همس مترددًا:

- ألا ترى أنها فرصة سانحة لأتزوج من شمس؟!

قهقه الريس داغر بصوتٍ عالٍ، ثم استطرد وهو يربت على كتف علي:

- أصبحت ذكيًّا لأبيك يا ولد، إذًا هذا هو المدخل إلى حفيدتها شمس، فلا تقلق إطلاقًا، ستكون هذه الفتاة لك.

فتأوَّه علي:

- يا لجمالها!.

ثم تابع مُنتشيًا، وقد تهللت أساريره فرحًا:

- إني بها لمنتصر!

تهكَّم الرجال وضحكوا بترحاب على حال الشاب، الذي صمت سريعًا من تلقاء نفسه، وقابلهم مرتبكًا بابتسامةٍ متصنعة بصعوبةٍ بالغة بعد رد فعلهم هذا. ووجدوا فيه بالفعل «ريس داغر» جديدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح، لمّا سنحت الفرصة في أقرب وقت، ترك الريس داغر مقاليد العمل لابنه علي، ورحل تاركًا إيَّاه ومتوجهًا صوب خيمة العرَّافة سندس، وفي قرارة نفسه اختلاس بضع عشرة دقيقة للحديث مع حفيدتها قليلًا في بعض الأمور. سار كبير الضيعة في طريقه مباشرة إلى هناك، يخطو بقدميه ومع كل خطوة رأسه تعمل على هندمة الأفكار بها، إعدادها وترتيبها لكي يُمليها على شمس بصراحةٍ مطلقة اُعتيدت عليه، فبذلك قُتل الزمن حتى عرَّج إلى خيمتها سريعًا، ولم يأخذ وقتًا كثيرًا في المشي.

وقف الريس داغر بجسده الضخم هناك، وهو يكاد يحجب ضوء الشمس ببنيته عن الخيمة. ظل في هذا الوضع للحظاتٍ معدودات، بعد ذلك أخذ نفسًا طويلًا ثم زفره بأريحيةٍ وهدوءٍ بالغ، قبل أن يُنادي على شمس أكثر من مرةٍ بصوتٍ عالٍ، خرجت الفتاة من الداخل على إثره لترى من المنادي في هذا الوقت المُبكّر.

رأى وجهًا شاحبًا، وخدّين تورَّما جراء انسكاب الدموع بغزارةٍ عليهما، وملامح حزينة قتلها الألم. تقدَّم الريس داغر رزينًا خطوتين إلى الأمام تجاهها، ثم سألها بنبرةٍ متأنية:

- كيف حالُكِ يا شمس؟

- بخير.

- أتمنى ذلك يا فتاة.

هزَّت رأسها موجهةً نظرها إلى الأرض، فتابع:

- إن احتجتِ شيئًا، فلا تتأخري في الطلب.

نظرت له، ثم أردفت:

- بالطبع، ولكن جميع الأمور جيدة حتى الآن، فلا تقلق.

- حسنًا، آمل ذلك.

ثم برهة من الصمت، وأكمل قائلًا وهو يضع يده اليُمنى على صدره:

- سأُعيد إليكِ جدتك في أقرب وقتٍ ممكن، إنها عزيزة علينا كثيرًا، وتُعد من كبار الضيعة عمرًا ومقامًا، نحن من الآن نعمل جاهدين على إيجادها، ولن نمل من البحث عنها حتى تطأ أرض الضيعة بخطواتها المباركة، ونطمئن عليها جميعًا.

أشرقت عينا شمس بالبُشرى، وابتهج وجهها سريعًا في لحظةٍ واحدة، لم تتمالك نفسها حيال بهجة بزوغ بذرة الأمل هذه، فقالت في وقتٍ متقطّع:

- كيف؟! أتعدُني؟

- أجل، أعدُكِ بذلك.

ارتسمت البسمة على وجهها ممتنة، وهي تقول بسعادةٍ مُطلقة ويداها الاثنتان متلامستان أمامها:

- أشكركَ كثيرًا يا ريس.

- هذا واجبي.

- لقد أحييت الكثير مني، وهذا ما كنتُ أطمحُ إليه.

انبسطت قسمات وجه الريس داغر متهللة في لحظةٍ نادرة لا تتكرر، وامتلأ صدره بثقةٍ رحبة، جعلته يتأهب لإخبارها مباشرةً ما أتى من أجله خصيصًا بصوتٍ صافٍ من القلق:

- جيدٌ، إذًا ما رأيُكِ لو أحيينا الجزء المتبقي؟

- ....!

- واكتملت سعادتُكِ؟

- ....!

- إنني أعرض عليكِ الزواج من علي ابني، زين رجال الضيعة.

- ....!

- لن نجعلُكِ تحتاجين لأي شيء، إنه سيحميكِ ويكون ظهركِ القويّ الصلب، وهو أيضًا من قال إنه سيجد جدتكِ بشتى الطرق، ليُعيدها ثانيةً لأجلك.

صمت شديد حلّ فجأةً من دون نذير على شمس، تغيَّر الوضع في وهلةٍ كعادته، مُبدّلًا جلده، البسمة والسعادة نزحا تلقائيًا بعد هذا الطلب المُباغت، ومكث بدلًا منهما الوجوم والدهشة، ثم بانت الصدمة جليَّةً على مُحيَّاها لتتصدَّر هي المشهد.

- ما قولكِ؟

قالها الريس داغر مستفسرًا، قبل أن يستأنف حديثه مرةً أخرى:

- معكِ وقتُكِ، سأترُككِ تفكرين كما تشائين.

هول المفاجأة جعل نظر شمس يدور في الأرض بغير هدى مكفهرَّةً، لا تقوى حتى على النظر إليه وهو يتحدَّث بهذه الكلمات. لكن بعدئذٍ قد تمالكت ذاتها جيدًا، وأخذت كل وقتها للاستيعاب، وعزمت أن تردعه وتضع حدًا فاصلًا لهذا الوضع. فحدَّجته بنظرةٍ قوية، وهي تُخرج أنفاسًا ملأت صدرها منذ قليل، وتقول بنبرة ثقة:

- لا، ليست هكذا تتم الأمور يا ريس داغر.

وهنيهة حتى قالت مودِّعة إيَّاه، وقد رفعت حاجبيها مُعرضة عنه:

- شكرًا على مجيئكَ الطيب.

ثم تركته مباشرةً وانسحبت من مشاركته للحديث بكل هدوء، أنهت الحوار، واتجهت على أطراف أصابعها حثيثةً نحو خيمتها، التي أزاحت مدخلها بيدها ودلفت إليها، لكي تتوارى عنه بالداخل، في جرأة تُعلن أنها ليست صيدًا سهلًا لأحد. في حين أن الريس داغر نفسه لم يستوعب ما قالته، ولا توقَّعه حتى، فظل مكانه يحاول قدر الإمكان أن يُضمر نيران الغضب التي اشتعلت داخله سريعًا، كي لا تظهر عليه، عقب رد فعل شمس الذي أخذه باعتباره إهانةً واضحة وصريحة له ولمكانته، لكن الضيق والسخط انتصرا، وكانا بازغين جدًا من كلتا عينيه، وفشل في إخفائهما عما حوله، فراحا يأكلان فيه بكل شراهةٍ، وهو مُستسلم لا يُحرك ساكنًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الظُلمة حينما تُوجد، تَغمُر كل شيء، ولا تترك النور يأخذ مساره ولو لسويعةٍ بسيطة، فسرعان ما تنقضَّ عليه كأنه فريسة وجدها بعد عناء، وتقضي عليه تمامًا، ولا تترك له أثرًا على الإطلاق. باتت رأس شمس كصخرٍ أصم، تعجز عن التفكير، ولا تنبس ببنت شفة، لم تتحمَّل كثيرًا وقد سأمت مما يُحيطُها من كل جانب، فأجبرها

الضغط الذي حل بها بعد لقاء الريس داغر، على الخروج من الخيمة بعد بضع ساعات، وقبل غروب الشمس، وهي لا تعلم إلى أين ستنتهي بها خطواتها.

وبينما الهواء يتسرب نسيمًا عليلاً، وحرارة أخر النهار خافتة، أخذت شمس تسير متأرجحة بخفة نسمات الريح في الممشى الطويل بين الخيام، بغير رشادٍ يتتالى مشيها، هائمةٌ لا تخضع لمستقر، عقلها تائهٌ، ومن حولها ضجَّة أهل الضيعة تملأ جميع الأركان، ولكنها لا تأبه لَهم، تُكمل سيرها فقط. فتُبصر على مرمى النظر أمامها أطفالًا صغارًا يلهون بكل أريحيةٍ وسعادة، ومن خلفهم بعض النساء الكبار اللاتي يجلسن بجانب بعضهن البعض يتحدثن ويضحكن براحة بال، ويمر من أمامهن وخلفهن من آن لآخر بعض الرجال، منهم من هو ذاهب إلى عمله، ومنهم من هو عائدًا منه، ولكنها أيضًا لا تهتم، ولا تُعطي بالًا لأحد. هذا فقط حتى انتبهت لذلك الفتى الصغير، الذي يترك جَمع أصدقائه ويعدو مبتعدًا عن جَلَبتهم، يهرول وهو يلتفت حوله بحذرٍ لكي يُراقب الوضع جيدًا، وهو متجه نحو خيمة صغيرة وبالية، بها خروق قليلةً ومتناثرة، فيرتمي ببراءةٍ على ثقبٍ صغيرٍ منها، ثم اعتدل وطفق ينظر من خلاله بغبطة مُتيَّم، وهو يلوّح بيده مسرورًا، يبدو أنه صادف عينيّ الفتاة التي يُحبها هذه الوهلة، المحبوبة التي تمكث ومعها قلبه بهذه الخيمة، محبوبته التي هي كسرة الخبز وهو الجائع المشتاق لها، محبوبته التي هي الترياق الشافي وهو المريض العاجز عنها، فخطواته ونظراته وفرحته تفضحه، ثم ارتياح فؤاده الذي أضاء بشدة قبل أن يعود مجددًا إلى أصدقائه وهو يضحك في سعادة تبلغ عنان السماء. حينئذ ابتسمت شمس مبتهجة لسعادته وبساطته، وجمال الموقف، فهدأت قليلًا هي الأخرى رغم الضجَّة المثارة داخل عقلها وحولها في كل مكانٍ بلا أمانٍ أو هدوءٍ قط.

لم تعِ طريقها، ففي هذا الحين وجدت خطواتها تقودها متجهة من تلقاء نفسها صوب خيمة صديقتها حنة، رفيقتها الأبدية، ونصفها الآخر في هذه الضيعة، تختلف المسارات وتتضارب، لكنها في النهاية تستقرّ هناك حتى ولو بغير قصد، فالوِد الغالب بينهما يُحتّم عليها ذلك. نادت عليها من الخارج بصوتها الهادئ، كانت حنة موجودة بمفردها آنذاك، فدخلت وجلستا سويًا على راحتهما، تجلس صاحبة الخيمة في سكينة وبيدها المكحلة تتزيَّن، فأخذت صديقتها من يديها سريعًا دون مقدمات، وراحت تضع لها الكُحل مرسومًا بدقة حول عينيها، وهي تبادلها الابتسامات، تخفيفًا من وطأة ما يحدث لها.

وبينما هما مُنغمستان فيما تفعلان، حكت شمس لحنة ما بدر صباح اليوم من الريس داغر، مجيئه إليها وطمأنته المبالغة لها، ثم العرض الذي ألقاه عليها في نهاية حديثه؛ فاندهشت حنة قليلًا، قبل أن تُطلق ضحكاتها سخريةً على هذا الموقف، وتهكُّمًا، ثم استهزاءها الذي طال علي ابنه وملأ الخيمة بغير شفقةٍ عليه.

بعدئذٍ أتت تُماضر والدة حنة وبرفقتها ابنها الصغير من الخارج، حيَّت شمس بترحاب، ثم جلست بجوارهما لكي تأخذ قسطًا من الراحة، فلما هدأت أنفاسها واستقرت، قصَّت لها حنة ما قالته شمس عن الريس داغر هي الأخرى، لكي تأخذان مشورتها، فتعجَّبت كما المعتاد، ثم نظرت إلى شمس حينًا وهي تقول:

- لا يصح ما حدث منه.

- أجل، هذا ما قلته أيضًا.

ردَّت عليها حنة موافقة، فأكملت موضحة:

- ولكن لا يصح أيضًا ما فعلتِه يا شمس، أخاف ألا تسلمي من شرّه.

ثم همست مجددًا بقلق:

- ما يحدث هذا لا يُبشِّر بالخير.

- لا يهمني شيء، فقط ما يشغلني هي سندس، ما حدث لها؟! ومتى ستعود؟!

قالتها شمس بأسى، فاقتربت منها حنة متوددة:

- لا تقلقي عليها، فلن يصيبها مكروه أبدًا، لأن الطيبين لا يمسهم الضرر.

فصاحت شمس باكيةً:

- أنا لا أعلم أين هي حتى! وليس بيدي شيء أفعله، مصيرها مجهولٌ!

- ستعود قريبًا يا صديقتي، صدقيني، أشعر بذلك طوال الوقت.

شرع حينئذ أخوها الصغير في البكاء فجأة، ودون سببٍ بيّن، فلم تكترث له أخته، وتابعت وهي تداعب صديقتها ضاحكة:

- اهدئي، نتمنى فقط ألا تسلك درب رجل الكهف، وتُصبح امرأة الكهف.

فابتسمت شمس رغمًا عنها والدموع تنساب من عينيها، أما تُماضر فضحكت بصوتٍ خفيض قليلًا هي أيضًا، قبل أن تُمسك صغيرها وتحاول تهدئته. وضعته على قدميها الاثنتين، وبدأت تتحسس وجهه بلطفٍ شديد، وهي تهزّه يمينًا ويسارًا بهدوءٍ مُطلق، ثم قالت له وهو بعد لم يكُف عن العويل:

- هيا، اصمت، لأحكي لكَ حكاية الديك الذي باض بيضة.

لمْ تعبأ شمس لما سمعته، أو ما يحدث حولها، وظلت كما هي منهمكة في حزنها. فعاجلتها حنة قائلة وهي تُمسكها من يدها وتسحبها لأعلى:

- فلنخرج نحن، حكايات أمي ليست لها حدود.

وافقت شمس، ثم نهضت معها لتخرجا سويًا من هذه الخيمة، وتُكملا بقيَّة كلامهما بالخارج في هدوء، وهما تتابعان مغيب الشمس في هذا التوقيت، وتتبادلان الحديث بأريحية. فنادت تُماضر عليهما قبل الخروج مباشرةً:

- لا تتماديان في التسكُّع، وعودا سريعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور يومين..

يوجد في إحدى خيام الضيعة، وعلى أرائك مصفوفة، الريس داغر جالسًا منذ مدة طويلة من الوقت، ليتحدَّث باستفاضةٍ في أمرٍ ما مع صاحبة هذه الخيمة العجوز، التي تُدعى سمارة، وهي داية الضيعة الخبيرةً الماهرة، والوحيدة، فلا يوجد غيرها هنا. فيقول لها بصوتٍ جهوري:

- هذه الخدمة الصغيرة منك، هي قرصة أذن لا أكثر.

- موافقة.

- بمفردك تقدرين على هذه المهمة، ولا يوجد غيرك كذلك لإنهائها.

أومأت رأسها بإيجاب، فتابع مُكملًا:

- وكما اتفقنا، ستأخذين هذا المبلغ من المال بعدما ننتهي مباشرةً.

رمقته سمارة برهةً وهي شاردة، ثم هدرت بصوتها تسأل متلعثمة:

- وإن عادت سندس قبل أن يتم مرادك؟ ما العمل؟!

- لن تعود، فلا أحد يعرف عنها شيئًا، كأن الأرض انشقَّت وابتلعتها.

- أنا فقـ...

فقاطعها موضحًا:

- هذا الوضع سيكون مؤقتًا للضغط عليها كي تتزوج من علي، هي الآن ضعيفة ولن تقاوم كثيرًا، تتعلَّق في قشَّة واحدة لتستطيع أن تنجو من الغرق، وبيدي أن أسحب منها هذه القشَّة إن رفضت، أو أن أُرسل إليها قارب النجاة حينما توافق.

ثم غَضُبت ملامح وجهه وهو يقول:

- ولكي تتعلَّم أيضًا الاحترام وهي تتحدَّث مع الأكبر منها.

- حسنًا يا ريس.

- ولعلمك، باستطاعتنا البحث عن سندس، وإيجادها، لكن لن يحدث هذا قبل أن تخضع حفيدتها تمامًا بين قبضة يدينا الأول، ويتم قَدرُها.

- أعلم ذلك جيدًا، إذًا متى تريدنا أن ننفِّذ؟

- غدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المصائب لا تأتي فُرادى، تنهال تباعًا على الإنسان بلا رحمةٍ أو هوادة، فتُقيم حوله هالة خانقة من الحُزن والشقاء، تُطبق الفم ليَعجز عن الحديث طوال الوقت، وتصُم الآذان لتردّ جميع ما يورد على مسامعها، ثم تُهلك الأبدان بكل ما أوتيت من قوة، لكي تقضي تمامًا على ما يتبقَّى من فُتات الآدمية.

اكتست السماء بلونِ الدم، معلنة بكل وضوح بداية الغروب. فنهضت شمس من مجلسها داخل خيمتها لكي تُلبي النداء الذي جاءها، فقد أتت إليها اليوم فتاة صغيرة مُرسلة من طرف داية الضيعة، وقالت لها إن الأخيرة تريدها في أمرٍ مهم لا يحتمل التأجيل، فلا تتخلَّف عن الذهاب إليها في أقرب وقتٍ ممكن، اندهشَت شمس حيال ذلك الأمر فلا توجد بينهما أية صلة، لكن صارت الدهشة شعورًا معتادًا بالنسبة لها في الوقت الراهن، فعزمت أن تتجه إليها بعدما تنتهي مما وراءها وتتفرّغ، لترى ما الأمر الذي يتوارى وراء هذه المقابلة.

وبالفعل حدث، ذهبت شمس إلى هناك مباشرةً ولم تتوان عن هذا النداء، وصلت ولما دلفت إلى خيمة الداية فوجئت بما لا يَسُر، في البدء وقفت مشدوهة على مدخل الخيمة حينما رأت الريس داغر جالسًا بالداخل ومن وراءه تنتصب إمعتان من فتيات الضيعة الناقصات، اللاتي يُشاع عنهن فعل أي شيء مقابل حفنة صغيرة من المال. الظاهر لها يبدو مريبًا، وكفيلًا بجلب القلق إليها، فسرت رعشة عالية الحرارة في أوصالها، وبلعت ريقها متوجّسة، لكنها سرعان ما تغلّبت على ظنونها ودنت من سمارة صاحبة الخيمة التي طلبتها خصيصًا، متأهِّبة للجلوس بجوارها لكي تكتشف ماهية هذه الجلسة التي يبدو أنها مُعدَّة لأجلها منذ وقتٍ مُبكّر من هذا اليوم.

خلال تحرُّكها، ذهبت الفتاتان في خِفَّة وأوصدتا مدخل الخيمة جيدًا من خلفهما بأمرٍ من فتوَّة الضيعة، ثم بغتةً ودون مقدمات قبضتا على شمس بعد أن انقضّتا عليها بوحشيةٍ قبل أن تجلس، وسريعًا ألقتاها على الأرض وَسَط ذهولٍ وخوفٍ منها، وحدقتا عينيها اللوزيتين تكادان أن تخرجا من مكانهما لتعذُّر استيعابها لما يحدث، فيُبصر الناظر من أعلى جسدًا رشيقًا طُرح أرضًا يصرخ أنوثةً، ورعبًا.

وضعت الفتاتان أقدامهما على أكتاف شمس بعد أن أزاحتا رداءها من عليها، ثم أمسكتا فخذيها ذويّ اللحم المشدود ورفعتاهما إلى أعلى بسرعةٍ مذهلة وقوة بالغة كي لا يفلتان من بين أيديهما، لتبرز من منتصفهما آنذاك أرض شديدة البياض ممزوجة بالحُمرة القانية. بلا شعورٍ تُحكمان القبض على شمس بأيديهما وأقدامهما جيدًا فلم تَعُد تقوى على الحركة تحتَّ قبضتهما، فجاء دور سمارة الآن، التي نهضت صامتة لكي ترى شئون عملها من دون أن تُلقي نظرها صوب عين أحد منهم، فاقتربت وهي تحمل بين يديها دبلة معدنية متوسطة الحجم من الفتاة التي هرب دمعها من بيت عينيها ليعدو صارخًا على وجنتيها اللتين تلوَّنتا باللون الأحمر، وفمها المكتوم الذي يُمنع عليه الصراخ والمناداة طلبًا للنجدة، فاكتفى ألمها بأن يصرخ داخلها قدر المستطاع، لتُملّس أرض الخيمة من أسفل رأسها على أنينها بعطفٍ وشفقة.

أدخلت الداية الدبلة بيدها بإحكامٍ في هذه الفتحة الوقورة، التي طالها للتوّ دنس الأغراب، وعكَّر قُدسيتها الأنجاسُ في افتراءٍ يجوبون به أرجاء الأرض الرحبة من دون رادعٍ لهم، في مشهدٍ مثيرٍ للاشمئزاز، لكنه بما يحمله من قُبحٍ ملأ الجانب المُظلم داخل هذا الرجل الجالس أمامهن سعادةً بالغة، وأشعرهُ بالقوة الواهية والخادعة.

الطين ازداد بلة، والرؤية انعدمت تمامًا جرَّاء العتمة التي سادت. فالدبلة التي وضعت في رحم شمس الآن ستعمل على منعها من الحمل فيما بعد، وهي طريقة معروفة في الضيعة لا يقوم بها إلا سمارة، تُتمها بجدارة وكفاءة عالية للأمهات اللاتي يردن أن يُبطلن نزيفهن للأطفال الذي لا يتوقَّف، أي أنه سيتعذَّر على شمس أن تحبل وتلد حينما تتزوج كأي امرأةٍ عادية، حتى تقوم هذه الداية بإنهاء ما فعلته، ونزع الدبلة من مكانها مرة أخرى.

نهض الريس داغر من جلسته، بعدما قُضي الأمر وتمت متابعته له بنهم وشراهة، ونظر إلى الشمس الخامدة، المُلقاة منهارة على الأرض، تدس وجهها الذي يقتله الخجل فيما أسفلها لتواريه عن الواقفين أعلاها، ثم قال مُحتدًا بانتصارٍ يزهو به صوته:

- اسمعي، أنتِ الآن نصف امرأة، والنصف الثاني يقبع معي، فكما تعلمين لن يستطيع إخراج هذه الدبلة غير التي وضعتها لكِ، وذلك لن يحدث إلا بأمرٍ مباشرٍ مني، وهذا الأمر لن يصدر إلا عندما توافقين على ما طلبته منكِ، فكوني عاقلةً والتزمي صمتك حتى لا يُفضح أمرك، وتشاوري مع ذاتك جيدًا لكي تصلي إلى القرار الصائب، وهو أن يتم قدرك مع علي ابني، وحينها يا شمس سترفعين على الرؤوس باعتزاز، ويتم لكِ جميع ما تريدينه، وسنبدأ بالفعل البحث عن جدتك كما تريدين، ونعيدها إليكِ. الأهم فقط هو أن كلام الريس داغر يُسمع، فالكبير لا يُرَد هكذا مرة أخرى، ويُظهر له الاحترام دومًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما خَفُضت حرارة المكان، وتلطَّفت بغروب الشمس، بدأ الرجال يحملون على أعناقهم شكائر الغلال المرصوصة بتتابعٍ على الأرض، وينقلونها إلى العربات الأربع الماثلة أمامهم، كل رجلٍ تلو الآخر، فلم يأخذوا من الوقت كثيرًا حتى انتهوا من إتمام ذلك. حينئذ ترك يافث المزارع الذي اشترى منه هذه البضائع، بعد أن سدد له مبلغ المال المحدد لها، واتجه إلى هؤلاء الرجال، وأعطاهم حقّ عملهم اليوم أيضًا، ثم أمرهم أن يأخذوا هذه العربات ويذهبوا بها إلى دُكانه الفارغ بالسوق، ويخزِّنون به الغلال، ليمتلئ ويباشر تجارته مجددًا، على أن يتبعهم هو إلى هناك بعد قليل، فطفق الرجال ينفِّذون كلامه مباشرةً، ورحلوا.

قرر يافث بعد ذلك أن يتجوَّل في الضيعة بضع دقائق لأول مرة، ويكتشفها، لطالما سمع عنها أقاويل مختلفة، وها قد حان الوقت للتأكد منها، لأنه كان دائمًا يأتي ويُحضر منها الغلال، ثم يرحل سريعًا دون أن يعرف عنها أية معلومات، علاوة على ذلك تأثره بعض الشيء بضيق العلاقات قليلًا بين أهلها وأهل البلدة. لكن هذه المرة أراد أن يتخطى هذه العقبة، وسار وحده بلا تخطيطٍ معينٍ لخطواته بين الخيام التي أعجبه منظرها وراق له كثيرًا منذ أن دبَّت أقدامه أول دبَّة هنا، يخطو وهو يرمق ببصره أهلها وما يفعلونه، فتارة يندهش إلى هيئة نسائها وأزيائهن المختلفة تمامًا عنهم، واللاتي برغم وجودهن بالقرب من البلدة منذ عقود فإنهن لم يتغيرن نهائيًا، وتارة يتعجَّب من الأطفال الذين يهرولون سويًا بين الخيام طوال الوقت،

وفي أي مكان دون خوفٍ من ذويهم كأن جميع هذه الخيام ملكهم، وتقارب ووِد أهل الضيعة من بعضهم البعض كالعائلة الواحدة، فلا تفرقة بينهم أبدًا، وهذا ما لا يحدث في البلدة إطلاقًا، فقط يوجد نقيضه. غدا يمشي مُحدِّثًا نفسه هكذا، والضوم من حوله ينظرون إليه كغريبٍ لا يهمهم أمره، طيفٌ يمر بينهم لا يكترثون له بتاتًا، هو في وادٍ وهم في وادٍ آخر.

استمر في السير كثيرًا، حتى قادته خُطاه إلى حيث لا يعلم، فعزم أن يتوقَّف لكي يعود ويرحل مجددًا إلى بلدته، راح ينظر حوله يمينًا ويسارًا، فأوحى له المنظر بأنه الآن أدرك نهاية الضيعة، لأنه على مرمى نظره لم تعُد توجد أية خيام، هي موجودة خلف ظهره فقط، لكن من أمامه يرى رأس مال الضوم، أراضٍ مزروعة ولا غير، تُحيطهم من كل جانب.

لم يلتف يافث لكي يرجع من حيث أتى، فأكمل مساره وقد أصبح مرهقًا مما مر عليه اليوم، بمحاذاة هذه الأراضي حتى يصل إلى مخرج الضيعة، ثم من خلاله يسلك طريقه نحو البلدة. وبينما هو يمضي إلى الخارج لفت نظره أمر غريب، وجد في هذا المكان الخالي من الناس فتاة تسير وحدها، تتحرَّك بصعوبةٍ قليلًا، وهي تبكي بحُرقة، فشغله أمرها، تباطأ في سيره وظل يراقبها في خفيةٍ، ليرى إلى أين ستذهب في هذا الطريق المسدود، فلمست عيناه وهما تحدِّقان بها حُسن ملامحها، واختلاف هيئتها البيِّن عن باقي النساء اللاتي رآهن هنا، الوجه الأبيض المُشع، وخصلات الشعر الذهبية التي تطايرت من أثر الهواء. فجأة، وهو يشاور ويحاور نفسه عن أمرها، وجد الفتاة تهوي من طولها، وتسقط أرضًا، وقد فقدت وعيها تمامًا، فلم يأخذ وقتًا كثيرًا حتى هرول إليها سريعًا لكي يلحق بها، ويُنجدها.

دنا منها يافث لاهثًا، ثم جلس بجوارها على الأرض، في البداية وجدها لازالت تلفظ أنفاسها، فأطمأن عليها، ثم همَّ برفع رأسها على قدمه، وبدأ يهز براحة يديه اليُمنى وجهها الذي استحال لونه إلى الأحمر عقب بكائها الشديد لكي تفيق، لكن باءت محاولاته هذه دون فائدة. تذكر حينذاك أن بين طيات ملابسه توجد قنينة العطر خاصته، فأخرجها سريعًا وشرع يمرر فوهتها مجيئًا وذهابًا بالقرب من أنفها الصغير، بتريُّثٍ ودون كلل، ولحظات معدودات حتى بدأت الفتاة في استعادة وعيها، وتفيق من غيابها رويدًا رويدًا، وتنهض من إغمائها.

فتحت الفتاة عينيها بصعوبة، فوجدت حالها ماكثة بين أيدي رجل غريب لا تعرفه، يصوِّب نظره نحوها مباشرةً في ترقُّب، فارتعدت منه. آنذاك لم يتأخَّر يافث حتى أردف مبتسمًا:

- مبارك أنك بخير.

بعد ذلك أمسك يديها المرتجفتين بإحكام، ثم نهض بها عن الأرض لكي يقفا، فانتصبا وهو ممسك بها جيدًا حتى تستردَّ كامل قوتها، وهي قد اعترتها حالة من الذهول الهائل حيال ما يحدث. سألها بعفوية:

- ما اسمُكِ؟

نطقت بصوتٍ خافت:

- شمس.

- لمَ تسيرين هكذا وحدك وأنتِ في هذه الحالة؟

لمْ تُجب، وتغيَّرت ملامح وجهها ضيقًا، فأكمل يافث:

- معذرةً، لكنني رأيتُكِ من بعيدٍ، وكنتِ تبكين، ثم سقطتِ على الأرض فجأة، لذلك سألت هذا السؤال، ويبدو أنني بالغت في التطفُّل، المهم فقط أنكِ بخير.

نظرت له شمس وعيناها تتلألآن بالدموع، ثم قالت وصوتها قد ازدادت وتيرة آلامه:

- شكرًا لكَ، غيرك كان ليأكلني بدلًا من أن يُنقذني.

- إنه واجبي.

وبرهةً ثم همس، شاردًا:

- عيناكِ حُلوتان، رغم حزنهما.

تاه يافث بغير وعي في نظراتها التي يبدو أنها تكتم سرًا يقهرها، ولمّا أفاق غازلها بهذا القول مُداعبًا إيَّاها، بعد أن أحس وفهم ما بداخلها، فابتسمت شمس خَجِلة ولم ترد عليه. فتابع هو:

- الخير موجود دائمًا، ومن الطبيعي مقابلته، ومقابلة نقيضه أيضًا.

- لم أصادف غير نقيضه في طريقي حتى الآن!

- هذا يدل أنكِ زهرة زاهية، نَمَت وسط غابة من القُبح، فلا تحزني.

تملَّكت يافث حالة لم يعِ بها، فأكثر حديثه من خجل شمس حتى الضيق والتذمُّر، بسبب الوضع الذي تقبع داخله الآن، فامتنعت عن الرد مجددًا، ونظرت نحو الأرض باستحياءٍ وقد ازدادت وجنتاها احمرارًا. فحينئذ عرض عليها:

- من الممكن أن أوصلك إلى خيمتكِ؟ أنتِ في وضع لا يسمح بفعل ذلك وحدُكِ.

فرفضت شمس متعللة:

- جئتُ إلى هنا بعيدًا عنها، وعنهم، وكنت أنوي السير بعيدًا، دون عودة.

- تبدين مُرهقة، وعليكِ العودة حقًا، فقد سار الوقت متأخرًا الآن.

ألحَّ عليها كثيرًا بالسير معها، وإعادتها إلى حيث تمكث، وأنه لن يتركها وحدها هكذا، ليقينه التام بأنها تحتاج إلى الراحة الكافية والهدوء، وشعوره بأن هناك ما حدث معها وجعلها تصل إلى هذه الحالة، لكنه لم يسأل عن شيءٍ وفضَّل إقناعها بالعودة فقط، حتى وافقت شمس بعد حينٍ من الوقت، وأذعنت إلى طلبه مستسلمة لمروءته. أخذها وسار مع إرشاداتها للطريق نحو خيمتها، صامتين لا يتحدثا،

يتعدّيان الطرقات والسكينة تحوم حولهما، حتى وصلا إلى هناك، فوقفت شمس أمامه، ثم شكرته مجددًا على ما فعله معها، فابتسم هو قائلًا:

- هذا من الواجب، وسررتُ كثيرًا برؤيتك.

بادلته بابتسامةٍ رُسمت على مُحيَّاها بصعوبةٍ بالغة، فاستطرد يافث مودعًا قبل أن يرحل، وقبل أن تدخل هي إلى خيمتها:

- أنا متأكد أننا سنتلاقى مجددًا يا شمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«يا شمس، يا صغيرتي، يا دائمة الإشراق.. أعلم أنكِ الحقيقة الوحيدة التي تُحلِّق في سرب الخيال، أنتِ الثرثرة الحانية التي تُلطِّف الصمت الجامد من حولي، أنتِ براحي، بوصلتي، والعالم سورٌ نجسٌ تبعدينه عني، فقُربك عمارٌ، وبُعدك هلاك. لذا آمل أن يَحِن رحيلي وأنا مُطمئنة عليكِ، ولا أنكسرُ يومًا بفُقدانك، فأود رؤيتكِ عروسًا جميلة برفقة قدرها، الشخص الذي يستحق امتلاك جوهرة كريمة مثلُكِ، إنني أنتظرُ هذا اليوم بفارغ الصبر، لأنكِ الأبهى، الفاتنة، الفتاة التي تختلفُ عن قريناتها بفارقٍ مُتَّسع، الجديرة بكل ما هو حلوٌ وتفوق لذّته، التي أينما توجد تشعُّ نورًا لغيرها. كوني متأكدة يا فتاتي أنني دائمًا سأساندُكِ فيما يؤتي عليكِ بالنفع، فجدتُكِ لم تعُد تتمنَّى شيئًا الآن سوى سعادتُكِ».

تتذكَّر شمس المُضطجعة على فراشها كالأجنَّة، كلمات سندس ووعودها السابقة إليها، التي تدور مع غيرها من الأحاديث بين دهاليز عقلها من الحين للآخر، تهجم عليها لتذكيرها بالضلع الأهم في جسدها، والذي فقدته؛ فترتعش، وترتعد، ولا تقوى على الإلمام بشتاتها. مرَّت عليها ثلاثة أيام وهي لا تبرح مكانها في الخيمة، ساكنة، تبكي، وتندب، وتُناجي جدتها طوال الوقت، فتأتي حنة من آن لآخر لكي تطمئن عليها، فلا تتحدَّث معها شمس وتظل صامتة، شاردة، ولمّا ترحل صديقتها، تعود إلى البكاء والندب من جديد.

تُحدِّث نفسها، تهذي، وتلوم العالم من حولها: «حقًا أنت نجس كما نعتتك سندس، لمَ يحدُث كل هذا معي! لمَ ذلك الجفاء تجمَّع ليُجابهني! ألأني ضعيفة؟ لا، لا.. لأني وحيدة، ولكن ما الفارق؟! الإثنان سيان، فالوحدة ضعفٌ! الوحدة أشدُّ فتكًا من الأسلحة. الجوهرة الكريمة بات شأنها حقيرًا يا جدتي، والفاتنة صارت بَشِعة. أنا من كُسرتُ برحيلك، ومن دونكِ طالتني أسوار العالم القبيحة التي كنتِ تحدثيني عنها دائمًا، فعلوا هكذا لأن شمس وحدها، والآن غَرُبت الشمس، لم تَعُد موجودة، الآن لم تَعُد صالحة للزواج، قدري لن يأتي، من سيقبل بفتاة لن تحبل! فأنا لن أوافق مهما حدث على إتمام الزيجة مع ابن داغر القذر، داغر الذي به رِجسٌ لا يوجد بأحد. عودي يا سندس، اِنقذي حفيدتكِ، فهي الآن بسجنٍ ضخم، يحوي الخيمة التي باتت بقُضبانٍ حُبستُ وراءها، فتعالي لكي تحرريني منها».

شمس أضحت مُنكسرة، وخطورة وضرر ما حدث يجثم بثقله على صدرها، ويركل روحها بكل قسوةٍ، وقوة، ويشمت فيها كما الأعداء، شمس أبقت ما حدث في طي

الكتمان، ولم تبُح به لأي أحدٍ على الإطلاق، فقط تَخرجه برفقة غضبها وبؤسها مع تنفيذها لأبسط حقوق عينيها، في البكاء، والعويل، الذي لا تكُف عنهما منذ اختفاء جدتها، فما على الضعيف الواهن غير ذلك؟

خارج خيمتها الصغيرة الآن يوجد احتفال يُعد له، الضيعة في حالة من الفرحة، لكن بين هذه الفرحة نقطة سوداء يشوبها الحُزن، لا يعبأ أحد بها. هذا اليوم هو يوم القَدَر لإحداهن، يوم تتمَّة زواج صديقة شمس، مريمة، الزواج هنا في الضيعة يُكنى بالقَدَر، الرجل له قَدَره، والمرأة لها قدرها، فلا يُقال عليهما سوى ذلك. قَدِمت حنة هي وبعض صديقاتها لكي يؤكدن على شمس بأن تحضر الحفل، وأن تكون بجانب صديقتها، وفي الوقت نفسه يُخرجنها من هذه الهالة القاتمة التي تُحيط بها، فأخبرتهن بعد إصرارهن وترددهن عليها على مدار اليوم، أنها ستأتي.

نهضت وحاولت إبعاد الغُمَّة عنها قدر الإمكان، وترحيل شرودها ولو لبضع ساعاتٍ حتى نهاية اليوم، ثم يرجع كما يشاء، الأهم فقط هو أن يتركها وشأنها الآن. استعدت جيدًا، وبرغم ما فعله الحُزن بها، فإن جمالها وحُسنها لم ينقصا كثيرًا، فاتجهت إلى مكان الحفل منتصرة على ترددها، كان في خيمة كبيرة، الخيمة التي ستُكمل صديقتها باقي حياتها فيها، برفقة قدرها. وصلت متأخرة بعض الوقت، بعد أن تقدَّم الزوج للزوجة بلفافة العنق(3) في بداية مراسم الحفل كالمعتاد، ولمّا دخلت وجدت البهجة طاغية على المكان، الحضور يدقون على الطبول، وينفخون في الزرناية، ويعزفون على النايات المشهورة عن الضوم التي هي على هيئة ثعابين قاتمة السواد وهم يغنون ويرقصون بسعادةٍ بالغة، جميعهم ملتفون كالدائرة، وفي المنتصف بينهم تتمركز الراقصة الأمهر، حنة، فتتمايل وتُنشد الأهازيج وهي تحمل الدُف بِخفَّةٍ ورشاقة، من أجل إحياء حفل صديقتها مريمة التي ترتدي فستانًا أبيض مع شريطٍ أحمر على الخصر، بجانب زوجها الذي يرتدي هو الآخر زيًّا خُصص لمثل هذا اليوم، عبارة عن رداءٍ مُرقَّطٍ كجلد النمر تمييزًا له عن الباقين.

جلست شمس واندمجت معهم بتصنُّعٍ في الغناء والدبكة، ولكن لم تقدر على متابعتهم هكذا كثيرًا، الشقاء داخلها أقوى، فطَغى وانتصر. قامت من مكانها، وخرجت من الخيمة وهي تحاول إخفاء ملامحها العابسة عن الموجودين، حتى لا يلحظوا شيئًا عليها، ثم جلست بالخارج في وضعية القرفصاء، وهي تضع راحة يديها الاثنتين على وجهها، في انكسارٍ لا يُجبر بسهولة.

بعدما انتهت حنة من الرقص، وقررت أن تستريح، اكتشفت أن شمس غير موجودة، فلمّا سألت عليها أجابت صديقاتهما بأنها رحلت فجأة، أو ربما خرجت وستعود بعد قليل، فلم تنتظر حنة وأسرعت بالخروج هي الأخرى من الخيمة، لكي ترى ماذا حدث، فوجدت آنذاك صديقتها جالسة بالخارج على الأرض، في وضعٍ غريب، دنت منها ثم جلست بجوارها وهي تربت على فخذها برفق، ولم تنبس.

برهة مرت من الصمت الذي ساد، فسرقت حنة بعض الثرثرة لتبدأ بها مُتحدِّثة، وهي تنظر إلى الأمام بشرود:

- أتعلمين يا شمس؟ دائمًا ما يُقال إن الطيبين لا يمسهم الضرر، وهكذا كنت أقوم بمواساتك على فقدان جدتك، لكن الحقيقة غير ذلك، الطيبون هم من يمسهم الضرر، ولا يقترب حتى من غيرهم، لأن الطيبين لا يستطيعون التمرُّد، ولا يستطيعون مواجهة العنف بعنفٍ أكبر وأقوى منه، لا توجد عندهم الشراسة اللازمة، ولا يستطيعون الحياة في الوحل، لأنهم غير قادرين على المقاومة، ولا الهرب من ثنايا المعركة. فاعذرينا يا صديقتي، أنتِ من الأنقياء، وهذه هي الحياة.

حينئذ أنزلت شمس يديها مستسلمة، وردَّت عليها بصوتٍ واهن:

- يا ليتني ما كنتُ هكذا، أنا لا شيء، لا أستطيع فعل أي شيء في حياتي.

ثم نظرت إلى الدُف الذي بيد حنة، وأردفت واجمة:

- مثلًا هذا يجلب متاعك، وفيه مُتعتك، وتشغلين به وقتك، أما أنا يا حنة فما الذي أشغل به وقتي؟! كانت هذه هي جُلّ مشكلاتي، حتى تفاقم الأمر هذه الآونة، أين سندس؟ لم تَعُد موجودة، لو كانت ماتت فكنتُ سأصبر على فراقها لأن هذا هو الطبيعي، جميعنا أموات، لكن أنا لا أعرف مصيرها، وفي الوقت نفسه لا أقدر على معرفته، وهذا ما يُتعبني أكثر بمرور الأيام. وأضيف إليكِ على هذا، أنا لن أتزوج، سأظل هكذا إلى الأبد، فمن سيرضى بـ...

قاطعتها حنة قائلة:

- لا يا شمس، فقدان سندس ليس مبررًا لذلك، القَدَر مُنفَّذٌ لا محالة.

- كلا، دعيني أُكمل، فأنا لا أتحدث عن سندس، ما أخفيه عنكِ يا صديقتي هو الطامة الكبرى التي صفعتني على وجهي، المعضلة التي حلها ليس بيدي، طبعًا أنتِ تعرفين أن الريس داغر يريدني أن أتزوج من علي ابنه، وأنا رفضت ذلك العرض، لكنك لا تعرفين ما هي تبعات هذا الرفض، لقد استدرجوني إلى خيمة الداية، وهناك سُدَّ طريقي نحو الزواج إلى أجلٍ مجهول، سمارة بكل تجاهلٍ للآدمية أذعنت لأوامر داغر، ووضعت بداخلي الدبلة التي تمنع النساء من الحمل، فإما أن أوافق على الزيجة فتُنزع، وإما أن أكمل هكذا ليتركوني بهذه الخردة لتفتت المتبقي من حياتي.

ذُهلت حنة بشدة، واتسعت عيناها غير مصدقة ما تسمعه، واعتراها الضيق، فصاحت حانقة بنبرةٍ متباطئة وهي تنظر نحو شمس:

- عليهم اللعنة، لا يفعل هكذا غير أولاد الحرام!

- تركتهم ورحلت إلى بعيد، مشيتُ هائمة في الضيعة وكنت أنوي الهرب منها، لم أكن أطيق روحي حينها، ووددتُ لو أتاني الموت لكي يُخلّصني. فقدتُ وعيي، وسقطت، بعد ذلك وجدت شخصًا غريبًا هو من يُنقذني، رجل ليس من الضيعة، ملامحه وديعة، تُهتُ بها لحظة أن نهضت، دون تفسير، ولكن حاولتُ ألا أُظهر هذا، غبتُ معه بغير وعي، وتحدثنا كثيرًا، إلى أن سار معي حتى خيمتنا ليتركني بها، ولا أرحل منها إطلاقًا، لا أعلم كيف غيَّر رأيي هكذا! ظننتُ أنه ملاك جاء ليُخلصني، بدلًا من الموت، فاستسلمتُ له، نعم هو هكذا، ومن بعد رحيله وأنا لم

أترك الخيمة، فعدتَ إلى نفس الحالة، ونفس الاختناق الذي لا يتركني أبدًا، ولم أخرج منها غير اليوم.

- ألمْ يُخبركِ باسمه؟

- لا، لم أسأله، كنتُ في وضعٍ لا يسمح بمثل هذه الأسئلة مني، كنت تلميذة تُجب على أسئلته فقط، وكلما أتذكَّره ينتابني شعورٌ بالرغبة في لقائه مجددًا، ولا أعلم لماذا؟!

- شمس، فقط اهدئي، وأتمنى أن تتماشي مع حياتك بشكلٍ طبيعيّ ولا تقفي، وأنا لا يوجد بوسعي الآن إلا أن أعدكِ بأنني لن أترُككِ ثانيةً، وسأكون بجانبكِ دائمًا، وسأعمل جاهدة على إقناع سمارة بنزع هذه الدبلة، لكي يأتيكِ قدرك دون أية مخاوف من فكرة الحمل، وسنجعلها تتجاهل داغر ولا تُنصت لتهديداته، ولن نتركه يستمر في إيذائكِ مرة أخرى.

- شكرًا لكِ يا حنة، أنتِ مَنّ الدُنيا عليّ، وأحبُكِ كثيرًا.

ثم صمتت حينًا، قبل أن تُكمل بنبرةٍ متهكَّمة:

- لكن لم يَعُد يوجد شيء يستحق المقاومة من أجله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غُربةٌ، وجودٌ ثقيلٌ، وحياة باهتة تشوبها اللا مبالاة. مرَّت هكذا الأيام بتباطؤٍ وثِقلٍ شديدٍ على شمس، متواصلة معها بتسلسُلٍ رتيب، وليس بيدها أي اختيار، ففُرض عليها المسار، واضطرت للمضي فيه قدمًا، حتى وهي تأبى وجوده. أصبحت روحًا مقيَّدة في مكانٍ خاطئ، روح مُنهكة عُلّقت في أملٍ صغيرٍ قد يُحييها، لكنه كجميع أمانيها تهشَّم ونُثر حطامه هباءً أسفل قدميها. كانت تُمنّي نفسها بقبول سمارة إصلاح ما فعلته والرضوخ إلى مطلبها، لكنها رفضت رغم حديث حنة وأمها معها مرارًا وتكرارًا. خاب صبر شمس، وتملّكها اليأس أكثر وأكثر، فبدأ يتسلَّل إليها إحساس أن مجيئها للحياة كان خاطئًا، محض صُدفة لم تترتَّب لها أية أمور تُهندم مسارها، ولا يوجد بوسعها شيء تفعله لذلك. هي تعلم جيدًا أن الريس داغر ينتظر ردّها الآن بفارغ الصبر، لكنه يتركها لتأتي إليه خاضعة ومغلوبة على أمرها، وموافقة على طلبه وحدها، لأنه لن يذهب إليها مجددًا. فصارت لا تغادر خيمتها قط، سوى حينما تقرر مجابهة الملل والوحدة بذهابها للجلوس برفقة حنة وتُماضر كي تؤنساها، أو عند تجدُّد الأمل ورحيلها للتوسُّل إلى الداية من دون كلل، فتحاول في خروجها هذا ألا تقابل ذاك الرجل المزعوم بكبيرهم، الذي انفتحت شرنقة شرّه بمواجهتها، وتبتعد جاهدة عن طريقه لكي تتجنبَّه وتُأمّن ذاتها، ثم تعود حثيثةً إلى أدراجها مرة أخرى وينتهي اليوم برتابته، التي ستتكرر ثانيةً وبحذافيرها في تاليه كما العادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيقن يافث بعد خواء رأسه وهدوئها من تشاجر الأفكار والآراء مع بعضهما البعض، أنَّ عليه الذهاب إليها دون تأخُّرٍ أكثر من ذلك، وأنْ يُنهي هذا التردُّد بما

يليق بتعقيد الموقف، ويهم لتلاقي بؤبؤ عينيه مع نظراتها مجددًا، وهو لا يعلم جيدًا ما هذا الشيء الخفيّ الذي يقوده إليها، ويُرغبهُ فيها. وصل التائه، وخطّت قدماه أرض الضيعة لأول مرة لغرضٍ آخر غير التجارة، فقد جاء الآن خصيصًا من أجل ملاقاة شمس، والتحدُّث معها، وإخماد هذا الانجذاب الثائر داخله باستقبالهِ لأشعة وجهها الساحر.

مشى رشيقًا على توجيهات ذاكرته بعُجالة طفلٍ يخطو نحو أمه القادمة من الخارج، ذاكرته التي إذا خانته في أي موقفٍ سابق، فلن تخونه الآن في تذكُّرها مكان خيمة شمس، فهو لا يزال يحفظ موقعها جيدًا كاِسمه. دنا من هناك سريعًا، دون أن يأبه لأحدٍ من الضوم في طريقه، ولكن بمواصلة اقترابه هذا تعطَّل السير دون نذير، وتوقَّف فجأة قبل أن يلامس ظلّه مدخل الخيمة، ولم يخط متحركًا إلى الأمام خطوةٍ واحدة. صعدت الحيرة من باطن الأرض لكي تُمسك قدميه بإحكام، ثم تُكمل صعودها مُتسلقة على كتفيه لتحلّ في باطن رأسه من جديد. تردَّد يافثً، وارتبك، ولم يعرف ماذا سيقول لها حينما يلقاها! وما المبرر الذي سيجعل من مجيئه إليها أمرًا طبيعيًّا! الآن هو على بُعد خطواتٍ قليلة منها، لكنه لا يعرف ماذا سيفعل، أيدنو أكثر؟ أم يعود ويرحل؟

مرَّت لحظات معدودات من هذا الوضع، ومن لجلجة التساؤلات بين طيّات عقله، فاستقرّ يافث أخيرًا على حلٍ مُرضٍ لهُ، وشفيع لأي أزمة ستقابله، ومنه سيكون المخرج الآمن. عاد إلى الوراء قليلًا، وعزم التجوُّل لبضع دقائق في الطريق أمام خيمة شمس، يسير مجيئًا وذهابًا دون ملل، على أمل أن تخرج هي من الخيمة، فتكون المصادفة البحتة بينهما، ويتم اللقاء. طفق يافث يُنفّذ خطته هذه، وعيناه لم تحيدا عن الخيمة طوال مسيرته، منتظرًا انبثاقها من الداخل الذي سيعمل على تهدئته قليلًا، لكن طال الوقت ولم يتغيَّر الأمر، ولم يرها! فأحس بسخافة موقفه، وحماقة ما يفعله للتوّ، ثم وجَّه اللوم إلى نفسه قائلًا: «ماذا دهاك؟ أجُننت يا رجل!».

قرر يافث سريعًا أن يُنهي ما يحدث، وأن يرحل للبلدة ولا يعود إلى هنا مجددًا، المغادرة وكأن شيئًا لمْ يَكُن. لكن بمجرد بدئه في الرحيل، قابل في طريقه ما قد يحول دون ذلك، أوقفه صوت أثلج أوصاله، تناهى إلى مسمعه من حيث لا يدري:

- يا هذا، انتظر.

هبّت نسمة هواء باردة حينما التفت يافث حوله بخفَّةٍ ليرى من المنادي، فإذا به يفاجأ بشمس من وراء ظهره، يبدو أنها كانت في الخارج وعائدة، وليست داخل الخيمة كمان كان يظن وظلّ ينتظر خروجها، فاندهش حينًا ولم يتحرَّك، لأنه في قرارة نفسه راح يتساءل: «ما العمل الآن؟!»، لكن شمس اختزلت له هذه المسافة، وبادرت هي بالقدوم تجاهه.

- مرحبًا بكَ أيها الغريب.

خرجت من فهما لكي تُحيي يافث، الذي ردّ عليها:

- مرحبًا، سعيد لرؤيتكِ مرة أخرى.

- شكرًا. من الجيد أنني رأيتَك الآن، يبدو أنك كنت ذاهبًا بعيدًا عن هنا.

تلعثم يافث:

- أجل، إنني تاجر غلال من البلدة، وآتي إلى الضيعة هنا لشراء البضائع.

هزَّت شمس رأسها بإيجاب، ثم سألت:

- إذًا هل تُخبرني الآن ما اسمُك؟

ثم أضافت مجددًا، قبل أن يُجيب:

- أنا ممتنة كثيرًا إليك منذ المرة الأخيرة، ونسيت أن أتعرَّف بكَ.

تهلل وجه يافث فرحًا، واعتلته السعادة كليًّا، وهو يقول:

- أُدعى يافث، لازلت أتذكرُكِ جيدًا، (وهو يُشير إلى المكان من حولهما) هل من الممكن أن نتحدَّث قليلًا في مكانٍ أهدأ من هذا، إن سَمَح وقتُكِ بالطبع.

كانت واقفة تُحملق به بعينين لامعتين إلى درجة أحسّ معها بأنه يقول شيئًا رائعًا صادف هواها بالفعل، فأومأت رأسها موافقة بترحابٍ بالغ، ثم أخذته وسارا معًا بعيدًا عن خيمتها، مُنساقين سويًا بوداعةٍ ووِد، شمس فَرِحة برؤيتهِ ثانيةً، ويافث في غاية السعادة من أجل تحقق مبتغاه، متناسيًا تمامًا ما فكّر فيه منذ قليل. اتجها برفقة بعضهما البعض بعدما اتفقا حيث تقابلا أول مرة، إلى ما خلف مُنتهى خيام الضيعة بعيدًا عن ضجيجها المُثار الآن، في مكانٍ هادئ يسمح خلوَّه بتبادل حديثهما بأريحيةٍ تامة.

- حالتُكِ أفضل من المرة السابقة.

بدأ بها يافث حديثهما عندما وصلا، وهما لا يزالان يسيران. فأجابت عليه:

- ليس بيدي شيء أفعله سوى أن أقبل وأرضى، فلن أظل أندب هكذا دون توقُّف، علاوة على أن البكاء نفسه ملّ مني.

- أتفق معكِ، لكن هذا إن كان الأمر على هواكِ.

- ماذا تقصد؟

- من المفترض عليكِ إن كنتِ ترفضين أي أمر يحدُث معكِ، أن تثوري عليه، لا أن تخضعي له بسهولة، وتقولين ما باليد حيلة.

ضحكت شمس حينئذ بصوتٍ عالٍ، فاستغرب يافث:

- ما الأمر؟! دعي عنكِ الصمت، وتحدَّثي كيفما شئتِ.

تريَّثت شمس جيدًا، قبل أن تُجيب:

- ما حدث يحمل الاثنين، خضوع وثورة.

- كيف؟

- معذرةَ، من دون الخوض في تفاصيل، أود إخبارك فقط أن الأمر معقدًا جدًا، وأنا أفعل ما بوسعي على قدر المستطاع.

تساءل يافث مستفسرًا:

- أنتِ وحدُكِ؟

- أجل.

- إذًا هنا تكمُن الصعوبة.

صمتت شمس وهلةً وهي تُفكّر، لم يُدهشها قوله، فنزعت غشاء الخجل عنها تلقائيًا، ثم وجدت نفسها تفيض بما داخلها بلا إرادةٍ مسبقة:

- جدتي فُقدت فجأة، اختفت، ولا أعرف عنها شيئًا حتى الآن، لا يوجد لي سواها، فلم أجد التصرُّف وتعسَّر الأمر، رغم أن جدتي لديها من القدرة ما يكفي لمَنع أي شخص من إلحاق الضرر بها! فحينها تكالبت عليّ الأيادي من كل حدبٍ وصوب، وطالتني الشرور من كل جانبٍ بلا رحمة، لدرجة أنني أردت الهرب من هنا، حضرتني رغبة طارئة بترك كلّ شيء، والخروج من الضيعة ذاهبة إلى أي مكانٍ بعيد، فالموت خارجها أهون بكثير من طعن نِصال أهلها لي.

ثم نظرت له، وهمست:

- حتى ظهرتَ أنت، كطوق نجاة رُمي في طريقي، وأعدتني إلى مكاني مرة أخرى، يومها أنت غيَّرت حالتي بكلماتكَ الرقيقة لي، وآنذاك شعرت شعورًا غريبًا، كان أول مرة يراودني، فتعجَّبت كثيرًا، حتى أن وصل الأمر باعتقادي أنك ملاك، أتى لكي يُنقذني.

قهقه يافث مبتسمًا، ثم قال مداعبًا إيّاها:

- وها قد عاد الملاك إليكِ مجددًا.

تبسَّمت شمس، وأشرق وجهها وهي تنظر إليه، فغازلها:

- ابتسامتُكِ حُلوة، كحلاوة عينيكِ.

طغى حياؤها حينئذٍ ليكتسي وجهها بحُمرة الخجل، ولم ترد عليه، فساد السكوت بينهما قليلًا، وعمَّ السكون سيرهما. حتى قرر يافث إنهاءه قائلًا:

- الحياة تقلّباتها قاسية في بعض الأحايين، تسلب من بين أيدينا أشياء نُحبها ولا نستطيع تحمُّل فراقها، فنحزن كثيرًا ونشعر بالظُلم، لكنها بذلك تُعطينا ما هو أفضل، لا أقول إنه عوض عما سُلب منّا، لكن القصد أنه يكون مناسبًا لما هو قادم، فقد يكون شخصًا، أو عملًا، أو حتى راحة بال، المهم أننا لا نعارض القدر وما يأمر به.

تدبَّرت شمس في كلماته جيدًا، قبل أن تُتمتم:

- أتمنى ذلك.

فعاجلها يافث:

- وعلينا أن نصبر بالطبع، ولا ننس هذا مُطلقًا.

- أوه، لقد نسيت تجارتك! ألن تذهب لتُحضر الغلال كما قُلت؟

بُهت يافث حينذاك، وبَرَقت عيناه وهما تنظران إليها في ذهول، قبل أن يبتسم ويعتدل في سيره مجددًا، ويقول:

- ألن أراكِ مرة أخرى؟

فضحكت شمس ملء فاهها، ولم تُجب عليه، وفهمت جيدًا ما يرمي إليه حديثه. بعد ذلك أكملا كلامهما أثناء السير هكذا لمدةٍ قليلة، ثم قررا أن يعودا ويُنهيا هذا اللقاء، الذي نَتُج عن فَقَد يافث لوداد، وشمس إلى سندس، ووجد كلٍ منهما أن الآخر هو أنسب مَن يَسد وجوده الفراغ الذي تُرك فيهما. أعاد يافث شمس إلى خيمتها على أمل تجدُّد الموعد بينهما، ثم رحل مُطمئنًا عليها تمامًا بعد أن تركها هناك، فجلست شمس في مكانها مُبتهجة، وسعيدة، يغمرها شعور بالارتياح بعد هذه الفترة المقفرة، لكن كعادة هذه الخيمة الخانقة، سرعان ما نُثر عليها بعض القلق، والحيرة، فتذكَّرت مليَّة ما حدث معها من الريس داغر، وما ستؤول إليه تبعاته، وبالإضافة إلى ذلك البُعد الموجود بين الضيعة والبلدة، ونبذ أي محاولة للتقرُّب بينهما أكثر، وقالت ببؤسٍ في قرارة نفسها إنهما سيشبهان القمر والنجمة، وهذه حكاية شعبية قديمة تُقال وتتناقل بين قبائل الضوم، يزعمون بها أنه في قديم الأزل وقع القمر في حب نجمة فاتنة بجانبه، وعشقها كثيرًا وأخلص إليها بصدق، لكن في النهاية حالت كل الأمور بينهما، ولم يستطع القُرب منها والمكوث دومًا بجوارها. فتمنَّت شمس مُتضرّعة ألا تكون هي هذه النجمة، إن كان يافث حقًا هو قمرُها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نفَّض الضوم متاعبهم جيدًا من على أجسادهم بعد أن أنهوا جميعًا أعمالهم، وتبدَّدت عندهم أحبال الصبر على تحمُّل المشقَّات اليومية. الضيعة من سكينتها يكاد يُسمع بها صرير الرياح المارة تتجوَّل بين الخيام، التي يضطجع بها أهلها الآن نيامًا، ويغطون في سُباتٍ عميق في هذه الأثناء، بمنتصف الليل.

في هذا التوقيت تسنح الفرصة وتُفتح أبوابها باتساعها إلى الملاعيب المذمومة، والعادات النجسة، التي تُمارسها فتيات الليل الساقطات من نساء الضيعة، اللاتي يفعلن هذه المحظورات برضاهن مقابل المال القذر، حتى لو كان بخسًا وحفنة قليلة. يذهبن إلى الفحول المتفقة معهن في خفاءٍ متسللين أسفل دُجى الليل، فجرم فعلتهن قضى على ثقتهن وحيائهن البتّة، يقضين وقتهن كما يشأن باجتهادٍ وتفانٍ مُخلصين إلى أصول المهنة، ولمّا تنتهي عروضهن الممتعة هذه، يرحلن متأخرًا في غياهب الظلام، وبالرغم من التعب الذي يحلّ بهن فيذهبن بسرعةٍ ورشاقةٍ إلى حيث مرتعهن، في خيامهن المعروفة أماكنها بالنسبة للجميع.

عدا اليوم، تغيَّر الوضع تمامًا، بعد أن خرج أهالي الضيعة بأسرها مهرولين بفزعٍ نحو الممشى الطويل الذي يتوسَّط خيامهم، سواء كانوا ممن اتجهوا في البدايةً

مُنقادين صوب الصراخ الذي عكر صفو نومهم، والناتج من إحدى هذه الفتيات التي قتلها الهلع، ومُلقاة على الأرض مرتكزة على مؤخرتها وعيناها متوجستان مما رأته، بالتحديد في مركز الضيعة، أو ممن أتوا في النهاية عقب تداول الأشخاص ما وجدته هذه الفتاة لغيرهم مرتاعين، فتملّكهم الخوف جميعًا.

فقد رأت هذه الساقطة أثناء رجوعها إلى خيمتها صندوقًا خشبيًا كبيرًا، مُغلقًا بإحكام وموضوع بمنتصف الممشى ليعترض طريق المار به، فانتبهت له وقررت أن ترى ما كُنهه وما السر الذي يُضمره، فوجوده الآن عجيبًا لها، لأنه لم يكُن في مكانه هذا أثناء ذهابها لقضاء هذه الليلة، فتحته بصعوبةٍ بالغة بعد فقدها لأغلب قواها الجسدية، فضربتها الريبة مباشرةً أثناء رؤيتها لما في الصندوق، فهو يحمل بين جنباته خنزيرًا كبيرًا شكله قبيح، مطعونًا بخنجرٍ في صدره، ومُلطّخ كليًّا بدمائه القاتمة، فما كان عليها إلا أن أطلقت صرخاتها فَزِعةً، وجرى ما جرى، لكن بالرغم من ذلك فلمْ تسلم من رمي جميع من حضروا إيّاها بنظرات ازدراء مهينة كالعادة.

الضوم لم يفهموا شيئًا مما حدث، حُبست أنفاسهم في صدورهم، ولم يستنتج أحد منهم سرّ ذلك الخنزير المقتول في هذا الصندوق، ولمَ وضع في هذا المكان هكذا، وفي ذاك التوقيت! وما الغرض منه؟ فبدأ يراودهم الخوف تلقائيًا من وجوده بينهم، إلى أن زعم البعض منهم أنَّه من الممكن أنْ يكون هذا بداية لعنة ستحلّ عليهم، وهذا الحيوان النتن جاء مُحملًا بها ليُلقيها بالضيعة. زادت التساؤلات بكثرةٍ ومن دون إجابةٍ أو تفسير، كل كلمة تخرج من فم أحدهم تُزيد درجات الخوف في قلوبهم تدريجيًا، كانوا مذهولين لحدٍ لا يُعقل، لدرجة أن أحدًا لم يستطع في هذا المكان من شرقه إلى غربه أن يهنأ بالنوم مجددًا في هذه الليلة ولو لبضع دقائق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

(هاجس الوهن)
المستعمرة..

عمَّ السكون أرجاء المكان، الذي يسير ضوي أسفله صامتًا الآن، يجرّ وراءه قافلة من الإحباط والخيبة، بعد أن عنَّفه الراعي بشدة، رغم رؤيته لأنه لم يفعل سوى عين الصواب في هذا الأمر، ولم يُخطئ، فعزم أن يناقشه فيه مجددًا بعد أن يُتم ما أُمر به أولًا. اتجه عاجلًا وهو يزفر أنفاسًا كانت تتصارع داخله، صوب حامل رسالة العمدة قنديل المُلقى على كومة القش المتسخة هاته فاقدًا لوعيه تمامًا، مثل قتيلٍ رُميَ في الصحراء، دنا منه أكثر، ثم بعزيمة المحاربين همَّ برفعه على كتفه الأيمن، ووضع يده اليُسرى على ظهره لكي لا يفلت من فوقه، ومشى به مُتجهًا إلى الحرَّاس في الخارج، لوضعه هناك حتى يقوموا بربطه جيدًا بحبالٍ قوية، وعندما يستعيد وعيه ويفيق يقومون بتلقينه درسًا قاسيًا في كيفية تحمُّل اللكمات التي تنهال من كل جانبٍ فجأة، لكي يذهب إلى عمدته ويوصل له رسالة خاصة لا تحتوي على أي كلمات، فقط تُفهم بتمرير النظرات على وجهه.

أما بالداخل فالراعي كما هو، لم يُحرك ساكنًا، ظل جالسًا على مكتبه الضخم مُتكئًا على عصاه الطويلة، يخرج من مسام وجهه شرر الغيظ والضيق بلا توقُّف، فمنذ قراءته لرسالة قنديل وقد تملَّكته حالة غضب تخنقه بشدة، قنديل الذي راح يسبّه ويهينه بأفظع الألفاظ والشتائم في قرارة نفسه، وهو يمقت اليوم الذي عرفه وتعامل معه فيه، ثم يقول حانقًا عليه: «ماذا تريد مني أكثر من ذلك؟»، «ستعرف حقًا مَن هو الراعي».

عاد ضوي مرةً أخرى من الخارج، بعلامات وجهه الباردة، ليمثل أمام مكتب الراعي وهو واضعًا قبضة يديه الاثنتين خلف ظهره، ويستطرد بنبرةٍ هادئة:

- أتممت ما أمرتني به.

- جيدٌ.

قالها الراعي متأففًا، ثم زفر أنفاسًا متهدّجة، قبل أن يُضيف:

- وقبل أي شيءٍ آخر حتى لا ننسى، أنت من سيذهب غدًا بالأكفأ أداءً حتى الآن في الدفعة الحالية إلى مظهر، مالك الحانة التي في واحة القبانية، لكن قبل ذلك دوّن مميزاتهن وصفاتهن من الرأس حتى أخمص القدمين في ورقة لكل واحدة منهن، ولمّا تذهب إليه عليك أن ترفع أسعارهن قدر المستطاع، ولا تتهاون معه، لأنني لا أحب هذا الرجل، الذي أشك في رجولته من الأساس.

فأومأ ضوي رأسه مستجيبًا، ومطيعًا. ثم ثوانٍ معدودات قبل أن يسأله الراعي مستفسرًا:

- إذا أخبرني، ألم تقل لك وداد أي تفاصيل دقيقة حيال موت ابن العمدة عندما قابلتها؟

- أجل، وهذا ما جئتُ لأحدّثك فيه، وأوضّح ما كنت أقصده.

فأشار له الراعي بيده، لكي يتكلَّم عَقِبها:

- قتل ابن قنديل ليس بالأمر الهيّن، ولن يمر مرور الكرام أبدًا، حتى لو اضطر لإقامة مذبحة، البلدة في حالة شد رهيبة، والتفتيش والاستجوابات على أشُدّها، لكنه ذكيّ، في الآن ذاته يحاول ألا يخسر أهل البلدة من صفّه قدر الإمكان، ويُنفّذ لهم بعض المطالب التي لن تُنقص منه شيئًا.

- هذه عادته دومًا.

- وكما أخبرتُك، وداد نفَّذت ما أمرتَ به أنت، وبَعُدت عن حماقات الحياة التي وقعت فيها، مثل الحُب والصداقات وغيرها من هذه الأمور التي لا تُجدي نفعًا، وغادرت البلدة نهائيًا ذاهبة إلى مكانٍ آخر، رغم كفاءتها في تأدية دورها هناك حتى الآن، وإتمامها لكل شيء نأمرها به على أكمل وجه، فعلى مدار العامين كانت الأخبار تأتي إلينا كأننا ماكثون في البلدة ليل نهار. لكنني انتهزت فرصة رحيلها هذا بإيقاع قنديل في طريقٍ مسدود، لن يمر منه إلا بعداوة بينه وبين الناس، طلبتُ منها أن توقع الفتى الذي يُحبها في الوحل، وإخبار الهيئة هناك أنه فاعل هذه الجريمة، لأنه صديق القتيل، وما كانت أخبرتني به من قبل سيساعد الأمور على السير وحدها نحو اقتلاع رقبته من على جسده، لا أعلم لمَ تقلق أنت من هذا الأمر؟ صحيح لمْ أرجع إليك قبله، وهنا يكمن خطأي، لكنني واثق جيدًا مما سيؤول إليه.

- إذًا لمَ أرسل رسالته هذه؟ أمر وداد لمْ يُكشف! فلمَ تذكّرنا؟

أجاب ضوي بكلماتٍ مُشتتة عن بعضها:

- يبدو مثلًا أن من حيرته وكثرة شكوكه يريد التأكُّد إن كان لنا دَخل في الأمر أم لا، خصوصًا أن العداوة بيننا لم يمحها الزمن.

- حسنًا، فلنرى!

وبرهةً حتى أضاف الراعي، وهو يحك ذقنه متذكِّرا:

- لقد أخبرتني من قبل أيضًا أن ابن قنديل أحبّها!

- بالضبط، ورفضته، لكنها لم تُخبرني في وقتها.

- غبيّة، هذا الأمر كان سيساعدنا كثيرًا هناك، لقد توجَّب عليها حينها أن تتقرَّب منه!

- أعتقد أنها خافت من أن يُكشف أمرها آنذاك، لكن هذا الأمر لم يؤثِّر كثيرًا على مخططنا، فقد سار كل شيء بدقة.

- حسنًا، الكلام الآن لن يُفيد، علينا أن نُفكّر في القادم وما هي الخطوة التالية.

هزّ ضوي رأسه مُتفقًا، فتابع الراعي آمرًا:

- انصرف أنت، وتمّم على الأوضاع هنا، واتركني وحدي الآن.

تركه ضوي سريعًا مُلبيًا التعليمات، وذهب لكي يُنفّذ دوره الأساسي في المستعمرة. فأراح الراعي ظهره على كرسيه مسترخيًا، واضعًا راحة يديه الاثنتين خلف رأسه، بعد أن أسند عصاه إلى المكتب أمامه، وطفق يُفكّر مليًّا فيما حدث، وكل ما قيل، آملًا أن يصل عقله إلى أنسب وأكثر خطوة، يضمن أنها ستفيدهم جيدًا فيما هو قادم، في ظل هدوء وسكينة المكان من حوله الآن، بعد أن انتهى اليوم.

الانتقام يُهدّئ من روع الثائر، يَشفي غليله، لكن هل هو أفضل حل؟ لا، ولن يكون، فالانتقام لم يتبعه أبدًا إلا الضرر والمصائب الأخرى، مهما حدث، ومهما طال الأمر، وأُحكم التخطيط. هذا ما رآه الراعي، وما تيقّن به كثيرًا في بادئ الأمر، فسقط بثقله في بئرٍ من الحيرة، يحمل بداخله ماءً يحوي آراء وقرارات تُناقض بعضها البعض، فلم يخضع لمستقرٍ في الرد على الرسالة، أو كيف يُبعد عنه هذه التُهمة ويتخلّص من شكوك قنديل! وما الذي سيفعله بعد ذلك؟

اعتدل في مكانه ساهمًا في اللا شيء، يُقلّب الأمور جميعها داخل أروقة عقله بتمعُّن، متأنيًا قبل اتخاذ القرار. وفجأة، في لحظةٍ خاطفة، سمع صوتًا كدويّ النحل، اندهش حياله قليلًا، وجعل ينظر حوله في كل مكانٍ مُترقبًا، قبل أن تتجمَّع الريبة كحبات الرمال وتُرفع إلى أعلى، فوق رأسه بالضبط، ثم تُنثر عليه كالمطر ليضحى مرتعدًا. فقد رأى بكلتا عينيه النسر الموضوع في القفص الذي على يساره ينظر إليه نظراتٍ ثاقبة، ويتكلّم بصوتٍ أجش راح ينخر في رأسه، ويقول دون أن يُحرك فكّيه:

- يا حقير، أستصمُت؟ أستتركه يتمادى في إهانتك؟ لقد قلّل من شأنك، وأضرّ بك، فلا تدع الضعف يُسيطر عليك هكذا، حتى لا يتطاول هو عليك أكثر، أظهر له قوتك، لا تُضمرها، وامحِ الخط الذي وصل بينكما اليوم بالدم، ثم اهزأ منه، ومن موت ابنه، حتى لا تكون هشًّا أمام نفسك على الأقل.

ثم مباشرةً بعد آخر كلمة نطقها النسر، اِستُلت روحه منه، ليهوى ساقطًا في مكانه مُعلَنة ميتته، في أمرٍ عجيبٍ ينعقد له اللسان عن الوصف، لا تصدقه العقول، ولا يستوعبه أحد على الإطلاق، مات هذا الطائر بعد أن مسّ الرعب جلد الراعي بسببه، وجَمُد الدم في عروقه، وارتعدت فرائصه بشدة، وحام الذهول محلقًا حوله، وهو لا يزال في مكانه لم يتحرَّك، عيناه تكادان أن تُقتلعا من مكانهما، من هول ما قد رأياه للتوّ. ظل مُحدقًا صوب مكان النسر دون أن ينطق بحرفٍ واحد، مُطبَقًا شدقه من الصدمة، حتى مرّت عليه اللحظات متباطئة، فأنار على إثرها حدسه، وبزغ أمامه مكنون ما جرى، ولمْ يجد تفسيرًا آخر لما حدث الآن، إلا أنَّ هذا ليس سوى رسالة تهديه إلى الطريق المتوجّب عليه أن يسلكه، ولا يُرهق نفسه أكثر من ذلك، فتمالك نفسه بعد حينٍ من الوقت، عازمًا ألا يُخبر أحدًا بما وَقَع، ولم يأخذ زمنًا إضافيًا للتفكير أكثر، لأن الإجابة قد جاءت له بدلًا من بحثه هو عنها، فما كان عليه إلا أن نادى بصوتٍ عالٍ، وبنبرةٍ شرسة، بعد أن احتدَّت ملامحه:

- ضوي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البلدة..

في وقت الظهيرة، وطقسه الحار نسبيًا، علا نواح سِرب الحمام المحلَّق بالقرب من سراي العمدة، الذي يحاول الآن بشتّى الطرق إقناع زوجته سوزان بالخروج من غرفتهما، والنزول معه إلى صحن السراي بالأسفل، لينتظرا هناك الغداء ويتناولانه سويًا، بدلًا من الفُتات الذي تقتات عليه في الآونة الأخيرة، وهي جالسة في غرفتها لا تغادرها ولا تتحرَّك منها، وحدها، فقط يرافقها كمدها، إذ إنها لا زالت غير قادرة على رؤية هذا المكان الواسع دون وجود ابنها فيه، ولم تتخط هذه العقبة حتى الآن، رغم محاولتها لذاك أكثر من مرة.

يترجّاها قنديل لتغيير وضعها هذا، خوفًا منه على تفاقم حالتها، وازدياد سوء نفسيتها إلى حدٍ لن يستطع السيطرة عليه فيما بعد. فاقترب منها أكثر، ودنا من رأسها الذي أمسكه براحة يده اليُسرى، ولاصق رأسه به، وهو يهمس قائلًا لها بنبرةٍ ليّنة:

- لا تضغطين عليّ أكثر يا حبيبتي، ساعديني، تعايشي مع الوضع الجديد بعاديةٍ مُفرطة، لأستمد أنا قوتي منكِ، وينقضي مُرادنا.

وما لبث برهةً إلا وانتُزعت دمعة واحدة من عين سوزان، وهرولت على خديّها تندب، قبل أن تنفجر باقي زميلاتها من مكانهن ليجعلن سيدة البلدة الأولى تجهش في البكاء بحُرقةٍ شديدة، فقد خارت قواها تمامًا، ولم تعُد تتحمَّل أكثر من ذلك، لكن إصرار قنديل ويدهُ الممدودة إليها في الحين ذاته، جعلاها تُمهل نفسها وهلةً للتفكير في كلماته جيدًا، وتحاول بمساعدته الثبات قدر الإمكان. فأردف مُضيفًا على حديثه وهو يمسح الدموع المنهمرة على وجهها:

- وثمة شيء واحد ضعيه حلقة في أُذنيكِ، مهما حدث فلن أتقاعس عن الثأر لولدنا، وسيأتي قريبًا.

آنذاك أذعنت سوزان إليه مُستسلمة، وأمسكت في يديه كما الطفلة الصغيرة وهي تُرافق أباها، لتنهض معه وتبدأ المضي أخيرًا في هذه الحياة التي فُرضت عليها، كما يطلب هو منها مرارًا وتكرارًا. خرجا من مضجعهما ونزلا مترافقين على السُلم، متجهين سويًا صوب المجلس الكبير، وهناك همّا بالقعود هادئين، هو عليه كرسيه الضخم، وهي بجواره.

طفق قنديل يُحدّثها عن كل جديدٍ جرى في البلدة، ويتشاور معها كعادتهما السائدة في السابق، فراح يُكلّمها في البداية عن تحرُّكات حارث وجُهده المبذول في جريمة قتل غيث، وكيف بدأت تحريَّاته ونظرياته تحصر التهمة بين اثنين فقط، وهذا يعني اقتراب معرفة الجاني منهما، وكيف التزمت الأهالي كلها بقرارته ولم يَجِد أحدٌ آخر عنها، ثم أخبرها عن تحسُّن الوضع المالي للبلدة وانتظام الأمور في بيت المال، وهذا ما لم يحدث منذ مدة طويلة جدًا، وقال لها أيضًا عن مخاوفه وقلقه من أهل الرأي، الذي بدأ يشعر بنفورهم منه، وتوتُّر العلاقة قليلًا بينهما، ولا يعلم السبب لذلك حتى الآن.

في هذا الحين، سمعا كليهما نداء أحد العساكر من الخارج، مُستأذنًا قبل أن يدخل عليهما، فتعطّل حديثهما تلقائيًا لكي يريا ماذا يريد بمجيئه هذا. دلف العسكري، ولمّا أصبح على مقربة منهما، وقف وانحنى احترامًا، ثم اعتدل مُنتصبًا في مكانه. فسأله قنديل مباشرةً:

- تكلَّم، ما عندك؟

- ثمّة أمر مهم، آمل ألا يُزعج حضرتك.

ترقَّب قنديل ولمْ يرُد عليه، وانتبهت سوزان هي الأخرى. فأكمل بصوتٍ مهتَّز:

- جاء لنا منذ قليل حارس من عند الراعي، وأخبرنا أن كبيرهُ قد قتل مرسالك يا حضرة العمدة، وبدمائه كتب لكَ هذه الرسالة!

حينذاك فارت الدماء في عروق قنديل، واستشاط غضبًا بعدما نزلت هذه الكلمات على أذنيه كالصاعقة، وسوزان من جانبه مذهولة، ترمقه على أحرّ من جمر وهو يأخذ من رَجُله الرسالة، ليعرفا ما هذا الذي كُتب بداخلها. أعطى العسكري الرسالة إلى عمدته ثم عاد بظهره عدة خطوات إلى الوراء، وهو يقول:

- قبضنا على هذا المرسال يا سيّدي، وألقيناه في الحبس ليذوق العذاب ألوانًا، وها نحن الآن ننتظر الأوامر لما بعد ذلك.

فسمح إليه قنديل بالرحيل الآن، عندما أشار له مُحتدمًا بيديه ولم ينبس بكلمةٍ فقيرة، فقد صار في هياجٍ بعد أن أقيمت بداخله ثورة جعلته ينفعل بهذا الشكل. تمتمت سوزان وَجِلة:

- افتحها؛ لنرى.

فهمَّ قنديل سريعًا بفك ربطة الرسالة، وفتحها بعُجالة، مشمئزًا من رائحتها المقززة، ليجد نَصّها مكتوبًا بالدماء كما قيل، وبطريقةٍ غير مُهندمَة، بشكلٍ فيه تقليل وتحقير شديد من شأنه، ثم راح يقرأ بصوتٍ يُسمع زوجته:

«خالص تعازيا لكَ يا أبا القتيل.. والزم حدودكَ حتى لا تكُن مثل ولدك ومرسالك».

بعد ذلك ألقى هذه الورقة العطنة على الأرض ساخطًا، وهو يصيح بصوتٍ غليظ:

- الملعون، العاهر ابن العاهرة!

فوقفت سوزان مشدوهة من مكانها آنذاك، وهي تنظر إليه ودموع تَحطُّم الكرامة والعلوّ تترقرق بحزنٍ من عينيها، وتقول لهُ:

- كما أخبرتُك من قبل، إن تأنيت ستصير مُضغة في أفواههم، قُلتُ لكَ انتقم منهم جميعًا، لا تصبر على أحدٍ منهم، واشف علّتنا هاته.

ثم تحرَّكت من أمامه لكي تصعد غرفتها، عائدة إلى أحزانها، وتتركه يحترق وحده في هذه النيران، التي ألقت عليها ما يُشعلها أكثر، قائلة:

- وها سيكون الدور عليك أنتَ!

فتقدّح حنق قنديل، واشتدّت حفيظته، وراحت نفسهَ تتآكل وتتفتت غاضبة، كحبوبٍ رُميت أسفل أحجار الرحى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا الوضع متأزمًا، فاصطفت العساكر بصرامة وحزم أمام مقر هيئة البلدة في صفوفٍ عديدة، متراصّة ومتوازية، وجميعهم على أُهبة الاستعداد حاملين أسلحتهم ومتاعهم، يطغى عليهم الترقُّب، ومنتظرين توجيه الأوامر لكي يبدأ تحرُّكهم. فقد حَضَر قنديل منذ سويعةٍ إلى هناك وهو في أوج ضيقه وغضبه، وعلى مُحيَّاه نار لا تنطفئ إلا بمُعجزةٍ سماوية، بعد أن اتخذ قراره بشكلٍ نهائيّ، ثم سريعًا صاح في حارث آمرًا أن يلغي كل ترتيباته، ومخططاته، ويهم في أقرب وقتٍ ممكن على الذهاب بمجموعة كبيرة من حاميته إلى المستعمرة، ويرأسهم هو بنفسه، لكي يهجموا عليها بالقوةِ والعنف وما لديهم من شراسة، مُنفّذين قانون العسف والطغيان، مهما كلفهم هذا الأمر من خسائرٍ جمّة، المهم فقط هو أن يقبضوا على الراعي بأي طريقةٍ ممكنة، ثم يُحضرونه ذليلًا مُهانًا ويزجون به في السجن، ويعدّون له حفلات تعذيبٍ خاصة لا تنتهي، حتى يكون قد استقر على نهايةٍ مميزة تليق بمثله من الرجال. وفي الآن ذاته، بجانب ذاك الهجوم، يكون بعض العساكر الآخرين قد اتجهوا لفعل نفس الشيء مع المُتهم الثاني، ويحضرونه هو الآخر، ليتساوى مصيرهما في هذه الليلة بلا تفرقة.

يقف قنديل الآن أمامهم مشتعلًا، مُغتاظًا، يستمع إلى حارث الذي بجانبه يمتطي صهوة حصانة، ويُلقي التعليمات بحِدة على رجاله، ليُعدَّهم، ويُلقّنهم خطة مُحكمة تُعينهم للقضاء على هذه المستعمرة وتدميرها، وانتشال راعيها منها كجرذٍ متعفّن، ثم العودة به كما أمروا. ثم بعد ذلك لمّا انتهت توجيهاته، أخذهم مباشرةً وساروا بإقدام في مسيرةٍ طويلة إلى خارج البلدة، تحملهم الحماسة على كفِّيها، تاركين عمدتَهم الذي ألقى عليهم هذا القرار فجأةً ودون نذير، يتابعهم ويرصد خطواتهم حتى اختفوا تمامًا عن مد نظره، في ذهولٍ لا يستطيع أن يفيق منه.

ثم لحظات معدودات لم تَطُل، وانقطع شروده هذا، عندما فوجئ باقتراب أحد العساكر منه لاهثًا، ومعالم الخوف تقتل قسماته، ويقول بأنفاسٍ مُتقطّعة:

- حذارٍ يا حضرة العمدة، الغربان أتت وأقامت حلقتها الخبيثة فوق التمثال!

فبلع قنديل ريقه مبهوتًا، وسَكَت مُتحيرًا عَقِب هذه الصدمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشمسُ نُطفةٌ من نارٍ قائظ، تحرق أشعتها الرؤوس وتستنفد الطاقات، فهمدت مسيرة العساكر وقلّ عزمهم قليلًا، فلم يلبث حارث الذي يقودهم حينًا إلا وألهب حماسهم من جديد، وأشعل صدورهم، لتنفيذ وتلبية أوامر العمدة الصارمة، ولا يعودون إليه خائبين، بأيادٍ خاوية، لأن لو حدثت هذه العثرة الجسيمة؛ فلن تبقَى لهم معيشةٌ أخرى على وجه الأرض. لم يَمُر أكثر من ساعتين على مضيّ طليعة البلدة نحو المستعمرة، المسيرة ليست هادئة تمامًا، فيُعكّر صفوها صهيل الفرس في المقدمة،

ودبّات الأقدام وصليل السيوف في المؤخرة، يريدون الوصول والانتهاء قبل ظلمة الليل البَهيم، يسيرون وحارث في الأمام هو وبعض كبار رجاله يمتطون أحصنتهم، ومن خلفهم سيل جارف من الرجال المُسلحين، الذين يتحرَّكون كقطعةٍ واحدة ترتجّ من أسفلها اليابسة، فيُحيطهم غبار كثيف هبّ إثر وَقع خطواتهم المتلاحقة، التي تُشكّل منجلًا كبيرًا متجهًا ليقطع رأس هذا المكان الخبيث.

بدأ الجَمع يقترب من هدفهم رويدًا رويدًا، فاشتدَّت دواخلهم، وازداد تأهُّبهم، لأنه لا يلوح لأبصارهم سواه، بسبب وجوده وحده في هذا الأرض الشاسعة، كمنبوذٍ طُرد من أرضٍ طاهرة حتى لا يُدنِّسها. مجيء هذا الحشد على حين غرَّة فاجأ الحرَّاس الذين يُحيطون أسوار المستعمرة العالية، فتجمَّعوا سريعًا للمواجهة، بشيءٍ من الفوضى وعدم الترتيب، غير البعض منهم الذي توارى خلف تلك الأسوار للمباغتة، أو جرَّاء الخوف الذي داهم غفلتهم.

دنا حارث ورجاله من البوابة والسور الشامخ بشقّ الأنفس، يهرولون ويصرخون ببسالةٍ وجرأةٍ شديدة، فاندلع العراك والنزال بينهم وبين هؤلاء الحرَّاس حينما توغّلوا هم الآخرون في المنافسة مؤدِيين دورهم بجسارة. تلاطمت الأجساد كالموج المُتصارع، واحتدم القتال بينهما، لكن الإعداد المُسبق والمُفاجأة رجَّحا كفَّة المُهاجمين، فعلا صوتهم صوت سيوفهم وهي مُتجهة نحو نصيبها لتفتك به، وتُحيله أشلاءً، ليمتلئ المكان تلقائيًا بصوتٍ واحدٍ له معنيان لا يُرافقهما ثالث، صوت الصراخ المتناوب بين انتشاء القاتل أو نحيب المقتول، فقد راح حارث وعساكره يضربون صدور الحرّاس وهم يستمتعون باللحن الناتج عن خروج السيف من غمده، دون توقُّف.

خاض العراك شوطًا كبيرًا، انتصر في ختامه شيعة البلدة رغم وقوع بضعة عشر رجلًا منهم أمواتًا، ألقيت أجسادهم وسيوفهم مُلطّخة بالدماء، مثلهم مثل جُثث الحرَّاس المطروحة بجانبهم. تخطى حارث بوابة المستعمرة رابحًا كعادته، ظافرًا بقوته، ومن ورائه يتبعه المُتبقي من رجاله، فرمق حينئذٍ عن كثب الراعي خارجًا من مبناه الكبير، لا توجد بيدهِ حيلة، غاضبًا مما حدث، ساخطًا على خيبة حُرَّاسه، لكن التوجُّس من تبعات المعركة بزغ جليًا عليه، ولم يُجِد في محاولة إخفائه، ولم يَجِد أيضًا ما يفعله. كان بجانبه اثنان من المراقبين فقط، يُحيطانه بجرأةٍ وتضحيةٍ كاملة لرب عملهما، لأن كبير مراقبيه أخذ الباقي منهم وذهب برفقة صفقة من الفتيات لكي يُنهيها بدلًا منه، فلمْ يَكُن هذا الهجوم في الحُسبان إطلاقًا.

وفي هذه الآونة، وقفت العساكر في مكانهم بأمرٍ من حارث، ولم يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام أكثر من ذلك، وفجأة، دون إشارة، التحف اثنان منهم رداء الشجاعة، والمجازفة، وانتصبا في مكانهما ثابتين، مُمسكين رماحهما بثباتٍ شديد، ثم صوَّبا نيشان سِهامهما نحو رقبتي المراقبين حول الراعي، وبغتة، في حركةٍ سريعة، أطلقا شُهُب رماحهما سريعًا ليُقضى نحب هذين الرجلين بلا رحمةٍ أو هوادة، ويظل هذا المخبول وحده عاجزًا عن الحركة، بعد أن شُل تفكيره، وقُتلت ثقته.

بعد ذلك مباشرةَ أشار حارث بيمينه، فتقدّم اثنان من كبار رجاله، وذهبا إلى الراعي الذي استسلم للواقع تمامًا، وأدرك صعوبة موقفه الآن، وتعسُّر أي محاولة هرب سيقوم بتنفيذها، فأمسكاه وألقيا القبض عليه، ثم أحضراه راكعًا كما طُلب، كأسيرٍ عاجزٍ يُجَر على الأرض في وضاعة، يساوره هذا العِناد، وذاك العبث، وصفعةً الندمٍ هاته التي ضربت خدّه خِلسة، وهو يُنصت بشفقةٍ على حاله إلى الرجلين اللذين يسحبانه وهما يتلفّظان قائلين له: «هيا نبدأ الحفل يا جِلف»، حتى وصلا به إلى باقي الرجال أمامهم، الذين يرمونهُ بنظرات ازدراءٍ ومهانة. بعد ذلك عادوا به إلى البلدة، منتصرين في خروجهم هذا، ثم طفقوا يتممون المتبقي من أوامر قنديل، بعدما انفردوا به في السجن، وصار لعبة ستتنقّل بين أيديهم بالتناوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- سأسعدُ بمجيئكِ ثانيةً.

قالها يافث مبتسمًا وهو يسلّم الطلب إلى هذه السيدة، الماثلة خارج دكانه وابنتها الصغيرة بجوارها، والتي تزور محلّ عمله للمرةِ الأولى، فأراد أن يكسب وِدّها لتُصبح من زبائنه وروّاده الدائمين.

شُعلة نشاط كان يافث اليوم، يتحرَّك بهمَّة، ومرونة، ويتحدَّث مع الزبائن بسعادةٍ مُفرطة، وأول مَن لاحظ عليه هذا هو صديقه بدر، حينما مرَّ عليه في السوق لكي يتبادلا أطراف الحديث، بعد أن كان قادمًا ليشتري الأقمشة من أجل أمه التي تعمل في حياكة المفروشات. فقال له مازحًا:

- حالكَ تغيّر من النقيض للنقيض بعد ذهابك إلى الضيعة أمس، دون سببٍ بيّن.

فضحك يافث عاليًا للمداعبة، لكن لم يَرُد على بدر بتوضيح يرجوه، وراح يتحدَّث معه في أشياءٍ أُخرى تمامًا، فعَلِم حينها صديقه أن هناك أمرًا يُضمره، ولا يود البوح به، فقرر ألا يضغط عليه أكثر بتكرار السؤال، وغادر منسحبًا في هدوءٍ تام، لينهمك يافث في مهام عمله مجددًا، ويُباشر تلبية حوائج المُرتادين عليه بُغية شراء الغلال منه، والابتسامات تتراقص على مُحيَّاه.

الحال كعادته لمْ يدُم كثيرًا، فيتفاجأ يافث وتُقتلع البسمة من وجهه بعد ساعاتٍ قليلة من انقضاء وقت الظهيرة، وقبل غروب الشمس، بترديد الناس في السوق أن مصيبة ما ستحدث قريبًا، وأن هناك شرًّا حلّ في البلدة، وهو الآن في طور انتقاء الفرد الذي سيصيبه، لأن الغربان عادت مرة أخرى إلى التحليق أعلى التمثال. فسريعًا قامت جَلَبة بين الناس في السوق، لم تهدأ إلا عندما بدأ كل شخصٍ منهم يَضُم يديه الاثنتين إلى صدره، داعيًا ومتضرِّعا ألا يكون هذا الأذى المتوقَّع من نصيبه هو، وأن يبعد عنه وعن جميع أحبائه.

لمح يافث من مكانه الخوف في عيونهم بوضوح، لكن بتوالي الصدمات خوفهم هذا لم يتعدّى مقدار خوفه وارتيابه هو، بعدما جاءت بعض العساكر إليه دون سابق إنذار، وأمروه بإغلاق دكانه في الحال ويأتي معهم خاضعًا، ولمْ يُبدوا له أية أسباب، فما كان عليه سوى أن شَخَص ببصره مُحتارًا، وهو لا يجد في جنبات عقله تفسيرًا

لما يجري الآن، ولمّا قرر أن يتساءل ويتحدّث معهم، ضربه أحدهم على رأسه بعنفٍ شديدٍ نزف على إثره دمًا غزيرًا، حتى كادت رأسه أن تتهشَّم، ليُنفّذ القرار في صمتٍ تام ولا يُصدر أي مقاومة، وينصاع إلى الأوامر حتى لا يمسه الضرر أكثر من ذلك، فأذعن إليهم مُطيعًا، وسار معهم في هدوءٍ وهو يتشاور مع نفسه بالعديد من التساؤلات، لتزداد قوة مفاجأته أكثر حينما وجدهم يقودونه إلى السجن، فارتعد، وحينئذ حاول منازعتهم والاعتراض على ما يتم، لكن زيادة عددهم فرضت قوتهم عليه، وألقوه هناك مُكبلًا في إحدى الزنازين، وهو يصيح ويصرخ بصوتٍ عالٍ طالبًا للنجدة، لكن تطايرت نداءاته كلها كهباءٍ منثورٍ دون جدوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استأذن حارث للدخول إلى الشرفة الكبيرة في الطابق العلوي من السراي، المُطلّة على مساحةٍ خضراء واسعة من أسفلها، لكي يُقابل قنديل الماثل في انتظاره بها منذ مدةٍ ليست بالقليلة. كان شاردًا يُناجي النجوم البازغة في دُجى الليل، يملأ عقله ضجيج لا يسعه مداد البحار بأكملها، فهمَّ بتحيَّته لكي ينتبه إليه، ثم اعتذر له عن التأخير مُعللًا:

- معذرةً يا عمدة، كنتُ أتحدَّث معهما لأعرف ما يُفكران به، وما دوافعهما، لكي أصل إلى النقطة النهائية التي سنبدأ دربًا جديدًا من بعدها، بالإضافة إلى وضعهما في زنزانتين متجاورتين، مع مراقبة خفيَّة طوال الوقت، لأرى إن كانا سيتحدثان سويًا أم لا.

أخذه قنديل واتجها إلى مقاعد خشبية، تصنع بترتيبها دائرةٍ كبيرة، ثم جلسا قبل أن يَرُد:

- الاستجواب لن يُفيد الآن، كل شيء بدا واضحًا ومُكتملًا كقرص القمر هذا.

- دعنا نأخذ وقتنا أكثر، كليهما أنكرا معرفتهما لبعض! يجب ألا يُظلم أحد، فلم نتأكد حتى الآن من مشاركة هذا التاجر مع الراعي، من الممكن أن يكون الفاعل غيره.

ضحك قنديل متهكِّما:

- لا، إنكارهما هذا هو الطبيعي في مثل تلك المواقف.

- إذًا إلام سيؤول مصيرهما؟

فتنهَّد قنديل ملء صدره، قبل أن يُجيب بتعالٍ شديد:

- كما أخبرتك من قبل، يوم قصاص تسيل فيه الدماء أنهارًا، لن يُمحى من تاريخ البلدةِ أبدًا، ليتعظّ الجميع.

- الاثنان معًا؟!

- أجل.

- وماذا سنقول لغريب القاضي؟

رد قنديل على سؤاله بسؤال:

- ومن قال إن أمرهما في يد غريب؟ لقد سمح لي أهل الرأي بفعل ما أشاؤه.

صمت حارث ولم يتكلَّم، علامةً منه على عدم رضاه بما يُقال، فتابع العمدة مستكملًا باقي شرحه:

- يا صديقي أنا أعرف كفاءتكَ جيدًا، وأثقُ بكَ، وما فعتله اليوم هو خير دليلًا على ذلك، فما عليكَ الآن سوى أن تُجهّز المقصلة في الباحة الكبرى بأقصى جنوب البلدة. تُعدّ المكان وتهيئه جيدًا، لكي ننتهي من هذين الحقيرين في أقرب وقتٍ ممكن. قاتلا ابني، ومُسببا ألمي، ومن جعلاني أتجرَّع من كأس الحُرقة والحرمان ليالٍ. فهذا الراعي العاهر أراد الانتقام مني فيه، ولأنه هو ورجاله لا يستطيعون دخول البلدة، ولن تُتاح لهم الفرصة أبدًا، فاتفقوا مع هذا التاجر المتواطئ حينما علموا بخلافه مع غيث، هذا هو التفسير الوحيد، ولا يوجد غيره، فلمَ نتمادى أكثر في فرض التكهُّنات والأمر بين أيدينا! إن حدس سوزان زوجتي لم يُخطئ، فهي أول من قالت لي ذلك، توقَّعت وكان توقُّعها في محله، إن قلبها يشعر بدم ابنها أفضل منا، فكان يجب أن نستمع إليها منذ البداية.

ثم برهة، وأضاف بنبرةٍ متباطئة:

- اِسد لي معروفًا، ونفّذ دون نقاش.

فهزَّ حارث آنذاك رأسه مستجيبًا لكلماته، دون اعتراض، ثم قال مُعقِّبا:

- أمرُك، سيتم كل شيء كما تريد، ولكن قبل أن نبدأ يجب أن نأخذ الإذن من أهل الرأي كالمعتاد، أعلم أنهم أعطوكَ جميع الصلاحيات في هذا الشأن، لكن كما تعلم فإن العلاقة بينكما توتَّرت قليلًا في الآونة الأخيرة، ويجب أن نتواصل معهم لإرضائهم وتلبية ما يريدونهم، حتى لا يقوموا بما نخشاه نحن.

ثم أضاف مجددًا، قبل أن يُعلّق قنديل:

- وكون أننا لم نخبرهم بأمر الراعي من قبل، فلن نتطرق لهذا الأمر أبدًا حتى لا يغضبوا منا أكثر، ولن نخبرهم بأمر هذه المستعمرة، فقط سنقول إنه تاجر من خارج البلدة، وبما أنهم متساهلون معكَ في ذاك الغرض، نأمل ألا يلتفتوا لشيء الآن، ويتركونا.

وافقه قنديل، وامتثل لرأيه قائلًا:

- مضبوط، كما ترى، لكن علينا أن ننتظر يومين أو أكثر قبل الجلوس معهم، لكي يسير كل شيء سنخبرهم إيَّاه بشكلٍ رسميّ، آخذًا وقته، وحتى لا يقولوا إننا تسرَّعنا وينهالوا علينا بأحكامٍ وتساؤلات لن ننتهي منها.

- عين العقل.

- ولكن هذا أيضًا لا يتعارض مع بدئكَ فيما قلته لكَ، ابدأ من الغد، ولا تُأجل.

- حسنًا، تنقضي هذه الليلة، والصباح الباكر سيكون بداية العمل.

قالها حارث ثم سعل بعنف، فأخذ نفسًا إلى صدره، قبل أن يُضيف مجددًا:

- وأيضًا أُحيطُكَ علمًا بأنني قد أخبرت العساكر المسئولين عن القَتَلَة في السجن بما أمرت به، سيُمنع عنهما الطعام حتى يوم القصاص، وسلبهما كل المُتطلبات الآدمية، كما سلبا حياة شخص بريء لم يفعل لهما شيئًا!

- جيدٌ ذلك.

ثم ساد الصمت بينهما برهةً، وطغى السكوت تمامًا حينما شرع حارث يتفرَّس معالم وجه قنديل، كأنه يريد قول أمر آخر، لكنه لا يعرف كيف يُخرجه من فاهه. فعاجله قنديل مستفسرًا:

- تحدَّث، قُل ما عندك بأريحية، إني أعرفُكَ.

فتلعثم حارث:

- إنني أخشى أن تكون مُصيبة الغربان القادمة تخصنا أيضًا، حينها ستضعف قوتنا!

- لا تقلق، أتوقّع أنها ستكون من أجل يوم القصاص، فبالطبع هذا التاجر له أحبّاء ومعارف كُثُر في البلدة، وبالتأكيد قتله بمثابة البلاء لهم، وسيحزنون عليه.

اتفق حارث مع هذا الرأي، وراقت ظنونه دون توجُّس، فخمد قلقه واطمأن قليلًا، ثم بعد ذلك استأذن للرحيل، وغادر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بخطواتٍ مسرعة، حَضَر ريان الدلّال إلى السوق اليوم متأخرًا، فوجد فور وصوله صخبًا وجلجلة تملأ هذا المكان بوسعه، والذي يكتظ بالناس كعادته كل يوم في هذا التوقيت، يتزاحمون ويتنازعون على الدكاكين والباعة بغوغائية مُفرطة، فتعالت صيحاتهم وغمغمتهم بعشوائية تُزعج الآذان، كأن حبال الوِد والقابلية بينهم قد تمزَّقت أشلاءً، أسفل حرارة الشمس هذه التي لا تُطاق.

ريان رجل عتيق كبير العمر، ليّن الطباع، محبوب من الجميع، يعمل في مهنته هذه بوصفه وسيطًا بين البائع والمشتري منذ عقود عديدة شكَّلت وجهه الهَرِم هذا، يُسهّل الصفقات ويوفّق بين أطرافها لكي تتم وتنقضي بيُسرٍ ودون تعقيدات، وله من ذلك ربح محدد بالتأكيد.

وقف يتأسَّف إلى الرجل الذي ينتظره هنا منذ ساعةٍ على تأخُّره، عارضًا لأسبابٍ لم يأبه لها الرجل من قريبٍ أو من بعيد، ثم بعد ذلك مباشرةً دخلا في صميم العمل وراحا يتحدَّثان، فأخبره الرجل عن بعض الخردوات التي يريدها أن تُباع لأحد الحدّادين، وطلب منه التدخَّل لإنهاء هذا الأمر سريعًا، لأنه متعثّر ماليًا الآن، فوافق ريان بترحاب بالغ، ووعده بتلبية طلبه طالما العائد منه مجزٍ، فأومأ الرجل مُطمئنًا ثم تركه ورحل، على أمل أن يتقابلا مرة أخرى.

بعدئذ اتجه ريان إلى حانة البوظة. سيف البوظي صديقه الأزلي والمقرَّب، فاستقبله بسعة صدر وحميمةٍ شديدة، تبادلا التحيَّة والاطمئنان على بعضهما البعض، ثم قدَّم له سيف قدحًا مليئًا بالبوظة من عنده دون مقابل، ودعاه للجلوس معه بالداخل، فوافق ريان، الذي استهلَّ الحوار معه قائلًا بعدما دلف:

- الوضع بات غريبًا!

امتعض سيف، ولم يفهم مقصده، فشرح ريان سريعًا:

- وصلت لي أخبار أن العمدة سيأخذ ضرائب الشهر الجاري، رغم عفوه عنها حينما اجتمع بنا مساعده!

- كيف ذلك؟ لا أعتقد طبعًا، فلن نصمت، وسنتجمَّع ونذهب إلى أهل الرأي إن حدث.

- يبدو أنه تراجع عن قراراته بعدما ألقى القبض على قاتلي ابنه.

- هه، إننا لم نصمت ولم نضع أحذيتنا داخل أفواهنا دون حديثٍ سوى من أجل موت ابنه، تقديرًا للموقف ليس إلا، فيأتي هو ولا يُقدّرنا!

- الصبر، إنه لا يزال حتى الآن مجرد كلام، لم يصدُر أمر رسمي.

هزَّ سيف رأسه متذمرًا، فأكمل ريان:

- وها هم عساكره يُجهزّون الباحة الكبرى منذ ثلاثة أيام لإعدامهما، وبالتأكيد سيذهب بجثتيهما إلى مرتع المذنبين، المكروهين أحياءً وأمواتًا، ويكون مصيرهما مثلهم بالضبط.

فضحك سيف متهكِّما آنذاك:

- بالطبع سيفعل ذلك، فلن يدفن من قتلوا ابنه في مقابر الصالحين.

بادله ريان الضحك هنيهةً، ثم أردف وقد تغيَّرت قسماته وشردت:

- أترى أن يافث قتل صديقه كما قالوا؟

- اخفض صوتكَ حتى لا يسمعنا أحد، أو اصمت، العمدة غاضب وفي حالة هياج، لقد غيَّرتُ ما كنتُ أفعله سابقًا بألا أتمادى في الثرثرة ومخالفة قراراته، فليس لنا شأن في هذا الأمر يا صديقي، وبالتأكيد هم يعرفون ما خفي عنا في هذه القضية.

- لا تخف، ومهما كان فأنا لن أُصدِّق ذلك، فكما تعلم، يافث أعرفه منذ أن كان صغيرًا، وأفكاره الطائشة لا يُمكن أن تصل إلى هذا الحد!

- إذًا عليك أن تستمع لي يا واسع المعرفة، وتُحكّم عقلك، فسأخبرك ما كنت أشاهده، إنَّ حالة يافث مُتغيرة منذ فترة كبيرة، واختلفت تصرُّفاته تمامًا عن ذي قبل، وكان يُغلق دكانه أيامًا كثيرة ولا يهتم به، وذلك شيء يدعو للشك.

- اختفاؤه عن السوق ليس مبررًا يا «أبو العُرّيف»، لعله يستريح من أشغاله حينًا، ويُريح باله عن مثل هذه الضوضاء، فمعه ما يكفيه من المال لهذه العُطلة، فلمْ يهتم بالدكان.

- يا أخي تراب العمل، ولا زعفران البطالة، فماذا تقول؟!

- كلا، لا أتفق معكَ.

لوَّح سيف بيده عابسًا، وقد سئم من الحديث في هذا الموضوع، إذ إنه يهاب التعدّي على أي أمر يخُص مسئولي البلدة، حتى لو مجرد أقاويل يتبادلها مع أقرب أصدقائه، لكن ريان لم يكترث له، وأكمل كأن فعلًا لم يبدُر منه:

- إنني حزين على شاب مثله، لم يعش حياته بعد، لم يمرُّ عليه في هذه الدنيا سوى معاناة تتخللها الوحدة، فلم يهنأ قط، ولم يذُق طعم الراحة، فمن لا يعرف يافث، الشاب الذي كان العَوَز هو أول شعور انتابه! فاضطر لأن يبني ذاته ويُلبي احتياجاته بمفرده، حتى أصبح رجلًا يُعتمد عليه من دون مساعدة أحد. وأتذكر أن رجلًا من الذين عمل معهم في صغره قال لي إن يافث ذات مرة من فرط معاناته، تحدَّث معه قائلًا إن أهل البلدة هم السبب في موت والديه، وأنه يمقتهم جدًا، لأنهم لم يُساعدوهم في محنتهم، لكنه أوضح له الأمر، وأخبره أنها أقدار محتومة فلا يحزن هكذا، كان يتكلم بعفوية، وهذا لا يُغيّر من شخصيته في شيء، وها هو الآن يتعامل بلطف مع الجميع، إنه حقًا خسارة كبيرة.

- كما قُلت، هذه أقدار ليس لنا بها شأن، المهم أننا سننتهي من عنت العمدة ورجاله بعد القصاص كما قيل.

بُهت ريان من قول سيف، ووجد أن ما في عقله لن يتغير أبدًا، مهما قيل، فآثر صمته ولم يُكمل حديثه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصوتٍ رخيم:

- تكلَّم يا عمدة.

لفظها عثمان وعلى وجهه ابتسامة ترحاب، بعدما حضر كل من قنديل وحارث إلى مقر أهل الرأي حينما أسدل المساء ستاره، وجلسا معه في وجود باقي الأعضاء، جعفر، رزق، بشير، وعنتر، كما اتفقوا جميعهم على هذا الموعد من قبل. مقر أهل الرأي عبارة عن حجرة كبيرة خاوية من الأثاث، جدرانها فارغة من أي مُعلقات تزدان بها، فقط المقاعد المتراصَّة حول المنضدة الكبيرة الموضوع بمنتصفها صحن فخاري عتيق كبير الحجم تفوح منه رائحة البخور، ولا غير.

رد عليه قنديل بهدوءٍ بالغ:

- مبدئيًا، وحتى لا نُطيل عليكم، فنحن هنا من أجل إقامة يوم القصاص، بعد أن تأكدنا تمامًا من القَتَلَة، وقبضنا عليهما، وها هما الآن حبيسَيّ السجن، ولا ينقص

سوى موافقتكم، ثم الانتهاء من الإعداد لذلك اليوم.

تحشرج صوته فتوقَّف لكي يرتشف من قدح الماء الموضوع على المنضدة أمامه، قبل أن يُكمل:

- وبالطبع وصلت إليكم بعض الأخبار، لكن حارث سيشرحها كلها الآن.

فتنهَّد حارث، وهو ينظر إلى الأعين المترقّبة من حوله، ثم أردف موضحًا:

- كان هناك خلاف بين العمدة وأحد التُّجار من خارج البلدة، ومُنع من دخولها وممارسة عمله فيها، لأنه تمادى في الخطأ كثيرًا، فسأم وغلبه الغضب من أجل الخسائر التي طالته عقب هذا القرار، وبين عشية وضحاها تفاقم هذا الخلاف بينهما، إلى حدٍ ليس به تفاهُم أو انسحاب، حتى وصل إلى التهديد والوعيد، وذلك بالطبع من جانبه هو، ليس منّا، فلم نأبه له، وظللنا نسير كما نحن في طريقنا من دون أن ننظر إليه، لكن كما تعلمون فلا يسلم أحد من الشرور مهما تفاداها، فقد تواطأ مع هذا الرجل شاب من البلدة كان صديق غيث، بسبب خلافات نشبت بينهما أيضًا، واتفقا على الانتقام من العمدة وابنه بضربةٍ واحدة، وهكذا يكون هما الاثنان الفائزين، فكل منهما أرضى البُغض الكامن داخله، ولكن شاء القدر أن يتم اكتشاف مخططهما، ومعرفة الخفيّ، بعد بحثٍ واستجواباتٍ عديدة. ألقينا القبض على هذين المُذنبين، لكي يسلكا مسارهما نحو الهلاك، ويأخذ كل ذي حقٍ حقه.

حينئذ تدخَّل قنديل:

- وكما أتحتُم لي من قبل التصرُّف كما أرى في هذا الأمر، فإنني قررت إعداد يوم قصاص تحضرهُ البلدة كلها، سيُحدد في يومٍ مناسبٍ عن طريق البوق، حتى لا يتكرر مثل هذا الموقف مع أشخاصٍ آخرين، ويعرف الجميع أن هناك رادعًا لكل خطيئة، وعقابًا لكل مُذنبٍ، فسيتم إعدام القاتلين بالمقصلة، ثم الذهاب بهما إلى المحرقة، وهناك سينتهي دورهما في هذه الحياة، بما يليق بفعلتهما الدنيئة هذه.

فعقَّب حارث:

- لكننا اتفقنا ألا يُنفَّذ شيء من ذلك قبل الرجوع إليكم، لأنَّه مهما حدث فلن نحيد عن الدرب المتعارف عليه بيننا، وجئنا الآن لأخذ الأمر الفصل.

آنذاك عَلَت علامات الإيجاب والموافقة على وجوه أهل الرأي، واتضح لهم الأمر برمته كما أرادوا، باتت القضية مكتملة الخيوط، مشروحة أمامهم بتفصيلٍ دقيق، وأوشكت على الانتهاء وآلت إلى تتمتها، فلا يظل على إغلاقها إلا خطوة واحدة، وهي تنفيذ أحكامها فقط. على النقيض بدا قنديل وحارث بجوارهم كالرُضَّع بانتظار تلقيمهما نهدي أمَّيهما، ليرتويا ويسكن بالهما، فلمْ يستغرق أهل الرأي مدة طويلة من المشورة بينهم حتى استساغوا الأمر، وأبدوا القبول، ثم أصدروا فرمانهم لقضائه قائلين:

- حسنًا، خُذ بثأر ولدكَ.

لكن أضاف عليهم عثمان سريعًا بنبرةٍ باردة، ونظرة تحمل بين طياتها الكثير:

- ولنا جلسة أخرى في ذاك الأمر.

فلم ينتبه العمدة ومساعده إلى مقولتهم الأولى، التي جاءا من أجلها خصيصًا، مُتعجِّبين من تعقيب كبيرهم عليها، قَلِقَين مما يرمي إليه هذا الرجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّ اليوم الأول، والثاني، والثالث، والرابع، ولم يحدُث شيء! ساروا بوتيرةٍ أبطأ من المعتادة بمراحل، أيام ثِقال تجثم برتابتها واضطرابها على صدور الجميع، انقضت فترة الغربان المتعارف عليها ولم ترحل، وظلت بغرابةٍ كما هي تحوم فوق التمثال دون كلل، في أمرٍ عجيبٍ اندهش حياله أهالي البلدة بأسرِها، إنها تأتي في المعتاد من دون سابق إنذار، ثم ترحل بعد مغيب شمس اليوم الرابع من إتيانها، لتحدُث مصيبة أو بلاء في مساء ذات الليلة، لكن هذه المرة لم يتم ذلك!

في البداية لم تعبأ البلدة باختلاف وتغيُّر عادة نشأوا وتربّوا على الخوف والذُعر منها، وتابعوا على مرمى أبصارهم بمرور السنوات كوارث تحدُث بين الفينةِ والأخرى بسببها، فقالوا وافترضوا أنه طالما لم تجرِ الأحداث الآن كما اعتادوا من قبل، فإن هذه المرة لن يتم شيء مما يخشونه! وأنَّ مجيء نذير الشؤم ومنبع الشرور هذا، أمر عادي يجب ألا يقلقوا منه دومًا، فقرروا واتفقوا جميعهم ألا يتحدثوا عنه، ولا يتبادلوا التكهُّنات بشأنه إلا بعدما ترحل هذه الطيور السوداء، ثم يرون ما المستور وراءهم! ولمَ هذه المرة تبدَّلت تبعات حضورهم الثقيل والمكروه دائمًا وأبدًا؟

انقضى اليومان الخامس والسادس على هذا المنوال، لا حديث، لا اكتراث. لكن لم تسر أفئدتهم على الدرب الذي أرادوه، عارضتهم تمامًا، وشعرت بأن ما سيأتي لن يُحمد عقباه، وأن الخطر قادم لا محالة، فارتعد الناس أكثر، وتملَّكهم الخوف كليًّا بعد أن حاوطتهم الأسئلة والتوقُّعات بأيادٍ مرعبة، ثم حملتهم جميعًا وألقت بهم داخل ثقبٍ من الفزع والظلام، لا يؤتى أخره إلا بمرور متسعٍ كبيرٍ من الوقت، فظلوا يسبحون فيه وقد استحالت قلوبهم إلى رفات واهنة، تتطايرُ بجانبهم بلا وجهةٍ محددة، ولا يعلمون إلامَ ستؤول بهم الأحداث.

ظل الحال كما هو حتى جاء اليوم السابع. بات الوضع على أشُده، فوقعوا جميعًا طريحي أرض مُقفرة، جرداء غابرة، ليدهسهم ما يمر عليهم من قلقٍ وخوفٍ وريبة دون شفقةٍ أو رحمة، فتأكدوا أن بذرة الخراب راحت تكبر وتترعرع طوال أسبوع كامل، ولمّا صارت يافعة وقوية، انفضَّت حلقة الغربان من أعلى التمثال بعد أن اطمأنت على ما ستتركه خلفها، ونزحت بعيدًا عن البلدة في صمتٍ تام، رحلت بعد أن جعلت جميع الأرواح عالقة بانتظار الكارثة بفارغ الصبر، الكارثة التي طالت مدة إعدادها كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«ما الذي اقترفتهُ لأنال كل هذه المعاناة؟ انتزعتني الحياة من رحم أمي لكي تُعطيني إلى متاعبها، لتلهو بي، وتتلذذ بأوجاعي، وتشجو طربًا بآهاتي!»

كما اعتاد مؤخرًا، يُحادث يافث نفسه وهو جالس يضُم رأسه بين قدميه على أرض الزنزانة، المكان المظلم ضيق الحجم، الذي تُظهر الشعلات النارية عند بابه أنه خاوٍ تمامًا، عبارة عن جدران فقط، لا يوجد به أي شيء، حتى لو كانت مجرد أقمشة بالية لتُفرش على سطحه لكي تمنع عنه البرد، فاقتسمت قدراته نفسها للتصدّي إلى هذه الحرب المزدوجة، المتكونة من الألم النابع عما وُجِّه إليه من اتهامٍ جائر، أو من تحمُّله لمجابهة سوء الوضع المحيط به في هذا المكان القفر.

أصبح وجهه شاحبًا، وجسده نحيلًا، واهنًا، وتغيَّرت هيئته وتدنَّت نفسيته إلى الحضيض، فقد مُنع عنه الطعام أسبوعًا كاملًا، حتى صارت بطنه تتألم وتصيح من فرط تضوّرها جوعًا، فقط جاء إليه منذ ليلتين كسرة خبز صغيرة، فابتلعها بلهفةٍ وشراهةٍ مسرعًا، لكنها لم توفِ الغرض، وكأنها لم تنزل إلى أمعائه قط، بالإضافة إلى أنهم من آن لآخر يُحضرون له قنينة ماء صغيرة، ليست بالنظيفة، يظهر تعكّرها بوضوح، لكنه أيضًا يشرب منها مضطرًا ولا يُبالي.

ضوء الشمس لم يتلاقَ مع قسمات وجهه منذ أن كان على سطح الأرض، حتى اختلطت عليه معرفته وتحديده للوقت، الآن هو في جوف السجن لا يرى ولا يسمع إلا ذاك الرجل القابع في الزنزانة المقابلة له، الذي يتعذَّب ليلًا ونهارًا دون توقُّف، وبلا رحمة، حتى صرخت عضلاته، وضخَّت شرايينه جميع طاقاتها، فلم يَعُد يقوى على التأوُّه والصراخ مؤخرًا، فيُشيح يافث نظره عنه بشفقةٍ مُفرطة على حالهما، وهو يتساءل في قرارة نفسهِ عن مصيرهما المجهول بالنسبة إليهما، ولا يعرفان أية بوادر لما سيحدث لهما في الأيام القادمة، فبذلك لا يجد شيئًا يفعله سوى إكمال المناجاة داخله، ولوم وتأنيب العالم غير العادل في نظره، علّها كلمات تُخفف هذا الحِمل الجاثم على صدره.

«آهٍ، حقًا كما يُقال (من مأمنك يؤتى الحذر)، كيف فعلتم هذا يا رفاقي؟! يا إخوتي! كيف هانت صداقتنا هكذا! أنتم من بلَّغتُم عني! تعتقدون أنني قتلت غيث؟! كيف؟ ليس معنى وجود خلافات بيننا أن أذهب وأقتله مباشرةً، ليس بهذه السهولة! كيف تُفكرون بي بهذه الطريقة؟ لمَ أقتل صديقي! من أجل فتاة؟ ها هي الفتاة رحلت هي الأخرى ولمْ تظل بجواري، إذًا كيف وصل بكم الظن إلى هذا الحد! أنا مصدوم، وتعبتُ كثيرًا مما يحدُث لي، لكن ماذا تفعل الصدمة الحين؟ لقد أنهكني الكرب، ولمْ أعُد أشتهي الحياة، حتى لو حدث ما أتمناه، فليتني أموت في هذه الزنزانة الوضيعة، أموت وحدي، كما عشتُ دائمًا وحدي، فإنها بلدة ظالمٌ أهلها، جبَّارون، هجرني جميع مَن فيها، فأتمنى أن يُقضى نحبي لأتخلَّص أنا منهم، وليس العكس.»

كاد يافث ينفجر كبتًا وضيقًا، مرَّت عليه أيام الحبس سنوات عديدة، ومريرة، يتكبَّد فيها ألمًا لا يُضاهيه ألم. ينتظر بفارغ الصبر انتهاء هذا الأمر، وانقضاء هذه المحنة، إما أن يقتلوه ويقتصوا منه لتكون هذه هي العدالة من وجهة نظرهم، وإما أن يتأكدوا من الفاعل ويطلقوا صراحة، ويخرج من هذا القبر الذي يحتويه حيًّا.

شرود دائم يتوه فيه، لا يفيق منه أبدًا، فلا يعلم ما يحدث خارج السجن، ولا يعبأ به. عدا الآن، تبدَّل حاله قليلًا، حينما انتفض في مكانه لمّا سمع هذا الصوت القادم له من

خلف قضبان الزنزانة الحديدة، فولى رأسه الضعيف بإعياءٍ شطر مصدر هذا النداء، وهو يعلم جيدًا أنه لن يقدر على التكلُّم مع أي شخصٍ أيًا كان هو، فرمق بعينيه المرهقتين العسكري الذي يُشاطر زميلًا آخر له مراقبتهما طوال الوقت ماثلًا أمامه، ويقول بصوتٍ جهوري نابع من شفتين منزعجتين:

- لقد رحلت الغربان مساء أمس، كان من العجيب وجودها كل هذه المدة، لكن الأغرب والأشد عجبًا هو عدم حدوث أي شيء بعد رحيلها كما العادة، البلدة كلها مندهشة مما تم، ولا يجدون له تفسيرًا واضحًا، إن هذه الغربان لم تأت منذ أن قُتل ابن العمدة، لولا مقتله لما أتت بظُلماتها هذه، فليتك لمْ تفعل ذاك الذنب يا حقير يا ابن الكلب، أتظن أن جميع الآباء يتخلون عن أبنائهم مثل أبيك! هه، سترى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برويَّة، فُتح باب السجن الحديديّ الموجود بالأرض على اتساعه ليَخرُجٍ منه هذا العسكري، بعد أن ترك يافث وانتهت مناوبة اليوم في المراقبة وسلّم الدور للعسكري الآخر، ليبدأ دوره هو. الظلام الدامس يُشير إلى انتصاف الليل بالضبط، فتخطّى مقر الهيئة بعُجالة لكي يمضي في طريقه متجهًا إلى بيته، من أجل أن يُمهل جسده قسطًا من النوم، ليرتاح من عناء ذلك اليوم.

لم يستمر في المشي كثيرًا، فقد وقف في مكانه ولم يتحرَّك على حين غرَّة إذ فوجئ بنعيقٍ مرتفعة أصداؤه، انزعجت وتألمت منه أذناه، نعيق قوي ينساب من كل جانب لم يعرف أين يقبع مصدره، لكن لاحظ أنه يملأ أرجاء البلدة كلها. ولمّا تعسَّر عليه الفهم ولم يجد تفسيرًا بيِّنًا لذلك، حاول تخطّى هذه العقبة سريعًا، وإكمال سيره في طرق البلدة الخالية من المارة، ففي هذا التوقيت الجميع نيام، عدا قلة قليلة عائدة من أعمالها متأخرةً مثله تمامًا.

ثم زاد اندهاشه أكثر حينما وجد ضبابًا كثيفًا أحاط فجأة بسماء البلدة، غطَّ المكان كله وهو يعلو سَمْت الرؤوس المتحركة على الأرض، فاختفى وراءه قرص القمر الذي كان مختنقًا ذا ضياءٍ دام هذه الليلة، أصبح الضباب الحالك بجوار النعيق الخفي، كلاهما سويًا في هذا الحيِّن من دون أسبابٍ تشفع لوجودهما، كان الأمر بالنسبة إليه مُبهمًا فارتعدت أوصاله وهو يكمل دربه نحو البيت بصعوبةٍ بالغة، فقد صار كليل البصر في هذه العتمة السائدة، هواءٌ أسود ينتشر في جميع شوارع البلدة، فلا أحد يقدر على تمييز الأماكن بسهولة، لكن هذا العسكري تغلَّب على هذه الظُلمة بقُرب بيته من مكان السجن، وحفظه للطريق عن ظهر قلب، حيث وصل إلى مرتعه.

دخل بيته بأنفاسٍ لاهثة لا يعلم كُنه ما يحدث بالخارج، لا زال يسمع بكلتا أذنيه النعيق يدوي بوضوحٍ شديد، لكنه بلا مبالاةٍ قرر تجاهل كل ذلك، وعزم أن يتجه إلى غرفة نومه ليحل في سُباتٍ عميقٍ، يتمنى أن يستيقظ منه على انقضاء هذا الأمر العجيب. أوقفته زوجته بطبقٍ ممتلئ بالطعام لكي يأكله قبل أن يخلد للنوم، فنحَّى يديها جانبًا ثم تركها وصعد إلى أعلى، إلى سريره، الذي استلقى عليه كالجثة الهامدة وهو لم يُبدّل ملابسه الرسمية، وقد بدأ يلوح على وجهه التعب رويدًا رويدًا.

صعدت زوجته وراءه بدورها وهي متعجّبة من شأنه اليوم، فلاحظت فور اقترابها منه أنه مُنهك بشدة، والعرق يتصبب منه بطريقةٍ مريبة، ويتنفَّس بمشقَّةٍ بالغة، فواصلت الدنوّ منه شيئًا فشيئًا لكي تضع يدها على رأسه للتأكد من درجة حرارته، فوجدتها طبيعية ولا يوجد بها شيء يستدعي القلق، لكنها في هذا الآن رمقت بعينيها دمّلًا كبيرًا في جانب رقبته أسفل أذنه اليُمنى بقليل، سألته عن سبب وجود هذا الدمّل فلم يرُد، لأنه لم يستطع التحدُّث معها نهائيًا. ازدادت ريبتها وخوفها عليه، فقررت عدم تركه هكذا، وصعدت بجواره على الفرش ثم جلست القرفصاء، وسرعان ما راحت تُلدّك يديه وقدميه، علّه مُنهك من العمل فيرتاح قليلًا.

كان العسكري لا يُبعد نظره عن النافذة الموجودة في غرفتهما، يُتابع من ورائها وجود الضباب باستمرارٍ وعدم اختفائه، شأنه شأن النعيق الذي لم يحلّ عن البلدة منذ أن سمعه فور خروجه من السجن. زوجته بجواره على الفراش تتابعه من آن لآخر، لم يغفل جفناها ولو لوهلةٍ صغيرة، تتابع زوجها المستيقظ غير قادر على النوم والإعياء يتملَّك منه كليًّا بمرور الوقت، حالته تزداد سوءًا، فالعرق يتضاعف أكثر حتى أغرق عنقه وصدره، والدمّل يكبُر بشدة ويكبُر معه الألم النابع منه، فما كان عليها من العجز إلا أن ذرفت عيناها دموعًا متتابعة شفقةً على زوجها المُتعب، ولا تقدر على فعل أي شيءٍ له، منتظرة بفارغ الصبر قدوم الصباح، من أجل الذهاب به إلى أقرب طبيب لكي تطمئن عليه.

مرَّت الساعات متتالية ولم يناما، ليلة طويلة أخذت حيِّزا أكبر من اللازم، لم يتغيَّر فيها الوضع كثيرًا حتى شارفت على الانتهاء، فوصلا للآن الذي تابعت فيه الزوجة برفقة زوجها من الشرفة تبدُّد الضباب أمامهما، في الحين الذي انتهى فيه أيضًا انتشار هذا النعيق المزعج، اختفيا فجأة كما ظهرا فجأة، فظهر من بعدهما النور مباشرةً، وبزغت شمس الصباح جليَّة وكأنها هي التي طردتهما بعيدًا عن البلدة، فوثبت السيدة برأسها لتُلقي نظرة على زوجها لكي ترى حالته، فوجدته شاردًا بعينيه بلا حركة، ومن دون أنفاسٍ تصدُر منه، فطرق الرعب صدرها حينما هزَّته ولم يستجب، وانتفضت في مكانها فَزِعة وهي ترتعش، لتتأكد حينئذٍ أنه قد قضى نحبه، ونزحت روحه من جسده، مودعةً إيَّاها إلى الأبد.

أطلقت صراخًا شديدًا يفوق في حِدَّته صوت النعيق الذي اختفى منذ لحظات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذيعت وانتشرت سيرة الضباب والنعيق اللذين بزغا في منتصف الليل وتبددا بشروق الشمس على ألسنة البلدة كلها، كلٌّ يتناقل ما سمعهُ ويعرفهُ، فوجدوا في ثنايا الحكايات المتناثرة بين أفواه الجميع، أن كل شخصٍ سار في هذا الضباب المنتشر ليلًا، أصابه تعب شديد يرافقه تعرُّق غزير ودمّل في الرقبة ولم يستطع النوم أو التفوُّه بأي كلمات، ولمّا أشرقت الشمس وانتهت هذه الغمة ماتوا جميعًا، في نفس الوقت، دون أسبابٍ توضّح ما حدث.

عجز الأطباء عن التفسير، واعتراهم شعور مشؤوم لم يستطيعوا الفكاك منه، فأصاب أهل البلدة الرعب، وقتلت صعوبة التفكير عقولهم، وراحوا في حالةٍ مزرية

من اللا وعي، الأموات كانوا بالعشرات، أرواح ذهبت هباءً من دون أن تفعل شيئًا يقودها إلى الهلاك هكذا، فقط الذنب الوحيد أنهم عادوا إلى منازلهم متأخرين!

في لحظةٍ تأكد جميع مَن في البلدة أن ما حدث هذا هو البلاء الذي خلَّفتهُ وراءها الغربان هذه المرة، ولم يكُن وجودها هذه المدة الكبيرة أمرًا عاديًا كما تمنّوا، وكان خوفهم وارتعادهم هو الذي في محلّه، لكن هذا الخوف تفاقم أكثر من المعتاد بمراحلٍ عديدة، ووصل إلى ذروته، حينما تكررت هذه الليلة المشؤمة في مفاجأة نادرة مرةً أخرى في اليوم التالي لها، نفس الضباب الخانق، ونفس النعيق المؤلم لأذن كل من يسمعه، علاوة على ظهور نفس الأعراض التي حدثت بالضبط، إرهاق، تعرُّق، تنفُّس بصعوبة، وعدم القدرة على الحديث، ودمّل، وأرق، ثم الموت الحتمي حينما تشرق شمس الصباح! لكن يظل مربط الفرس في خفية، السؤال الرئيس و المهم هنا، وهو من المتسبب في هذا الضرر الضخم؟ ولمَ عساه فعل ذلك؟

وقع إثر الليلة الثانية أيضًا عشرات الموتى، لأنهم لم يكونوا متوقعين تكرار ما حدث مرة أخرى هكذا، حتى وصل عدد الذين ماتوا جرّاء هذا الضباب إلى المائة بالضبط، مائة شخص زهقت أرواحهم، وانتهت رحلتهم على وجه الأرض، في ليلتين متتاليتين جعلتا قلوب جميع من في البلدة تنساق إلى حافة الانهيار وهم يضعون أيديهم على صدورهم متوجسين، آخذين كل تدابيرهم وهم يلزمون بيوتهم دون أن يخرجوا منها نهائيًا، آملين انتهاء هذا الكابوس في القريب العاجل، وعدم تكرار هاتين الليلتين السوداوين مجددًا، لكبح ازدياد معدل الأموات عند هذا الحد، ولا يعلو أكثر من ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المستعمرة..

بعد أن التحفت السماء بعباءتها السوداء، حضر مَن بعث لهما ضوي من أجل الاجتماع بهما، جاءا ولم يتأخرا على الميعاد المحدد لهما ولو دقيقة واحدة.

يجلس هو بترفُّعٍ على مكتب الراعي مُتشابك الذراعين، وعلى وجهه معالم الحقد والشرّ بازغة للنّاظرين، وبجانبه تُوضع العصا الخاصة لسيِّد عمله، الذي أخذ مكانه ومكانته منتهزًا الفرصة بكل كفاءةٍ وجدارة، وأمامه يرى كلا الرجلين جالسين بمقابلة بعضهما البعض، على اليمين أحدهما الذي من البلدة، وهو رجل طاعن في العمر، هزيل الجسد، ويُدعى سامر، أما على اليسار فيوجد ثالثهما، وهو شخص غريب للغاية، هيئته وملابسه مختلفتان عنهما تمامًا، يتزعَّم قبيلة مأجورة بارعة في القتل والسرقة، وتتعدَّد مهاراتهم في إقامتهم للخراب، يُدعون المرتزقة، ولا يفهمون إلا لغة واحدة فقط، وهي لغة المال.

بدأ ضوي الحديث معهما، قائلًا بنبرةٍ باردة:

- لن يفعل أحدكما شيئًا، دون أن يأخذ مقابلًا يُرضيه.

هزَّ الاثنان رأسيهما متفقين، ولم يتكلَّما. فأكمل هو شارحًا غرضه بوضوح:

- سامر، ذاك الرجل الطيِّب، بتوجيهاته ومعلوماته المتاحة عن الثغرات الموجودة في حدود البلدة، ستستطيع أنت ورجالك الدخول متسللين من أقرب طريقٍ يؤدي إلى بيت المال، فتخترقونه وتُحضرون منه ما تستطيعون حمله قدر المستطاع، قاضين على أي عسكري سيُفكِّر في مواجهتكم بلا أدنى رحمة، فاعلين المستحيل من أجل تخريب وإفساد هذه البلدة، وإعطائها ضربة موجعة تقضي عليها، لكي يعلموا جيدًا ما هي عاقبة فعلتهم الأخيرة، وأنها لن تمُر مرور الكرام، فتتحطَّم أنيابهم، لنتمكَّن بعدئذٍ من إعادة الراعي سالمًا لنا.

فأردف زعيم القبيلة، الذي سيقود الهجوم ويُنفّذ الخطة:

- موافق، وأي عقباتٍ أخرى قد تُقابلنا، سنخطط نحن لتفاديها بطريقتنا الخاصة، لكن المهم الآن هو أن أمرًا خطيرًا وشاقًا كهذا سيكون المقابل له قاسيًا عليك بعض الشيء!

- كم تُريد؟

ابتسم من زاوية فمه، وهو يُجيب:

- نصف المال الذي سنُحضره.

انعقد حاجبا ضوي، وهو يرُد عليه متأففًا:

- كلا، لن يحدُث هذا!

- سيحدُث، فأنت من دوننا لن تقدر على إتمام مُخططك.

فرمقهُ ضوي غاضبًا وهو يزم شفتيه، ثم أخذ كل وقته للتفكير، قبل أن يُضيف:

- لا، فأنت مُخطئ، هذه خطتي، وإن لم تحصل على المعلومات اللازمة من هذا الرجل، فلن تستطيع أن تسير خطوة واحدة هناك أنت ورجالك، ثلاثتنا نُكمل بعضنا بعضًا.

لم يرُد عليه، علامةً منه بعدم الرضى، فأكمل ضوي مضطرًا بعرضه الأخير:

- الثُلث فقط، وخُذ بعين الاعتبار ما هي ماهية هذه المستعمرة، فمنها سيُتاح لكَ ولكبار رجالك بعدما تتكلل مهمتكم بالنجاح بعض الفتيات ليلتين كاملتين، من أجل التخفيف عن مشقَّة هذه المهمة الصعبة، ماذا قُلت؟

- لا بأس، موافق.

قالها الرجل وهو يومئ برأسه ويضحك، راضيًا بهذا العرض رغم أنه كان يأمل أكثر من ذلك، لكن في النهاية تم الاتفاق بينهما أخيرًا. حينئذٍ قرر سامر أن يتدخَّل مُعقِّبًا على حديثهما بصوتٍ خفيض:

- مهلًا، وبالنسبة لي! كلاكما أيضًا يحتاجني بشدة.

فولّى ضوي نظره إليه:

- عشرون عُملة ذهبية من أجلك، ثم تختفي تمامًا من هذه البلدة.

بدا الرفض وعدم الاستجابة جليَّين على وجه سامر، وهو يقول:

- لا، أتُريد مني التواطؤ والمساس ببلدتي مقابل هذا الثمن البخس؟!

امتعض ضوي بلا مبالاة، فأكمل سامر بنبرةٍ تتخللها وضاعةٌ وانحطاطٌ شيطانيٌّ:

- بلدتي العزيزة التي أكنّ لها كامل الحب والاحترام ثمنها أكبر من ذلك بكثير.

يبدو أن تضارُب دروب الفقر نزعت من رأسهِ غطاء الكرامة والعقل، وأرست بدلًا منهما نعال الخسَّة والدناءة. فسأله ضوي مباشرة وهو يوقن جيدًا ما يرمي إليه ذاك الرجل:

- كم تُريد؟ أنتَ لن ينفعك النساء في هذا العمر!

ضحك سامر مُجيبًا:

- النساء لا تنفع عمومًا، إنني أُريد خمسين عملة ذهبية، وحينها سأُخبرك كل كبيرة وصغيرة في البلدة، وسأجعلـ...

آنذاك رماهُ ضوي بنظرةٍ ألجمت لسانه، فكفَّ سامر عن ثرثرته بعدما أوضح مُراده لهما بكل صراحة. بعد ذلك نهض من مكانه، بعد أن اقتسموا البلدة على المائدة، واضعًا قبضة يديه الاثنتين خلف ظهره وهو يومئ برأسه، ويقول عبارات مبعثرة كأفكارهِ التي تدور في عقله الآن بالضبط:

- حسنًا، فكما قُلت مُسبقًا، ستأخذون ما تريدونه. ويبدو هكذا أننا اتفقنا جميعًا.

- متى سنُنفذ إذًا؟

قالها زعيم القبيلة متسائلًا، فنظر ضوي إلى سامر، الذي أجاب مُبيِّنًا لهما:

- لقد انتهت جائحة الضباب الذي يؤوب ليلًا منذ يومين، ولم تتكرر مرة أخرى بعد هاتين الليلتين التي قضت فيهما على الكثير من الناس، والآن الوضع شبه مستقر. فسأشرح لكما كل شيء تودان معرفته، وعليكما التنفيذ في مساء الغد إن أردتما.

فابتسم ضوي الذي صار واقفًا بينهما قائلًا:

- جيدٌ، فلنستعد إذًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأجواء في البلدة تكاد تُشبه المقبرة، صمتٌ تام، ولا حركة. مساءً يتكرَّر لليوم الرابع على التوالي، الجميع يلزمون بيوتهم منذ أن تغرُب الشمس خائفين، ولا يخرجون منها إلا مع شروقها في الصباح التالي، خاضعين تمامًا لوسواسهم بأن يتجنَّبوا ضباب الليل إن حلّ مجددًا، فلا يُصيبهم ضرر حينئذ.

كانت هذه هي أفضل فرصة للتسلُّل داخل البلدة، فمن ناحية الغرب بجانب محرقة الموتى مباشرةً يقلّ عدد العساكر الموجودين لحماية الحدود، وذلك لسوء المكان،

وخوف الكثيرين من الاقتراب منه، فيُهمل هذا الجانب بعض الشيء، وحبَّذا وجود هاجس أكبر يجعل العدد أقل وأقل، وهو الضباب. فاجتمع المرتزقة متأهبين جيدًا، رجال القبيلة المأجورة، ثم اتجهوا ونَفَذوا من تلك الثغرة المُهمَلة، بعد أن وجدوا ثلاثة عساكر فقط، كان القضاء عليهم أسهل ما يُمكن أن يقابلوه في مهمتهم هذه.

ساروا على خُطى وتعليمات سامر التي رسمها لهم بالضبط، فلم يجدوا عناءً كبيرًا في الوصول قُرب بيت المال عبر تلك الطرق الخاوية من البشر. انزووا جميعهم خلف بعض المباني المجاورة لهدفهم، بعد أن أبصر كبيرهم عن بُعدٍ وجود بضعة عشر عسكريًا لكي يحموه، لم يحص عددهم بالضبط، فاستهلك بضع دقائق للتفكير في كيفية التعامل معهم بإجادة.

بعد ذلك بقليلٍ أمر خمسة من أمهر رجاله الذين يحملون أقواسًا بأن يتحرَّكوا، ويتحرَّروا من مخبأهم، ثم سريعًا أعطاهم الإشارة لقذف سهامهم صوب خمسة من هؤلاء العساكر الذين يُمثِّلون عَقَبة مانعة أمامهم، لكنها باتت مُزحة ستُزيد من عزيمتهم، وستُشعل المعركة وتُلهبها حماسًا بعد أن قُضيَ على بعضٍ منهم في آنٍ واحد، وتبقى خطوة واحدة ليُصبح طريق الاقتحام مُمهَّدًا على وسعهِ.

ثم سريعًا ودون انتظارٍ أكثر من ذلك، تقدَّم قائد القبيلة ومن خلفهِ رجاله منتشرين نحو مدخل هذا المبنى الذي يكتظ بالمال، كلٌ شاهرٌ سيفه مندفعين صوب مَن تبقى من هذه العساكر، ليقضوا عليهم من أجل أن تزهق أرواحهم في أرض النزال، ويكون فناؤهم، فدوى تصادم السيوف في أرجاء المكان، برفقة صيحات حامليها الغاضبة، لتعلو الضجة العالية إثر التعارُك الذي لم يدُم كثيرًا، فكثرة عدد المرتزقة رجَّحت كفتهم لينتصروا على هؤلاء الجماعة الحامية سريعًا، وتخطّي عائقهم.

وقف القائد بعد الانتهاء لترتيب الصفوف، وهو يعلم جيدًا أن كل رجلٍ منهم على دراية كاملة بالدور المحدد له، لكي ينتهوا سريعًا من هذه المهمة، ثم يرحلوا ظافرين بالمال والنساء كما وُعدوا. لكن حدث ما لم يَكُن في الحسبان، فلم يُخبرهم سامر بوجود بعض العساكر أعلى بيت المال، ويبدو أنَّه لا يوجد أحد يعلم بوجودهم على الإطلاق، أو أنهم كانوا بداخله ثم صعدوا للأعلى عند سماع الجلبة التي قامت منذ قليل، فتفرَّق هؤلاء المرتزقة متبعثرين مجددًا بعد أن طفق هؤلاء العساكر يضربون رصاصات بنادقهم نحوهم، لتتم إصابة وقتل أكثر من رجلٍ منهم، ليصيروا طريحي الأرض بجوار العساكر الذين قُتلوا منذ لحظاتٍ معدودات.

تبددت صفوفهم واختبأوا جميعًا مرة أخرى، عدا القائد وثلاثة رجال معه، اثنان بسيوفهما، وواحدٌ آخر يحمل قوسًا وسهامًا، تركوهم ودلفوا أربعتهم من مدخل بيت المال في خفية، مندهشين من حمل هؤلاء العساكر لبنادق لم يروا مثلها من قبل، فقرروا انتهاز تلك الفرصة التي بالتأكيد ستجعل هؤلاء العساكر في الأعلى يتشتتون في تحديد مخبأهم، بأن يصعدوا ببطءٍ شديدٍ للغاية على السُلَّم، لكي يُباغتوهم ويتخلصوا من هذه المفاجأة غير السارة قط، التي أنقصت من عددهم القليل، فقابلهم آنذاك أحد العساكر الذي قرر أن ينزل ليتتبَّع أثرهم ومكانهم من الخارج، لكنه نزل بجسده لتصعد روحه إلى السماء، بعد أن رماه حامل القوس بسهمٍ قضى عليه

مباشرةَ، بعد ذلك أكملوا تقدّمهم إلى أعلى، وواصلوا الدنوّ أكثر، لتنشب مبارزة بينهم وبين العساكر المختبئين في الأعلى، مبارزة لم تَطُل مدتها كثيرًا، وأُعلِنت نتيجتها سريعًا، فقد تمت إبادة عساكر البلدة المتبقية لحماية بيت المال، جراء تدني مهارتهم في مقابل براعة المرتزقة القتالية، لكن ذلك لم يمنع وقوع اثنين منهم، بالإضافة للذين هلكوا بالأسفل، ليتم هكذا الخلاص من أخر عقبة بإمكانها أن تُفسد الطريق نحو إتمام هذا الهجوم.

نزل الرجل الذي نجا مع قائد المرتزقة، لكي يُخبر باقي الرجال في الخارج بأمان الوضع في الأعلى، فانفجروا جميعهم من أماكنهم وصعدوا واحدًا تلو الآخر وهم يحملون حقائب كبيرة، ملأوها تمامًا بالمال في وقتٍ ضيق ومناسبٍ لهذا الحين، ثم سريعًا حملوا تلك الحقائب على أعناقهم وانسلّوا من هذا المبنى مُحققين مبُتغاهم، بعد أن خرَّبوه ودمَّروه ولمْ يَعُد منه فائدة مرجوّة بعد الآن، ليتم بذلك القضاء نهائيًا على إحدى القوى المُتكئة عليها هذه البلدة.

بعد ذلك سلكوا ذات الطريق الذي جاءوا منه، مُفسدين ومُحطِّمين مداخل جميع المنازل التي قابلوها بسيوفهم، بجانب أيضًا البنادق التي أخذوها من العساكر بعد أن قتلوهم، ليجعلوا طُرق البلدة فوضوية غير صالحة لشيء إطلاقًا، حتى لم يَعُد تتحدد لها معالم أسفل دفقات النور. ثم وصلوا إلى المكان الذي عبروا منه للداخل، وتخطّوه بيُسرٍ عائدين أدراجهم مرة أخرى، وقد تكللَّت مهمتهم بالنجاح، وكانوا على قدر الثقة التيً أوكلها إليهم كبير المراقبين في المستعمرة.

ليُكن مساء هذا اليوم هو صاحب الضربة والصدمة الثالثة في صدر البلدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّت ساعة..

اليقين التام بتأزُّم الموقف. يقف حارث شاردًا مُحمّلًا بهموم عديدة، ومن حوله تنتشر عساكره لتنتشل الجثث المُلقاة على الأرض، عيناه تعكسأن نظرة حسرة، وتشتُّت، نتيجة إحساسه بالتقصير والتخاذل تجاه عمله، بعد أن نزل من بيت المال الذي نُهب ما فيه، وسُرق جميع ما يحتويه، ولم يَعُد داخله حتى ما يكفي لشراء رغيف خبزٍ واحد.

فأخرجهُ من حالة الوجوم الناتجة عن الصدمة التي تاه داخلها صهيل جواد العمدة المرتفع، ومَن يتبعه مِن عساكر، لينتبه إليه مُطأطئ الرأس في خزي شديد، وقلقٍ تام. ترجَّل قنديل من أعلى جواده، ثم انتصب أمام حارث وشرر الضَيق يتراقص في بؤبؤ عينيه غير مُصدق ما جرى، ثم صاح فيه متسائلًا عما حدث بالتفصيل، فقصَّ له حارث كل ما بالأمر سريعًا، لكي ينتاب العمدة في الحال قشعريرة أرهبته، خشية من تبعات ذاك الحادث، ثم تلتها مباشرةً رجفة تنُم عن هلاك قواه، وهو يلعن في سرّه جميع ما حوله.

فعاد حارث مرة أخرى ليُتمتم:

- أعتذرُ لكَ يا قنديل، إنـ...

فحدّجهَ قنديل بحنق، مقاطعًا إياه:

- لن يُفيد الاعتذار، يجب أن نُعيد كل شيء إلى سابق عهده، ولو بأي طريقةٍ مُمكنة.

- لم نكُن مستعدين لأمرٍ مثل هذا، فهُزمنا!

- الآن أنت مُخطئ أمامي، وتتحمَّل الضرر برمته، فعليكَ التصرُّف سريعًا.

أومأ حارث رأسه، ولم يستطع الرَّد، وراح يُفكِّر جيدًا. فأضاف قنديل غاضبًا:

- لئلا ستُعزل من منصبك هذا، إن كان ثقيلًا عليكَ.

وَقَع قنديل في خندقٍ خانقٍ، غير قادر على النجاة منه، ووَقْع الأمر عليه جعل أنفاسه كأنها نابعة من الجحيم، فضاق زمام الأمور من حولهِ أكثر. أكمل مجددًا:

- ما حدث سيضطرني لأخذ قرارات لمْ أكُن أُريدها.

فرَّد عليه حارث:

- أعدُكَ بإصلاح كل شيءٍ قدر الإمكان، وعودة جميع ما سُرق، لأننا وجدنا بين القتلى رجلين من مُنفِّذي ذلك الهجوم لا يزالان يلفظان أنفاسهما بصعوبةٍ بالغة، فأرسلتهما لأطبَّائنا كي نداويهما، ثم وضعهما في السجن لاستجوابهما، ومعرفة ما بجُعبتهما، حتى نُجيد التصرُّف في الخطوة القادمة.

- القلق الأكبر من أهل الرأي، هذا يضعف موقفنا عندهم!

- سنحاول تبرير ما حدث بأي طريقةٍ مُتاحة أمامنا، حتى إعادة المال، أو تعويضه.

اندهش قنديل، وكرَّر قوله:

- تعويضه!

- أجل، من الضرائب.

استقبل قنديل رأيه بتردُّد، ولمْ ينبس. فتابع حارث:

- كما قُلت أنتَ، ستضطر لأخذ قرارات لم تُكن تُريدها، علاوة علىِ أنكَ من ذي قبل كنتَ تُفكِّر بعودة فرض الضرائب على تُجَّار البلدة من جديد، لكنكَ تأخرت في ذلك حتى لا يثوروا أكثر، والوضع الآن يختلف، فبات الأمر يسمح بذاك القرار لأننا في مُعضلة كبيرة، إن عائد الضرائب سيُعيننا حتى نسترجع مالنا، وبالتأكيد وقوف أهل البلدة بجانبنا سيكون جائزًا، ولن يتأخروا أو يغضبوا، أما بالنسبة إلى أهل الرأي فلن نخبرهم قبل إصدار هذا القرار حتى لا يرفضوا، ونكون في مأزقٍ وقتئذ، لكن إن ازداد مقتهم سنخبرهم أننا ظننا أنهم سيساندوننا في قرارنا ويتكاتفون معنا لنتخطى هذه العقبة جميعًا، وحينها لن يقولوا شيئًا، وذلك بالتأكيد إن فشل ما نفعله، وهذا ما لن يحدث قط.

قنديل يزداد حيرة، والأزمة تكبُر، والوقت لا يسمح. فاستطرد حارث مجددًا:

- ونحنُ نقدر على إعادة المال، كانت هفوة ووقعنا بها للأسف، ولن تتكرَّر.

ثم سريعًا استأنف قوله مُلحًّا، كأنها القشة الأخيرة لنجاتهم:

- أعدُكَ بذلك.

حتى أذعن إليه قنديل قائلًا بنبرةٍ مُضطربة:

- حسنًا، نفِّذ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر قرار عودة فرض الضرائب في الصباح التالي مباشرةً، وعلم بهِ الجميع.

واجه قنديل أزمة، ولَّد قراره تجاهها أزمة أخرى تفوقها حِدَّة، لأن هكذا اجتمع على أهل البلدة في الآونة الأخيرة الخداع والسرقة والمرض المميت والضرائب المُجحفة والوهم، والأهم من هؤلاء هو احتسابهم عبيدًا إذ رضخ التصنيف لانضمام صمتهم وخضوعهم الدائم لكلِّ ما فات، فبذلك هم مظلومون حدَّ المهانة، لا يظفرون بأبسطِ حقوقهم، فأصبحت عقولهم ونفوسهم مهيأة للثورةِ والخراب بعد أن انتشر خبر سرقة بيت المال في أرجاء البلدةِ كلها، بلا اكتراثٍ لأي ضررٍ ستؤول إليه أفعالهم.

الصغير والكبير في كل مكان يتناقلون الأحداث والأقاويل بسُخطٍ واضح، ازدادت شرارة الألم عندهم، غاضبين من الأزمات التي تلحق بهم تباعًا بلا فرصةٍ يلتقطون فيها أنفاسهم ويستوعبون تلك الصدمات، خائفين ومتوجسِّين مما قد يحدث أيضًا في الأيام القادمة، فقد سُرق مالهم، ونُهب ذهبهم بمختلف أشكاله، ومات الكثيرون منهم في ليلتين متتاليتين أفزعتا قلوبهم، حتى عاد لذاكرتهم حَولُ الوهن الذي مرَّ على البلدة، وما جرى فيه من بلاءٍ عظيم.

حول الوهن، كان عامًا كاملًا لا يمُكن أن يُمحى من ذاكرة هذه البلدة، ضعف وفقر وخداع ومصائب لا تُحصى، كل الأشياء والأماكن باهتة لا تدُل على وجود حياة بها، حتى الجمادات لم تسلم مما يحدث، وعلى سبيل المثال فإن تمثال العزيز تأثَّر بما يجري وتشقَّق وصار لونه داكنًا. فمن قديم الأزل كان قد تملَّك الشرّ تمامًا كثيرًا من الآباء، طغوا وفسدوا وتمادوا في خطاياهم، حتى راحت المصائب تنهال عليهم باستمرار، كسوطٍ يجلد ظهورهم بقسوة، ساد الكساد والركود في أعمالهم وأشغالهم لكثرة الفتن، وتوقَّفت أحوالهم عن الازدهار والتقدُّم، فقلَّت الأموال واندثرت حتى لم يستطع الرجال إعالة بيوتهم، زاد الغلاء وشحَّت المؤن، فامتلأت الشوارع بالشحَّاذين، أما بقية الناس فوصل بهم الجوع والظمأ والحاجة إلى أن اضطروا لشرب الماء العَكِر واصطياد الحيوانات التي لا يجوز أكلها كالقطط والكلاب، أيتعظون؟ لا، فقد عمل بعضٌ منهم على تجميع تلك الحيوانات من الطرق لكي يبيعها لغيرهِ بأبخس الأثمان من أجل ربح الزاد من الهواء، اختفت من عندهم معالم الفطرة الإنسانية تمامًا، وكانت العتمة هي السائدة في نفوسهم جميعًا آنذاك، علاوة على أن إيمانهم ويقينهم بصلاح الأوضاع تبدَّد وتلاشى، لتزداد هكذا عليهم المشقَّة واللعنات بأن انعدم نسلهم في هذا التوقيت، فلم تكُن النساء تحبل أبدًا، وإن حبلت إحداهن فتلد مولودًا حياته مُنتهية في رحمها، يُخرجون أطفالًا موتى لا يعيشون في هذه الأرض الجرداء مع هؤلاء المعبئين بالشرور ولو نهارًا واحدًا، حتى انقضَّ

على البلدة هاجس الفناء، واعتقدوا أن انتهاء نسلهم من هذه الدنيا بات وشيكًا، فظنوا بل تأكدوا أن الرب هجرهم هكذا، وغضب عليهم بعد أن تمادوا، فأذاقهم أشدَّ العذاب لكي يكفّوا عن ارتكاب الخطايا، ويحيدوا عن المسار الخطأ، ليُشاع ويُقال عنهم حينئذٍ إنها البلدة الظالمُ أهلها.

والآن بعدما جرى في الفترة الأخيرة، وتذكُّر الناس لحول الوهن، قالوا بخوفٍ شديدٍ يسري في عروقهم إن ما يتم الآن قد يكون بداية حول وهن جديد، وأن ما فات مجرد تمهيد لمصائب أكبر قد تُقابلهم في الأيام التالية، ليُضيف بعضهم على ما قيل إن الرب قد هجرهم من جديد، والهلاك قادم لا محالة، فعليهم مراجعة أنفسهم وتغيير الأوضاع إلى الأفضل، وعدم السكوت على الباطل، لكبح الضرر أكثر من ذلك، والحدّ من وطأة الأمر.

لكن كان هناك نبوءة تتوارثها الأجيال المتتابعة، وهي أنه إذا تكرَّر حول الوهن مرةً أخرى، فسيظهر هناك من يردعه، ويُساعد في زواله، وهو ما دعوه ببشير الصلاح، شخصٌ عليم، سوي وعادل، لا يحمل أية ضغينة تجاه أحدٍ في البلدة، وله القدرة على إزالة الغُمة ونزع الشر الشيطاني الخبيث من جذوره، فداوم الناس بتلقائية مُفرطة على ترديد عبارات مثل "متى سيظهر بشير الصلاح؟"، "هيا تعال يا هبة الرب لنا" كما زُعم لهم بالضبط، حتى لا تتكرر الكارثة ثانيةً.

الوضع مُذرٍ، وسوء الأحوال فاق قدرات تحمُّلهم، فعزموا في قرارة أنفسهم على الثورة تجاه قنديل، وتقديم الشكوى لعزله من العمودية، ثم ينتظرون قدوم المُخلّص الذي سيحمي البلدة ليكون هو بدلًا منه، فقرروا الذهاب إلى أهل الرأي وألا يتأخروا أكثر من ذلك، لقد رضخوا وصمتوا مرَّة، ولن يحدُث هذا مجددًا، فهم لديهم حقوق شرعية ومحددة، أي أن أعينهم هكذا ستكون قوية في مُجابهة عمدتهم بلا خوفٍ منه، يقينًا بأن أهل الرأي يعلمون جيدًا ما هو الدرب الصحيح المتوجب عليهم أن يحددوه للبلدة كي تسلكه، فسيكونون في صفِّهم، صف الضعفاء غير القادرين على الصمود أمام هذا الطاغية الذي لا يهتم بأحوالهم ولا يُقدِّر شؤونهم، وحينها لن يقدر أحد على أن يلومهم في شيءٍ قط، فلم يعد بوسعهم الانتظار أكثر من ذلك، لكي لا يتفاقم الأمر ويسوء بمقدار أضعاف ما حدث حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذ بعض من رجال البلدة ميعادًا محددًا لمقابلة أهل الرأي في مجلسهم، اجتمعوا سويًا ثم ذهبوا إليهم محتقنين وهم مُحمَّلين بضغينةٍ تجاه العمدة قنديل، لكي يبوحوا هناك بكلِّ ما في داخلهم ويُقدموا طلباتهم المرجوَّة من أجل خلاص البلدة من هذه المحنة، كانوا عشرة رجال، يتقدَّمهم الليثي تاجر الفُخَّار وريان الدلال، بالإضافة إلى سيف البوظي وآخرين.

يجلس أهل الرأي بجوار بعضهم البعض في وقارٍ معتاد، وعلى يمينهم ويسارهم يتراص الرجال على مقاعدهم في هدوءٍ واحترامٍ موجَّهٍ إليهم، وَسَط جوٍ تملأهُ رائحة البخور الزكية النابعة من الصحن الفخاري الموجود بالمنتصف.

بعد الترحاب من الشيخ عثمان كبير أهل الرأي، استطرد جعفر العمدة السابق:

- هيا قدِّموا شكواكم، وقولوا ما عندكم.

فمن دون مقدمات غير مهمة، بدأ الليثي حديثهُ بمرارة:

- البداية كانت حينما طلّ علينا العمدة بصندوق عين الدهب، الأكذوبة التي اختفت فجأة بما وُضِع داخلها ولم يحدُث شيء مما قيل لنا عنها، فقط خسرنا ذهبنا وتضررنا جميعًا منها، فكان رد فعل العمدة آنذاك هو أن أوقف الضرائب لكي نتراضى ونصمت، لكن إلى متى ذلك؟

ثم تمتم سيف بقلق:

- ليت ما كان لم يَكُن، ها قد عادت الضرائب مرة أخرى.

ليقول له بشير القاضي السابق وهو يُشيح وجهه صوب عنتر:

- لقد أخبرنا شيخ التُجَّار بأمر الضرائب، قنديل يظن أنه هكذا قد وضعنا أمام الأمر الواقع فلن نتحدث معه، لكن لا، كل شيء سنضع له حدًا. أكملوا.

فأردف ريان وهو يهزّ رأسه:

- حسنًا، تناسينا هذا والتزمنا الصمت حين أن قُتل ابنه، وقررنا الالتزام بقراراته، وقدَّرنا غضب أب مكلوم يتضرَّع لأخذ حق دمائه التي سالت هباءً، لكنه حقًا قد تمادى كثيرًا في أفعاله.

ليُعقِّب على قوله رجل آخر:

- بعد ذلك مررنا بالضباب الذي قتل الكثيرين من أقاربنا وأصدقائنا، ألم نتساءل ما سبب ذلك الضباب؟ ولمَ جاء الآن؟ إنه عقاب لما يجري في هذه البلدة من خداع وتدليس لكي نتعظ!

ثم أضاف ثانٍ وهو يرتجف غاضبًا:

- بالضبط، فقد تلت هذه الجائحة سرقة بيت المال بكل سهولة، بسبب تخاذل ورعونة رجال العمدة، لتقع البلدة هكذا في ضائقة سنتضرر من تبعاتها في الأيام المقبلة، رغم عودة العمدة لفرض الضرائب علينا مجددًا، ولم يَفِ بعهدهِ معنا، وهذا من أجل أن يواري فشله الذريع في المحافظة على مالنا، ونهبه من بين يديه من دون أن يفعل شيئًا!

ليعلو صوت ثالث يتخللهُ الخوف:

- إنها بداية حول وهن جديد، أنقذونا، لا نريد أن يحدُث ما يجلب لنا الخزي والمعرَّة.

ساد الصمت للحظاتٍ ثقيلة، وملأ الوجوم أرجاء المكان بعد أن نَصَب الرجال منصَّات الإعدام فيه، وصوت كل منهم قادر على أن يهزّ أعتى الجبال، ثم علّقوا مشانقهم بانتظار حُكم القاضي المتمثل في أهل الرأي، وقد خلعوا عن أجسادهم وعقولهم كل سوءٍ وفسقٍ يجعلهم يُتهَمون ولا يَتهِمون.

راح رجال البلدة يتفرَّسون في ترقبٍ شديدٍ ملامح أهل الرأي، الذين أخذوا كل وقتهم للتفكير جيدًا في كلِّ ما قيل، منتظرين حديثهم بفارغ الصبر. ذلك قبل أن يَهدر عنتر شيخ التجار بصوتهِ مُتبرِّمًا ويُنهي جمود هذا الصمت:

- جميع ما قيل نعلمه جيدًا، وفي حُسباننا، عليكم أن تعلموا أننا لسنا نائمين على آذاننا.

فأكمل رزق كبير الأطباء:

- ومَن قال إننا في بداية حول وهن جديد؟ حول الوهن جرى بسبب فساد أهل البلدة كلها، وليس حاكمها فقط، أيعني ما تقولونه الآن أنكم أيضًا فاسدون ونواياكم خبيثة؟

انغلقت أشداقهم ولم يتفوَّهوا ببنتِ شفة، فتابع عثمان حكيمهم بنبرتهِ الرخيمة:

- كل شيءٍ له وقت محدد، ونحن نُقدِّر جيدًا خوفكم هذا، ونتفق معه بالتأكيد، لكن وقت الحساب ليس الآن، يجب أن ينتهي العمدة من جميع أشغاله قبل أن نجلس معه ونحاسبه، ليَكُن الوضع عادلًا لا تشوبهُ شائبة، وأنا أرى أن ذلك أفضل.

ثم أضاف جعفر:

- سوف ننتظر بعد انقضاء يوم القصاص، وهو ليس بالبعيد.

فعاد عثمان ليقول:

- هو الآن في حالة يُرثى لها بعد فَقد ابنه، بالإضافة لجميع ما ذكرتموه، الذين هم بالنسبة إلينا تجاوزات، ولكننا قد عاهدناه أن نظل بجواره إلى أن يثأر لولده، وإن كان هو قد أخلف عهده معنا، فنحن بالتأكيد لن نفعل ذلك معه.

فاندفع سيف حينئذٍ مُحتدمًا على غير عادته:

- هذا الانتظار سيحلّ بعواقبهِ على رؤوسنا نحن!

رمقهُ عنتر بغضب، وعنَّفهُ بشدة، فتمالك سيف نفسه ثم قدَّم الاعتذار وأغلق فمه تمامًا. بعد ذلك نهض عثمان من مجلسه حثيثًا، ثم تنهَّد برويَّة قبل أن يقول كلمته الأخيرة:

- حسنًا، ستكون هناك جلسة مع قنديل في القريب العاجل، وسيتم ما تأملونه، وهذا ما كنا نُفكر به أيضًا، لكن هناك أعرافًا وعادات تعلّمناها من أجدادنا، ويجب علينا أن نتَّبعها ونسير على خُطاها.

ثم أشار بيدهِ قائلًا إليهم، وعلى مُحيَّاه ابتسامة صغيرة:

- تفضلوا الآن، ولا تقلقوا.

نهض الرجال جميعًا في آنٍ واحد، ثم رحلوا بعد تتمة ما كانوا يُريدونه، وتحوُّل احتجاجهم وتردُّدهم إلى موافقة واستجابة، ليظل أهل الرأي كما هم في مجلسهم ولم يُحرِّكوا ساكنًا. جلس عثمان مرةً أخرى في مكانهِ ليستريح، ثم أقبسه بشير قدحًا من الماء، في حين قال رزق إليهم:

- للمرة الثانية يتصرف من دون إذننا! فلا ننس أيضًا أنه خالف عهده وتجاوز حدوده من قبل، حينما عمل مع تاجر من خارج البلدة ولم يرجع إلينا، ويبدو كذلك أنه كان يعمل كثيرًا من دون إذننا! وهذا جرمٌ كبير.

فعقَّب جعفر على قوله، وهو يُملِّس على شاربه الكثّ المعقوف لأعلى:

- تغاضينا عن هذه النقطة حينما حدَّثنا هو وحارث أخر مرة، على أمل أن نعود إليها في محاسبتهِ بعد يوم القصاص، هكذا هي أخطاؤه تزداد أكثر.

فردَّ عليهما عثمان وقد تقدَّح الشرر من مقلتيه:

- لن نسمح بمهازلٍ أخرى بعد الآن، فقط علينا الانتظار قليلًا.

*∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المستعمرة..

هرعت فُلة عائدة من البلدة لتتسرَّب بخفَّة داخل المبنى من الباب الكبير المفتوح على اتساعه، تتبعها أشعة شمس الظهيرة الحارقة التي تُنير جنبات المكان، ثم سارت برشاقتها سريعًا نحو المكتب الذي يجلس عليه ضوي بالمنتصف في سيطرةٍ وعلوٍّ كان يأملهما مرارًا وتكرارًا، ولمّا سنحت لهُ الفرصة الآن انقضَّ عليها مُمسكًا بها بشراسةٍ بأنيابهِ قبل أيديه.

رحَّب بها باسم الثغر، فظلت واقفة أمامه تلهث حتى أشار إليها بعينيهِ فجلست تلقائيًا بأريحية، لكن سرعان ما لاحت على وجهها علامات تعجُّب وسخرية مما يقوم به ضوي معها ومع الآخرين، استنبط هو جيدًا ما ترمي إليه قسماتها لكنه ضحك من زاوية فمه، ثم استهل حديثهُ معها سائلًا:

- ماذا حدث هناك؟ أخرجي ما بجعبتكِ.

تنهَّدت فُلة، ثم أجابت بصوتها الناعم:

- البلدة غير مستقرة وفي حالة من الانفلات، مقلوبة رأسًا على عقب، الجميع ضد العمدة، حتى وصل بهم الحال إلى أن قدَّموا شكوى لعزله، والتخلُّص منه.

- وبالنسبة إلى يوم القصاص الذي كانوا يزعمون به؟

- كان قد اقترب ميعاده، لكن ما حدث مؤخرًا أجَّل كل شيء هناك.

قهقه ضوي ساخرًا وهو يقول:

- أمرٌ طبيعيّ، إذًا عليكِ الانصراف الآن.

فأومأت فُلة برأسها ثم نهضت من مكانها وانسَّلت خارج المستعمرة، ورحلت، تاركة ضوي ينكب تائهًا على تفكيره وهو يُردد متسائلًا في ذاته بصوتٍ مسموع:

- ما الخطوة القادمة؟ كيف سأُعيد الراعي؟!

ثم تاه في تفكيرٍ عميقٍ ليستطيع أن يُخطط جيدًا، فهو المسئول الأول ومن لديه الكلمة العُليا هنا، سموّ الكرسي وحُكم المستعمرة يكادان أن يصلا به حدّ الجنون، ضوي منذ اللحظة الأولى وحتى الآن وهو يستغل الموقف أفضل استغلال، وذلك ما يبدو جليًا في جلوسه على المكتب شامخ الرأس، ثاقب العينين، يُبرز لمن أمامه جسده المفتول بالعضلات ليُدلل على تمام قوته وسيطرته التامة، فشهوة السلطة والتحكُّم في الجميع لا تُقاوَم ولا يُمكن لأحدٍ ردعها.

لكنه بعد لحظات معدودات أردف مجددًا وهو يقول في تردُّد:

- يعود الراعي، وتعود مكانتي إلى الوراء ثانيةً!

عاد ضوي مرة أخرى إلى التفكير فيما بزغ داخله منذ أيام ولم يكف عن مراودته، حاول كثيرًا قدر الإمكان أن يتحاشى هذه الفكرة، وكبحها، إلا أنه لم يستطع السيطرة عليها فهزمته، ورجعت إليه لتشغل باله من جديد. أسند ظهره إلى الكرسي، ثم رفع قدميه الاثنتين على المكتب، وهو يتحدَّث في قرارة نفسه:

"الآن أملكُ المال، والكلمة. أنا هنا الآمر الناهي، أنا مَن أضعفت حال البلدة وجعلت قواها تخور هكذا، ولم يقدر غيري على فعل ذلك، رغم سهولة إتمامه! الآن أنا القوة، أنا مَن يخشاه ويهابه كل هؤلاء الموجودين بالمستعمرة."

وقع ضوي بين أفكاره التي زرعتها الخلايا الشيطانية الماكثة منذ قديم الأزل في ثنايا عقله، فنبت داخله شعورًا لا إراديًا وأفكارًا أخرى جعلته في حيرةٍ من أمره، ما بين تنفيذه لمخططه الذي وضعه من أجل عودة الأمور إلى مجراها، أم النظر إلى ما هو قادم وإعلاء شأنه أكثر وأكثر مما كان عليه من ذي قبل.

"الوضع حاليًا عظيمٌ بالنسبةِ لي، فلمَ لا أظل كما أنا الآن المُتحكِّم في المستعمرة؟ لمَ لا أعلو في نظر نفسي أولًا قبل هؤلاء المراقبين والحراس والتُجَّار؟ هذه فرصة لن تتكرر ثانيةً، فرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة، هذا وضع لم أكُن أحلم بهِ من قبل! أنا أحيط علمًا بكل صغيرة وكبيرة تجري هنا، الراعي ذاته كان يعتمد عليّ في كل شيء، فأنا وحدي قادر على تسيير المستعمرة مثلما كانت، بل أفضل."

نهض من على كرسيه هائمًا، مُستسلمًا تمامًا للصوت الذي يجول داخله، وهو يسير مُبتسمًا بخبثٍ شيطانيّ:

"أجل، من الأفضل أن آخذ مال البلدة كله لي، ويظل بحوزتي وأتصرف به كما أشاء، عليّ أن أُكمل في السيطرة على هذه المستعمرة، ولا أعمل على عودة الراعي من جديد، هذا قدره ومصيره المحتوم بالموت، فمَن أنا لأتدخل في تغيير القدر! اعذرِني، سأشتاقِ إليكَ يا مُعلمي الأول، لا تقلق، سأنفرد بهذا الصرح الذي أنشأته بيديكَ، بعد التخلُّص منك، وسأبذل قصارى جهدي لجعله أفضل وأفضل، ألم تُخبرني من قبل أن العمر تُتاح فيه ضربة قاضية واحدة يجب علينا أن نستغلها لكي نقضي على خصومنا؟ أشكرك كثيرًا، فها أنا الآن أستمع إلى حديثكَ لأضرب ضربتي، ثم أنتصر."

لكن الابتسامة بدأت تزولُ من على وجهه تدريجيًا:

"لا، لا يا ضوي. كفى تَرَّهات، إن تركت البلدة وشأنها فلن يتركونني هم، يجب أيضًا أن أضع نصب عينيّ أنهم لن يصمتوا ولن يتناسوا ما حدث، وحتمًا سيعلمون ويكتشفون الأمر، عاجلًا أم آجلًا، أنا أعرف قنديل وحارث جيدًا، أعرف كيف سيُفكران، وكيف سأتلاشى ردود أفعالهما دون خسائر إن حدث ما لا آمله. عُد إلى صوابك، ولننتظر ونرى."

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلٌ مقمرٌ يُنير ضياؤه شرفة قنديل، الذي سيطر طقس الليل البارد على شاطئ الحيرة القابع بين جنبات عقله، حينما قرر أن يتجوَّل فيه بضع دقائق بُغية ترتيب وهندمة أفكاره وأوراقه بعد أن تناثرت وتكاثرت عليه، فيرتشف من التساؤلات النابعة من مداده فيثمل ولا يستطيع الإجابة على أيٍ منها.

ينظر إلى السماء بعينين أنهكهما التفكير فيما يفرضه عليهما العالم من عقباتٍ شاقة، وطرقٍ ملتوية ومنحنية يتعسَّر السير من خلالها، ملّ وسأم من الوضع الحالي كثيرًا، بلغ الضجر داخله عنان روحه، وودَّ لو انتهى من حولهِ الآن كل شيءٍ بعبثهِ وفوضته، وحاز على هدنة يستريح بها من هذه الضوضاء المرهقة، ويتفرَّغ لذاته قليلًا، ويهنأ بما تبقى من عمره هو وزوجته التي يُحبها منذ عقودٍ حبًا جمًا، فهو يعلم بل إنه متأكد من أن ما مرّ لن يعود ثانيةً، لكن من الممكن تعويضه بما يليق فيما هو قادم.

يبدو مكدودًا للغاية من فرط التعب، فراح جفناه يغفلان ببطءٍ شديد وهو لا يزال واقفًا أمام سور الشرفة الذي يتكئ عليه بذراعيه الاثنين، في الآن الذي همس لذاته بصوتٍ خفيض:

- فراقك يا غيث أحنى ظهري، لا أستطيع أن أُسامح نفسي لأنني المتسبب في موتك! سآخذ بثأركَ لتستريح في نومكَ الآن، علَّك تسامحني يا ولدي.

تحررت الدموع من عينيه، وهو يتأوَّه بحرارة:

- لقد قصَّرتُ في حقك كثيرًا، وأهملتُكَ، ولم أجعلك تشعر بحنان الأب المطلوب طوال الوقت، انشغلت عنك كثيرًا، ولم أفق إلا بعد فوات الأوان، وحاليًا أعلم جيدًا أنك الرجل الوحيد الذي كان سيخفف من عليّ هذه الأحمال الرابضة على عنقي، وأحيطك علمًا بأنني كم آمل عودتك لتعويضك عما فات، لأشبع من وجودك جواري، وأتكئ عليك، لكن ما نأمله يا ولدي لا يحدث، وللأسف الشديد لن يتم، فلم يعُد بوسعي الحين سوى أن أرجو أن ترقد مرتاحًا في قبرك، وأنت لست غاضبًا من أبيك الذي يُحبك.

كفكف قنديل دمعه، وتنهَّد بروية ليسترّد قوته ويتمالك ذاته قليلًا، بعد ذلك استدار في مكانه وذهب نحو المقاعد المصفوفة في فناء الشرفة، ثم جلس. فلم تمُر بضع دقائق أثناء جلوسه حتى قال في قرارة نفسه متسائلًا:

«كُن صريحًا مع نفسك على الأقل، إن أخفيت ذلك عن الجميع، فبداخلك كل شيءٍ مكشوفٌ بوضوح. الذهب الذي خدعت أهل البلدة فيه، وإهمالك في أغلب حقوقهم،

والضرائب الباهظة التي تفرضها عليهم، والمعاملة السيئة من جنودك نحوهم، أليست هي السبب في هذا الموت والخراب والمصائب التي تنهال عليك تباعًا بلا رحمة!! حقًا لقد أذنبت وقصَّرت فعُوقبت على أفعالك يا قنديل.»

حينئذ فُتح باب الشرفة وانسلت منه سوزان بهدوئها المعتاد، تخطو بوهنٍ بيِّنٍ عليها، حتى جاءت وجلست بجوار زوجها في تؤدة، فربتت على كتفه حينما وجدته ساهمًا تائهًا عما حوله، ثم قالت بنبرةٍ وديعة تُلطِّف بها من حالته، بعد أن وضعت راحة يدها على وجهه:

- ستكون جميع الأمور على ما يُرام يا حبيبي.

فنظر لها قنديل، ورد:

- يجب أن أراجع نفسي جيدًا، يجب عليّ إصلاح ما أفسدته.

- أحسنت صوابًا يا عمدة، نفِّذ وأنا أول الداعمين لكَ.

- فقط نأخذ بثأر ولدنا، ويمر يوم القصاص بسلام، ثم مباشرةً سأعمل على الانتهاء من كل هذه المشكلات، لأرتاح.

رمقته سوزان بحزنٍ بعد أن ذُكر فقيدها، فتابع سريعًا:

- الآن فليهدأ بالكِ ويسكن ألمكِ، أحضرت القاتلين وسنقتص منهما كما وعدتكِ، فدماء ولدنا لم تذهب هباءً.

ثم اقترب منها وعانقها بحرارةٍ شديدة، بينما تكوَّرت الدموع في عينها قائلة له:

- الآن فقط نستطيع ذكر اسمه دون ألم، كنت أعلم أنك لن تترك حقه.

- أشتاق إليه كثيرًا، آسفٌ لكِ ولهُ يا حبيبتي.

- ليس وحدُكَ، ولا تتأسف، من الأفضل أن نتمنى له أن يرقد في سلام.

مرَّ الوقت حثيثًا بينهما، يتبادلان فيه الحديث بأريحيةٍ تامة سواء فيما يجول داخل قنديل أو ما تشعر به سوزان. بعد ذلك نهضت هي وتركته لكي تخلُد إلى النوم وتُريح جسدها من عناء اليوم، بينما خرج قنديل من غرفتهما بعدما ودَّعها قاصدًا مجلسه في الأسفل، ثم سريعًا أرسل أحد العساكر من أجل إحضار حارث للحديث معه في بعض الأمور المهمة.

لم ينقضِ سوى سويعةٌ من الوقت حتى قَبِل وحضر حارث إليه، حيَّاه ثم جلس على المقعد المجاور له، فاستطرد قنديل بحزم:

- لقد جاء الوقت لإنهاء تلك الليلة، ثم البدء في إصلاح كل شيء.

فأومأ حارث مستجيبًا:

- حسنًا، ونحن مستعدون.

- نسترد جميع حقوقنا، ثم إعادة جميع الأوضاع إلى طبيعتها، وليست لما كانت عليه من ذي قبل.

- كما تأمُر يا عمدة.

- البطش سيطول كل من أخطأ، واللين لمن أصاب وأحسن، حتى لا يكون منصبي هشًّا، فقط عجِّل من يوم القصاص أولًا.

- المقصلة انتهت، والباحة جُهِّزت، ولا ينقص سوى أمرك.

فتنهَّد قنديل ملء صدره، قبل أن يرُد:

- جيدٌ. سنذهب غدًا إلى أهل الرأي، طلبوا لقاءنا، وأعتقد أن ذلك من أجل النظر فيما حدث لبيت المال، سنتناقش معهم فيما يريدونه، ثم سنخبرهم أن القصاص في اليوم الذي يليه.

- وبالنسبة إلى هؤلاء الرُعاع الذين ذهبوا إليهم وقدّموا شكواهم؟

- سنعمل على إرضائهم، لا تقلق.

هزَّ حارث رأسه متذمرًا وهو يحك ذقنه بتأنٍ، ثم أردف:

- حسنًا، وحتى لا ننس، فلقد انتهيتُ من استجواب هؤلاء الأعداء الذين وجدناهم عند بيت المال مصابين.

فعجَّل قنديل حديثه منتبهًا:

- وإلام وصلت؟

- كما توقعنا بالضبط، من أتباع المستعمرة، جماعة مستأجرون حضروا من أجل الراعي الذي بحوزتنا.

بزغ الغضب من أعين قنديل جليًا، وامتعض، ثم قال:

- سيُقضى عليه بقسوةٍ ومهانة، على مرأى أهالي البلدة، ثم ستُحرق جثته شأنه شأن جميع الخُطاة والمذنبين.

ثم ثوانٍ معدودات وأضاف وهو يُشير إلى حارث بسبابته:

- لكن احذر، لن نُخبر أهل الرأي بذلك، حتى لا يزداد حنقهم أكثر، سنراوغ في هذا الأمر قدر المستطاع حتى نُنهيه تمامًا، وتكُن تصرفاتنا أمامهم لائقة بمناصبنا تلك.

- بالطبع، أتفق معكَ في هذا القرار. أما فيما يخُص ما بعد يوم القصاص فأنا أُفكِّر في أمرٍ قد يُنهي هذه العداوة مع المستعمرة، لكن ليس آنه الآن، بعد أن ينقضي القصاص فقط سأخبرك بكل شيء.

- حسنًا، كما تشاء.

وبإشارة يد وهزَّة رأس متباطئة، تابع مجددًا:

- عليك الرحيل الآن.

استجاب حارث، ثم نهض من مكانه وغادر تاركًا قنديل، الذي بلغ عنده الوجوم مبلغه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهيرة اليوم التالي..

يلتزم قنديل الصمت في مجلسه، بعد أن تملَّكهُ التوجُّس تمامًا لجهله غرض هذا اللقاء حتى الآن رغم تكهُّناته له من قبل، ومن ثم للمقابلة المريبة التي لاقاها هو وحارث حينما حضرا منذ قليل، فجعل يُمرر نظره حاليًا بترقُّبٍ إلى مساعده الذي يجلس بجواره، ثم نحو أعضاء أهل الرأي جميعًا يتأمل وجوههم منتظرًا مَن منهم سيبدأ الحديث معه، لينكشف ما يُضمر وراءهم. حتى تناهى إلى سمعه قول رزق كبير الأطباء؛ فانتبه إليه:

- ما الخطوات التي اتخذتها في أمر بيت المال حتى الآن يا عمدة؟

بدأ رزق المناقشة مباشرةً دون مقدمات، فتنهَّد قنديل، ثم تأهَّب للرد عليه قائلًا:

- الحالة المالية للبلدة ستكون على ما يُرام قريبًا، لقد أخطأنا جميعًا، ويجب علينا نحن تحمُّل الكثير من عقبات خطئنا هذا، فلذلك خصصتُ نسبةً محددةً من مالي الخاص أنا وحارث والعساكر ثم أضفناها إلى بيت المال، ولأن العجز كبير للغاية فكنا نحتاج إلى مساعدة الأهالي معنا أيضًا، فقررنا مضطرين عودة فرض الضرائب عليهم وعلينا كذلك من جديد، في محاولة لاتزان الكفّة التي مالت، وإصلاح ما تلف، عسى أن تنتهي تلك الأزمة قريبًا، ولم يُكن هناك متسع من الوقت للعودة إلى حضراتكم في هذا القرار، ولكنني أعلم أنكم تقدّرون ما حدث بالطبع.

أومأ بشير برأسه مُتعجبًا، وهو يتساءل:

- في محاولتك لإصلاح هذا الخطأ، تُذكّرنا بخطأ قديم لم تُصلحه؟

وما كاد يفرغ من قوله، حتى أضاف عثمان هو الآخر:

- وألم تعلم مَن هم المتسببون فيما حدث؟

حينئذ جاء دور حارث للحديث وتوضيح الأمور، فأردف:

- كلا، لم نتوصَّل إليهم حتى الآن، ومَن قبضنا عليهم يرفضون البوح بأية معلومات، لكننا لن نتركهم حتى يتكلَّموا، ويخبرونا بما نريد، وذلك سيكون في القريب العاجل، فلا تقلقوا.

ثم عقَّب قنديل:

- أعدكم بإصلاح كل الأخطاء التي جرت، وتوضيح كل شيءٍ للجميع، لكن هذا بعد مرور يوم القصاص، بعد أن أكون قد تخلَّصت من هذا العائق الجاثم أعلى صدري، لذلك سنُعجّل به ونقيمه في الغد وكفى تأجيلًا حتى الآن.

أطبق السكوت على الجميع حينئذ، فتابع قنديل سريعًا لينتهي بما في جعبته:

- ولكن كل ما أريده منكم هو إتاحة الفرصة فقط، لآخذ كل مساحتي في تصحيح المسار، وجعل جميع الأوضاع مستقرة.

طفق أهل الرأي ينظرون بريبةٍ إلى بعضهم البعض قليلًا، يتشاورون حيال ما قيل بأعينهم، في حين أن قنديل وحارث ينتظران ردَّهم الأخير بنفاد صبر. فبعد ذلك بلحظاتٍ لم تطل استطرد عنتر موضحًا إليهما:

- عليكما أن تعلما أننا كنا نريد أن يكون موعد هذه الجلسة بعد يوم القصاص لنتناقش في كل الأمور مرة واحدة، ولنضع حدًا لكل ما يُثار الآن وننتهي من تلك الضجة، لكن واقعة بيت المال هي من اضطرتنا للتعجيل بهذه الجلسة، قبل تكرارها ثانيةً، وأخيرًا.

رمقهُ قنديل مُرتابًا وهو يَزدرد ريقه قَلِقًا، ثم ثوانٍ معدودات حتى ردَّ عليه بنبرةٍ مُتباطئة قليلًا:

- كما أخبرتكم فإن كل الأمور سيتم إصلاحها وتصحيحها في أقرب وقتٍ ممكن، وجميع الحقوق ستُرَد لأصحابها، وما أقوله يستأهل الانتظار منكم، لذلك أخبرتكم بإقامة يوم القصاص غدًا لعدم إضاعة وقتٍ آخرَ، ثم بعد ذلك سترون بأنفسكم كل شيء.

لم يمر مُتسع من الوقت حتى ظهرت علامات الإيجاب جليةً على وجوه أهل الرأي، بعد أن رأوا جميعهم في قرارة أنفسهم أنهم سيُعيدون هذه الجلسة قريبًا لا محالة، فلا يوجد مانع من انتظاره وإقامته لليوم المهم الذي يُعد له منذ وقت طويل، فردَّ عليه جعفر وهو يهز رأسه موافقًا:

- حسنًا، نحن لم نتعارض قط مع يوم القصاص، فسيُقام في الغد كما اتفقنا معكَ مُسبقًا، ثم سنرى جميعًا ماذا سيحدث بعد ذلك.

آنذاك هدأ بال قنديل حينًا، وسكن، ثم أمر حارث سريعًا بأن ينهض من مجلسه ويذهب لكي يأمر عساكره بأن ينفخوا في البوق منادين أهل البلدة حتى يعلموا بإقامة يوم القصاص في الغد، واجتماعهم جميعًا ظهرًا في المكان المحدد كما نَصَّت قراراته من قبل، ثم ذهابه أيضًا بعد ذلك إلى الباحة الكبرى، كي يُعد ويُتم كل شيء هناك، حتى تنقضي هذه الليلة أخيرًا، بعد أن قطعت في البلدة شوطًا كبيرًا للغاية، لتستطيع حينئذٍ الشمس الأسيرة في الظهور والتحرُّر من مخبئها كما تشاء، ليبدأ معها يوم ومرحلة جديدة في الحياة هنا، كما يأمل الجميع بالضبط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم القصاص..

- انتظر يا بُني، لا تذهب إلى هناك.

قالتها الأم خائفة، فردَّ عليها صغيرها مُعترضًا من أمام الباب:

- لقد كبرتَ، وإن لم أحضر فعساكر العمدة سيسجنونني.

ثم سريعًا خرج الولد الذي لا يزال في الحادية عشرة من عمرهِ غير آبهٍ إلى تحذير والدته وخشيتها عليه، مُلتحقًا بركب الشباب والكهول والشيوخ الذين ملأوا الطرقات متناثرين وهم يمضون صوب الباحة الكبرى في الجنوب على عجلٍ مُنفذين أوامر العمدة التي وُجِّهت إليهم.

أُقيمت ضجة كبيرة في البلدة إثر تزاحم هؤلاء الرجال في الطرق المؤدية لمكان القصاص، تكدَّسوا جميعهم في وضعٍ طبيعيٍّ للغاية، كلٍ منهم جاء تاركًا ما وراءه عازمًا الحضور هناك، سواءً برضاه التام أم لا. جميع العيون ترى، والآذان تسمع، ما عاد يوجد حاليًا ما هو خفي، فيسيرون جميعهم مُحمَّلين بشعورٍ مختلفٍ عن بعضهم البعض، هناك من يساوره الغضب بشدة وقد بلغ الصبر عنده الحلقوم من أفعال قنديل مؤخرًا، فيأمل تعديل الأحوال بعد ذلك اليوم -وهذه هي الغالبية الكبرى من الناس-، بالإضافة لمن هو ذاهب من أجل مشاهدة العمدة وهو يقتص بقسوةٍ من قاتلي ابنه فيملئون الجانب الوحشيّ الخفي بداخلهم، وغيرهم أيضًا مَن هم تاركون أعمالهم وأشغالهم مضطرين كي لا يُعاقبوا كما شاع وتردد. فازداد الغضب والحنق المتحكم فيهم جميعًا أكثر بسبب درجة الحرارة المرتفعة ولا تُطاق هذه الآونة، ثم من هذا الازدحام المزعج الذي وصفه بعضهم بيوم حساب الرب.

وصلوا جميعًا متتاليين إلى الباحة التي هي على أُهبة الاستعداد الآن، حيث بدأ العساكر مباشرةً بتنظيمهم في صفوفٍ متتابعة واحدًا تلو الآخر أمام المنصة المُشيدة في الأمام بالمنتصف بالضبط، حتى صار ذاك المكان الواسع ممتلئًا تمامًا كبئرٍ يطفو الماء على سطحه ولا ينقص لتدفُّقهِ سوى قطرةٍ واحدة، ذكور البلدة كلها حاضرة هنا باستثناء الرُضَّع فقط، مترقبين حضور عمدتهم حتى يتفرَّغوا من ذاك الحِمل أخيرًا.

سويعةٌ مرَّت من ثرثرتهم وضجيجهم، ثم جاء العساكر برجلين مُكبلين وَسَط حراسة شديدة للغاية، كانا يافث والراعي بعد أن بارت ملامحهما وتغيَّرت في السجن، فارتفعت همسات الرجال أكثر بنداءاتٍ مختلفة موجَّهة نحوهما. صعد العساكر بهما إلى المنصة ثم أخضعوهما أسفل المقصلة مباشرةً باستسلام تام منهما، فما عاد داخل جسديهما النحيفين الهالكين أي طاقة للمقاومة بعد مدةً ليستَ بالصغيرة من التعذيب ومنعهما من تناول الطعام مرَّت عليهما.

تحوَّلت عيون أهالي البلدة آنذاك إلى رجلٍ مفتول العضلات كالح الوجه، حيث يافث والراعي يرتميان على ركبتيهما أسفل نصل المقصلة الحاد ولا تزال الأصفاد تعانق أيديهما بحرارة. أجساد هزيلة ومتعبة تبرز عظامها إلى الخارج، وجهان شاحبان يحتويان على عيونٍ غائرةٍ إلى الداخل تُحيطها هالاتٍ سوداء. أما الراعي بالتحديد فتظهر آثار التعذيب على جسده بوضوح. لكن كليهما خائفان، متوجسان، مرتعدة قلوبهما، فهما شاعران بقُرب الهلاك لا محالة، عاجزَين عن الحركة، يتنفسان ببطءٍ وصعوبةٍ بالغة، لكن أهم ما يجول بخاطرهما الآن هو تذكُّر ما يقولانه من كلماتٍ قبل أن يلقيا حتفهما بعد قليل، ويودِّعا هذا العالم بأثره.

بعد ذلك حينما كانا ينظران إلى الرجال المجتمعين أمامهما لكي يشاهدوا أرواحهما وهي تزهق بكل تلذذ! من أجل الاستمتاع والتسليّ، يلعنونهم بأمهاتهم بعد أن يلعنا تلك البقعة على الأرض داخلهما، غير مصدقين ما تراه أعينهما بتاتًا، ولا يقدران على القيام بأكثر من ذلك.

ساد الصمت حينًا، بعد أن حضر العمدة وبرفقته حارث كالمعتاد، وسارا بين الناس حثِيثَين تجاه المنصة ولم يتوقفا إلا وهما منتصبين أمام يافث والراعي. يرمي قنديل كلا الرجلين من أسفله بنظراتٍ مهينة وهو مفترّ الثغر بخبثٍ جليّ في لحظة الانتقام تلك التي طالما حلم بها، وقد عزم في قرارة نفسه ألا يكترث للأقاويل الاعتراضية التي تتناهى إلى مسمعه من بعض الرجال الحاضرين أمامه الحين من آن لآخر عن تكرار حول الوهن وهجران الرب لهم.

انقضت دقائق معدودات، ثم حضر كل من أعضاء أهل الرأي، إذ لا يكتمل اليوم الموعود هذا إلا بوجودهم في مقدمة هؤلاء الرجال، ثم صعد عثمان بجوار العمدة ومساعده من أجل البدء والسماح الرسمي بالتنفيذ. ففي حين نظر قنديل إليه من أجل أخذ القرار النهائي وتعجيله بقضاء الأمر، ترامى إلى أذنه قول الراعي بنبرةٍ واهنة:

- إن مُت، فستواجه شرًا لن ينتهي.

التفت نحوه العمدة في جفاء، ثم رد عليه من زاوية فمه:

- أطبق فاهك أيها الحقير.

ثم تابع مجددًا بعد وهلة وهو ينظر إلى الرجل المسئول عن المقصلة ويتمتم ساخرًا وقد جَمُدت قسمات وجهه:

- ذلك الشر من عملكَ أنت.

ومع خروج أخر كلمة من بين شفتيه، أومأ برأسه إلى هذا الرجل بأن يترك النصل لكي يتحرر للأسفل ويُداعب رقبتيهما بطريقته الخاصة، في لحظةٍ ساد الصمت والترقُّب فيها أرجاء المكان، فجميعهم ينظرون ويراقبون هذا المشهد المنتظر، من أجل أن تسيل الدماء بغزارة، ويلقى هذان الرجلان خلاصهما، ابتغاء تحقيق خلاص البلدة هي الأخرى!

وإذ فجأةً، قبل الإتمام مباشرةً، صدرت جلبة عالية بين الصفوف الخلفية للحضور أجبرت مسئول المقصلة تلقائيًا على التوقُّف والنظر إلى العمدة من أجل أن يتابعا ما يجري هناك أولًا، فلا يصح أن تتم عملية القصاص وهناك قلة من الناس غير متابعة له، وذلك ما نهى عنه قنديل مسبقًا.

رمقوا جميعًا حينذاك الطريق الذي يُفتح في منتصف المكان بين الحاضرين على مصراعيه، كل الرجال تتنحى جانبًا في دهشةٍ وذهول، من أجل السماح للشخصين القادمين من بعيدٍ حتى يقتربا من المنصةِ أكثر، رجل يرتدي رداءً قاتم السواد ويلتحف على رأسه غطاءً مثله كذلك، يسير وهو متكئ على عصا ويظهر للعامة

بظهره المحنيّ وعوده الذي شاب، ومن جواره سيدة عجوز تشبه حالته الخاملة بالضبط، لا يختلفان كثيرًا عن بعضهما.

أطرق قنديل وحارث صامتين متفاجئين مما رأياه، واتسعت أعينهما حتى كادت أن تغادر محاجرها بعيدًا وقد مُلئت أشداقهما تعجُّبًا وريبة غير مصدقين بتاتًا. ثم من بين هذا السكوت الطاغي على الجميع، أردف عثمان كلماتٍ صادمة:

- جاد، رجل الكهف!

ترددت في أذن قنديل الذي عقَّب عليه مبهوتًا بصوتٍ خفيض:

- وسندس، عرَّافة الضوم!

جاد هيئته غير مألوفة بالنسبة للكثير من الموجودين، على عكس سُندس، فقط يُعرف عنه أنه رجُل الكهف الحكيم. رجلٌ غامض، وجهه كثيف التجاعيد فهو يابس العمر، جمع خلال حياته علومًا عدة وتعلم الكثير ومرَّ عليه الأكثر حتى اكتفى من ذاك العالم بأثره، فانعزل في كهفٍ أعلى جبلٍ يبعُد عن البلدة بأميالٍ منذ عقدين، أكمل حياته هناك وهو يقتات ويرتوي بما يحضره له أحد رعاة الغنم الذين يعتلون الجبل بين الفينة والأخرى، بالإضافة إلى ما يأخذه من أشجار الفاكهة القريبة منه. عَلَت الأقاويل حولهُ أنه الرجل المبارك الرزين، الذي حينما كان في البلدة قبل أن يهجرها اشتُهر عنه إجادته لعلم الخيمياء، فقد كان يصنع لمن يطلب منه ترياقًا معالجًا للأمراض أو مواد وسوائل تساعدهم في حل بعض المشكلات الحياتية أو لمجرد التيمُّن بها في صلاح أحوالهم، غير إبداء آرائه ومعتقداته الفلسفية في حل الصراعات والتيسير بين عامة الناس بسب تسليمهم التام لعلمهِ الوفير. ولكن القول الذي ساد عنه بالتحديد في السنوات الأخيرة أنه أخر نسل المخلوقات الأولى على وجه الأرض، يُعتقد أن الآلهة وُجِدت أولاً ثم وُجِد البشر، ثم وُجِد الجَمع الآخر بينهما وهم أنصاف الآلهة، بشر غير عاديين لديهم بعض الصفات الخاصة والمميزة لهم عن الباقين تمامًا، هكذا اعتقد البشر قديمًا، فما كان يفعله لهم ومعهم غير ما تردد عنه كفيلاً بإعلاء شأنه وسيرته هكذا، لكن ذلك لم يدع أحدًا منهم يتجرَّأ ويذهب بالقرب من مكانه في الجبل بعد رحيله، فاختفت عنه المعلومات مؤخرًا حتى ظن البعض منهم أنه مات بالأعلى وتحللت جثته فأكلتها الحيوانات الشرسة وتلاشى وجوده، أو أنه نبيّ محمل بنبوءاتٍ اختفى قليلًا ثم سينزل عليهم بها في الآن المناسب من أجل مهمةٍ محددة، فلم يتذكروه ثانيةً إلا بعد ظهوره المفاجئ حاليًا.

أحاط قنديل قلقٌ مشوبٌ بزمجرةٍ هائلة بسبب تعطيل هذا الحدث المهم والمُرتقب، ولا سيما التريُّث لمعرفة ما ينجلي وراء هذين الاثنين. فعلى وجه السرعة استطرد حارث متسائلًا بعد أن صعد كلاهما مباشرةً إلى المنصة:

- سندس، أين كنتِ؟ قيل إنكِ اختفيتِ.

- ستعرفون كل شيء، بعد أن يتوقَّف ما يحدُث الآن.

قالتها سندس، ثم بعدها بهنيهةٍ تابع جاد بصوتهِ الخافت وهو ينظر إلى قنديل:

- أنتم على وشك الوقوع في الخطأ، ليس هذان مَن قتلا ولدك، هناك شر أكبر من ذلك بكثير، وهو المتسبب فيما يحدُث لكم جميعًا.

ابتلع قنديل ريقه في رهبةٍ وحيرةٍ من أمره، في حين أكمل جاد مرةً أخرى بعد أن سعل بصوتٍ مرتفع:

- في بلدتكم نبتة خبيثة، يجب أن تقتلعوها من جذورها.

ترددت تلك الكلمات وانتشرت بين الحاضرين كالنار في الهشيم، فاندهشوا جميعًا وتملَّكتهم حالة من الذُعر أرهبتهم بشدة، ثم ما لبثوا حتى صاح بعضهم قائلًا إن جاد هو بشير الصلاح المنتظر، وهو المُخلِّص من هذه المحنة، لذلك ظهر الآن.

لم ينتبه قنديل لما تم حوله، مستغرقًا في التفكير مليًا فيما سيفعله الحين، هل سيطلق سراح الرجلين أسفل المقصلة بعد كل هذه المدة! أم يقتلهما ويتجاهل جاد وسندس! الأمر يسودهُ التِيه والحيرة، ويحتمل خيارات شتى نتائجها متضاربة. لكنه سرعان ما قطع ذلك التردُّد واستقر أخيرًا على التسليم لهذين الأخيرين، بشكلٍ جزئيٍّ فقط، فقد قرر أن يُطلق صراح يافث بعد تبرئته من تهمة القتل وإبعاده من أسفل المقصلة، بعد أن انهار تمامًا وأجهش في البكاء غير مصدق ما يحدث، شأنه شأن الجميع، ليكون جاد وسندس هما برقية العفو التي انتشلته من بيد يديّ الموت في ساحة الإعدام.

أما بالنسبة إلى الراعي الذي ساد البَلَه مُحيَّاه، فلم يتم تركه مثلما حدث مع يافث، فالعداء معه كان ممتدًا وأعقد من أن ينتهي ويُنسى بكلمة أو تدخُّل أحد أيًا كان هو. فقد أمر قنديل كل من في الباحة بالانتظار قليلًا، ثم قال لهم وهو يُشير بسبابته صوب الراعي بنبرةٍ عالية كي ينتبهوا:

- وهذا أيضًا شرٌ، يجب أن نتخلَّص منه.

وما لبث أن أعطى الإذن تلقائيًا إلى مسئول المقصلة من أجل التنفيذ، وإتمام ذاك اليوم غير المألوف على البلدة بما يحدث فيه حتى الآن، بفك لجام هذا النصل الحاد الذي يشتاق لإراقة الدماء، لكي يتجه صوب رقبة الراعي لكي يُداعبها قبل أن يفصلها تمامًا عن جسده في مشهدٍ مريعٍ ومقززٍ وَسَط صيحات أغلب الحاضرين.

تلى ذلك أمر قنديل إلى حارث بأن يستقل جثة الراعي التي سال الدماء حولها بغزارة خلال المرحلة الأخيرة في رحلته على وجه الأرض، وهي الذهاب به إلى المحرقة من أجل أن تتم مراسم دفنه بما يليق به وبأفعاله. ثم المجيء إلى سراياه لأنه سيكون بانتظاره هناك هو وجاد وسندس لمناقشة الأمر جيدًا، ومعرفة كل شيء منهما ليروا ما هو التصرُّف الأنسب حيال ما هو آتٍ.

همَّ حارث بالتنفيذ سريعًا، لكي يستطع جميع الموجودين وقتئذٍ من الانصراف وانقضاء يومهم هم الآخرين، فغادروا وهم في أوج انتظارهم لمعرفة ما سيحدث بعدئذٍ، وما تبعات ما حدث منذ قليل، وما سر ظهور رجل الكهف وعرَّافة الضوم فجأة في هذا التوقيت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع
(نُصرة ضعيف)
الضيعة..

قُبيل نزوح الشمس بسويعة، كانت هي المرة الأولى منذ أيامٍ طوال لملامسة أقدام سندس تلك الأرض الخصبة.

تسير العرَّافة المختفية منذ مدةٍ طويلة بتروٍ شديدٍ للغاية تتأمَّل المكان حولها، خطواتٌ واهنة وملامح يغزوها الشيب، جبين متغضن وجفنان يابسان وغشاوة من حزنٍ وغمامة من التعب تسودها، تتخطى خيام الضيعة واحدة تلو الأخرى بوجهٍ جامد يكاد يقترب للعبوس.

وما إن أبصر بوجودها أحد الأشخاص حتى هرع تجاهها متفاجئًا وهو ينادي بصوتٍ عالٍ معلنًا خبر عودتها من جديد، فتجمَّع حولها سريعًا كل من رآها وسمع ذاك النداء المرتفع، ذهبوا إليها والتفوا حولها يطمئنون عليها ويتساءلون عما حدث لها، وما سبب هذا الغياب المفاجئ الذي طال كثيرًا، تعطلت حركة سيرها نحو خيمتها فاضطرت للوقوف معهم قليلًا. بعد ذلك مباشرةً أطلقت البعض من النسوة اللاتي فرحن برجوعها إليهن زغاريد عالية ملأت أرجاء الضيعة سعادة، لينتشر الخبر بين الضوم أجمعين.

*∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الاحتياج هو أقبح شعور قد يهاجمنا.

بدأت شمس بهذه العبارة حديثها مع صديقتها حنة حينما جلستا في خيمة الأخيرة بعد انتهاء سيرهما في الخارج منذ لحظاتٍ معدودات، تدهورت حالة شمس وازدادت سوءًا، إحساسها بالوحدة يأكل من روحها طوال الوقت ويقتل ما تبقى داخلها من أمل. فكان صوتها خافتًا وهي تُكمل نحيبها الذي لا تقوى سوى على القيام به:

- أين أنت يا يافث؟ ظهرت فجأة ثم اختفيت فجأة! لمَ فعلت ذلك؟

- اهدئي قليلًا، سيعود، لا تقلقي.

- ظننته سيملأ الفراغ الذي تركته سندس، لكن بغيابه ازداد هذا الفراغ اتساعًا!

حاولت حنة طمأنتها، والتهدئة من روعها قليلًا كما تفعل في كل مرة يحدث ذلك، لكن في الفترة الأخيرة كانت محاولاتها دائمًا ما تبوء بالفشل، ما بداخل شمس لا تقدر على وصفهِ إليها جيدًا، إنه أثقل من أن يُحكى ويتم البوح به كليًا، فهو تصدُّع لن يُجبر بسهولة، جرحٌ عميقٌ لن يُضمد إلا بمداواة شخصٍ محدد تنتظره وطول الانتظار هذا يُضعف منها أكثر.

أكملت:

- إنني على يقينٍ تام من أن داغرٍ وولده هما السبب في بُعد يافث هكذا، لم يكتفيا بمضايقتهما لي وبما فعلاه بي سابقًا، فقررا أيضًا منع ذاك الطيب من دخول الضيعة لمّا علما بقربهِ مني، هما شياطين خبيثة تفعل ما يحلوا لها في أي وقت، الإنسانية منعدمة داخلهما، ولقد قاربت قدراتي في المقاومة على النفاد، أنا أضعف من كل ذلك.

تعسَّر الأمر أكثر على حنة فالتزمت صمتها، ولم تعُد تجد ما تقوله في هذه الآونة، فهي ترى أن شمس مُحقة في كل كلمة تنبثق من فاهها، والمواساة كثيرًا لن تُجدي، بل من الممكن أن تثير غضبها كذلك.

حينئذٍ تناهى إلى آذانهما من الخارج ضجيجٍ عالٍ أثار انتباههما، أوقف حديث شمس وعكَّر صفو استماع حنة إليها، تيقّنا بوجود هرج ومرج فقررتا الخروج لمعرفة ما الذي يحدُث. همتا بالوقوف، ثم أزاحت حنة مدخل الخيمة بيدها وأوقفت فتاة مارَّة من أمامهما وسألتها عما يجري، فقالت لهما موضِّحة قبل أن تُكمل طريقها:

- لقد عادت العرَّافة.

توقَّف الزمن وهلة وساد الصمت، كلمات غير متوقعة، لم تخطر ببالهما قط. فتفاجأت حنة وشَخَصَت ببصرها ذهولًا، وقْع الخبر أثلج صدريهما، نظرت خلفها فوجدت شمس غير مصدقة لما قيل من فرط السعادة، انقبض قلبها، وصارت ترتعش غير قادرة على أن تتمالك ذاتها، لكن عينيها قد تلألأت داخلهما بارقة أمل وطمأنينة ربَّتت على الحزن الطاغي عليهما.

لم تنتظرا كثيرًا، هرولت شمس ودموع الفرحة تنهمر على وجنتيها بغزارة، ومن ورائها صديقتها تتبعها هي الأخرى صوب مكان جدتها، وصلتا سريعًا، ثم تسرَّبت شمس بين الناس الذين يتزاحمون بطريقةٍ مزعجة حول سندس حتى وصلت إليها بالمنتصف، هوت عليها وهي تبكي مثل الأطفال الصغار تُمعن النظر في قسماتها، عانقتها بحرارةٍ شديدة عناقًا طالت مدته، وفي أثناء عناقهما شعر كليهما برياحٍ هائلة من السكينة امتزجت داخلهما، كانت شمس تشبه رضيعًا مُلقى بين أحضان والدته العائدة من الخارج وفمه يُخرج آهاتٍ خفيضة، روحًا كادت أن تخرج من جسدها لكنها تعافيت الآن وسكنت، فبكيتا من أثر الاشتياق ولم تنبسا بحرفٍ واحدٍ قط، أضاء وجه شمس من جديد، وعاد لإشراقه البرَّاق سريعًا، زهرة قاربت أن تذبل فأحيوها بالمياه لتستمر في إطلالتها البهيّة.

دقائق قليلة ثم انفضَّ الجَمع رأفةً بحال سندس، وانصرفوا جميعًا بعد أن اطمأنوا عليها، لكن لم يعلم أحد منهم شيئًا عنها بعد أن أبت الحديث فيما جرى لها.

أخذتها شمس وعضدتها من ساعدها إلى أن وصلتا ودخلتا خيمتهما وهي تستشعر بوداعةٍ في قلبها، ها قد أخمد الحريق أخيرًا وانتهت ضجته، وآن الأوان لتتبدد الظلمة بداخلها تمامًا.

قبل أي شيءٍ حممتها على عجل، ثم أخذت ملابسها الرثَّة لكي تُنظّفها، اهتمت بمظهرها وهذَّبت أظافرها ومشَّطت خصلات شعرها جيدًا بعدما بدا عليها من إنهاكٍ

وإهمال، بعد ذلك أطعمتها وروتها، ثم طلبت منها أن تستريح أولًا، وأن حديثهما سيأتي لاحقًا.

هدأت سندس ووافقت، ثم اضطجعت مطرقة على فراشها والجو هادئ، لتغفو في وهلةٍ بسبب التعب الشديد في جسدها الذي كان في أمسّ الحاجة للاستجمام الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت الأمور إلى ما كانت عليه مسبقًا. استيقظت سندس في الصباح الباكر على صوت شمس الرخيم بعدما استغرق نومها ساعاتٍ طوال كأنها لم تنم من قبل قط. نهضت من مضجعها تلتقط أنفاسها، جلست بجوار حفيدتها التي أقبستها في التوّ قنينة ملأتها من زير المياه لترتوي منها، ثم قالت بعدئذٍ وهي تُقرِّب منها مجددًا سطلًا صغيرًا يحوي خبزًا وعسلًا:

- فلتأكلي جيدًا يا حبيبتي.

افترّ ثغر سندس التي كانت تفتقد هذه الطقوس اليومية المليئة بالوِد والحنان، ثم طفقت سريعًا في تناول الطعام برفقة شمسٍ على مهلٍ مبتسمتين كما كانتا تفعلان دومًا حتى امتلأت بطونهما برضى وارتياح رغم قلة وبساطة الزاد. بعد ذلك بمتسعٍ كافٍ من الوقت جلستا سويًا مرةً أخرى لكي تتحدثا باستفاضةٍ عما دار في الفترة الماضية، الفترة المليئة بالغموض. فاستهلت شمس الحديث متسائلة بتأنٍ:

- أريد أن أعرف، أين كنتِ؟ وماذا حدث؟

فأجابت سندس مقتضبة بصوتها الهامِد:

- أنا مَن رحلتُ.

- لأين؟ ولمَ عساكِ فعلتِ هذا؟.

أخذت سندس وهلةً من الوقت حتى استجمعت شتات أفكارها، ثم عادت لتُجيب:

- فجرًا، خرجتُ. كنتِ نائمة آنذاك ولم يتوجَّب عليّ أن أخبركِ بشيء، ولكن يا ليتني فعلتُ هذا، فأنا أعلم من دون أن تخبريني كم المعاناة التي واجهتكِ، وجهُكِ الحزين المنطفئ يُوحي لي بالكثير، تبدين في حالةٍ مزرية للغاية، آسفة يا ابنتي.

اغرورقت عينا شمس بالدموع وهي لا زالت تستمع:

- أثناء نومي في هاته الليلة حضرتني رؤيا أرهبتني، وجدتني جالسة خارج الخيمة أمام موقد من النيران كما أفعل يوميًا قبل شروق الشمس، وإذ فجأةً أجد سربًا من الغربان يحوم فوقي مباشرةً بعشوائية غريبة، ثم تلى ذلك هطول دماء قاتمة الحُمرة من السماء، فارتعدتُ بشدةٍ ونهضتُ من مجلسي خائفة، لأجد حينئذٍ خنزيرًا ضخمًا قبيح الشكل بزغ من الفراغ يقفز عليّ لأهوى ساقطة بين النيران المشتعلة، فاحترق جسدي وهَلَك تمامًا وتشوَّه قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة، وألقى حتفي.

تحشرج صوت سندس فارتشفت من قنينة المياه، ثم تابعت مجددًا:

- استيقظتَ خائفة، جسدي كله يرتعش، كان كابوسًا مؤلمًا أجزمُ أنه سيحدُث، فوجدتني دون تفكير طويل آخذ نفسي وأهمّ في الهروب بعيدًا عن الخيمة، بل عن الضيعة كلها، مشيتُ كثيرًا وكثيرًا دون توقُّفٍ، هائمةً في الطرق بغيرِ هُدى، حتى وجدتني بعد شروق الشمس بكثيرٍ أرتقي جبلًا لمحتُ أعلاه من بعيدٍ أشجارًا عزمت أن أستظل أسفلها وأقتات من ثمراتها حتى أرى ماذا سأفعل، أنهكني الوصول إليها كثيرًا فأنَّت ركبتاي من الألم وشعرتُ بإعياءٍ لنهارٍ كاملٍ. بعد ذلك بقليلٍ قابلتُ هناك رجلًا هَرِمًا عن طريق الصدفة، قطعنا سويًا وقتًا طويلًا من الأحاديث المختلفة، ثم بعدها أخَذني إلى كهفٍ هو مثواه ومكانه الدائم وهيّأ لي مكانًا معه، أخبرته بما حدث، ففاجأني هو أيضًا وأخبرني ما حدث كذلك في البلدة، اختلطت علينا الأمور، ووجدنا أن هناك ما هو أخطر وأشد صعوبة مما قد يتخيله أحد، ومن دون الخوض في تفاصيلٍ أكثر ستُرهقُكِ يا حبيبتي فقد عُدتُ ثانيةً أنا وذاك الرجل عندما علمنا بيوم القصاص القائم في البلدة، كان يجب علينا أن نظهر للجميع لنوضِّح لهم ما علمناه، وما قد يحدُث، ونعمل معهم على التفكير للوصول إلى الحقيقة ونهاية المطاف لكي يستريح الجميع وبما فيهم أنا، فطلبتُ من هذا الرجل الذي آواني وساعدني في هذه المدة أن يهبط معي إلى البلدة من أجل مكانته وسيرته بين الناس هناك، سيُجيد التأثير فيهم، وجوده سيُساعدنا كثيرًا في تعجيل الأمور وتصديق الأحاديث التي ستُروى ولن تدخُل العقول بسهولةٍ ويُسر، وكان هو القادر حقًا على إيقاف يوم القصاص وتأجيله كما أخبرني.

أخذت شمس بضع لحظات تستوعب ما قيل وهي في ريبةٍ منه، ثم استطردت:

- المهم الآن أنكِ بخير، ما حدث مر ولن يعود، وتفهَّمتُ كل ذلك جيدًا، لكن هناك أمرًا غريبًا حدث أثناء غيابك، يبدو أن له علاقة بما يدور.

- الصندوق الذي وجدتم داخله خنزيرًا مقتولًا.

صُدمت شمس من معرفة سندس لهذا الأمر، فتساءلت بذهول:

- أهذا الخنزير الذي وُجد في الضيعة منذ أيام له علاقة بكِ؟

- أجل، الصندوق بما يحمله تنبيهٌ لكم وللبلدة، لعل أحدًا من الناس يصل لشيء، نحنُ من أرسلناه لكي يكون طرف الخيط الذي سنبدأ من خلاله عملنا بعد ذلك، فهو ينجلي من ورائه الكثير من الحكايات، لكن جميعها سيتعسَّر عليكِ فهمه يا صغيرتي، وأنا أريدك أن تظلي بعيدًا تمامًا وفي مأمنٍ لكِ. تناسي هذا الآن، فقط حدِّثيني عنكِ.

يبس وجه شمس، وردَّت بنبرةٍ مهزوزة تنُم عن الضعف:

- أنا في غيابكِ لم أعانِ سوى من الوحدة، وعدم الأمان.

أطرقت سندس مستمعة وعلى مُحيَّاها الأسف، في حين زمَّت شمس شفتيها وهي تُكمل:

- غمرني حزن لن يُمحى.

- أخبرتني أحجاري أن هنالك خيرًا ومكروهًا حدثا لكِ، فما هما إذًا؟

ألقت شمس نظرها صوب الأرض بضع ثوانٍ وقد احمَّرت وجنتاها، ثم عاودت النظر إلى جدتها بعد أن عادت الدموع لتتبلور في محجريها وهي تُجيب:

- أصبتِ. الخير في وقوف حنة ووالدتها بجواري طوال الوقت ولم تتركاني قط، كانتا هما سندي وعائلتي بعدُكِ، فأنا ممتنة لهما كثيرًا، لكنني في الوقت ذاته تيقَّنتُ من أنكِ لن تُعوضين أبدًا. وذلك بالإضافة إلى رجلٍ تملأهُ الطيبة ظهر في حياتي فجأة، بشوش الوجه، توسَّمتُ فيه خيرًا، وعوضًا، راودني شعور غريب تجاهه، آلفته ولم أنزعج منه، لكنه بعد مدة لم تطُل كثيرًا اختفى، بعد أن تكررت لقاءاتنا وأحاديثنا اختفى، ولا أعلم عنه شيئًا حتى الآن، فبالرغم من أنني كنتُ أتأرجح بين القُرب منه أو البُعد عنه في بادئ الأمر، فإنني في النهاية حزنتُ وتأثرتُ كثيرًا بهجره المفاجئ لي. هؤلاء هم الخير، أما الشر فأعتقد أنه السبب في إفسادهم، الريس داغر، أكبر الشرور هنا، كان يريدني لأجل الزواج من ابنه، لكنني رفضت ذلك تمامًا، وقطعتُ عليه الطريق من بدايته، فقرر هو إيذائي بشتى الطرق الممكنة، كانوا يعترضون طريقي كل يوم، ويهددونني طوال الوقت، حتى وصل بهم الحال إلى إجبار سمارة داية الضيعة بغلق مدخلي بدبلة كي لا أستطيع الزواج إلا بنزعها، وقال إن سمارة لن تنزعها مني إلا عندما أذهب له وأخبره أنني موافقة على إتمام الزيجة من ابنه، وهذا ما لن يحدث، فأنا حتى الآن أقاوم، ولم أرضخ له، على أمل عودتك لتنصريني يا جدتي، لتعالجي تلك الندبات التي أصابت روحي.

استشاطت سندس غضبًا، وظهرت نيرانًا هائجة على مُحيَّاها وهي تقول:

- كنتُ أشعر بذلك، سأستردُ حقَكِ منهم جيعًا، الآن.

- كيف؟

لم تُجيب سُندس عليها، وهمَّت في النهوض سريعًا من مجلسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سندس تُمسك شمس من يدها وتسير بها حانقة بعيدًا عن خيمتهما، يشوبها الغضب، وحفيدتها القلق. اتجهتا صوب خيمة سمارة داية الضيعة، لا تَبعُد عن خيمتهما كثيرًا فلم يَطُل الوقت عليهما حتى وصلتا إلى هناك، وسريعًا دلفت سندس داخلها من دون تحيةٍ أو حديثٍ أو موعدٍ مسبق، ومن خلفها شمس كذلك، كانت سمارة موجودة وحدها بالداخل، جالسة في هدوءٍ تام لا تعلم ما سيتبعه، فانتفضت تلقائيًا وبُهتت عندما رأتهما أمامها، لم تتحدث سندس، فقط وقفت تُلقي نحوها نظرات تحمل بين طيّاتها غضبًا وشرًا بيَّنا، فاصفّر وجه سمارة ثم بلعت ريقها متوجسة قبل أن تبدو شفتاها مرتجفتين وهي تقول:

- مرحى لعودتكِ.

تجاهلتها سندس وزفرت أنفاسًا مشتعلة، ثم اقتربت منها أكثر واستطردت:

- قتلتموها، الفتاة صارت مثل غصنٍ متساقطة أوراقه!

تابعت الداية النظر إليهما بخوفٍ وحيرةٍ ولم تتحرك، أو تتكلمَّ، انقبض لسانها فعجزت عن الحديث. فأكملت العرَّافة توعُّدها:

- ستدفعين الثمن غاليًا على فعلتكِ الدنيئة هذه.

مرَّت وهلة، بعدئذٍ تهدَّج صوت سمارة كأنها ستبكي:

- أنا ضعيفة أمام الريّس داغر، ولم أقدر على رفض طلبه.

- ليس مبررًا، فسيطول شرّي كليكما.

ثم دنت منها سندس أكثر وجذبت شمس جوارهما، وأردفت تأمُر:

- انزعي ما وضعتِه في شمس، الآن.

ازداد خوف سمارة، وازدادت حيرتها وترددها أكثر وأكثر، فإن خضعت لسندس ستمسّها يد داغر القذرة، وإن رفضت فلن تتركها العرَّافة تهنأ بيوم واحدٍ قط، في الحالتين سيتم إيذاؤها على ما فعلته من قبل. تأخَّر رد فعلها وتحدُّثها فَصاحت سندس فيها بصوتٍ عالٍ لكي تبُث الذعر داخلها من أجل أن ينتهي هذا اللقاء، توتَّرت سمارة وصارت في عجالةٍ من أمرها، فلم تجد قرارًا غير الإذعان لما قيل لها الآن، فسارعت بجلب شمس أمامها من دون أن تتبس وقد حل العبوس عليها، لكي تُصلح من خطئها الذي ارتكبته مضطرة.

تململت شمس على الأرض وهي تُسند ظهرها إلى قدميّ جدتها وتُمسكهما بكلتا يديها بإحكام، ثم قامت بفتح قدميها هي لتصنع بهما زاوية حادة باتجاه سمارة أمامها بعد أن خلعت رداءها الفضفاض من عليها، لكي تكشف عن مخبئها، كان خرابًا قد حلَّ به وها قد آن الأوان لترميمه. رفعت سمارة قدمي شمس على أكتافها سريعًا، ثم اقتربت يداها من فتحة هذه الفتاة وطفقتا تعملان على تنظيف ما وسخّتاه، لتترقرق في عينها دمعة هي نفسها التي بكت بها حين تم دس هاته الدبلة اللعينة داخلها، لم تستغرق سمارة كثيرًا حتى نفذت ما أُمرت به وحررت شمس من أغلالها أخيرًا، من دون ألمٍ، وانكسار.

أخذت شمس أنفاسها بحريةٍ لأول مرة منذ وقتٍ طويل، ثم نهضت من مكانها مرةً أخرى وبَعُدت عن سمارة، لتصير الآن سندس بمقابلتها. رمقتها سمارة بريبةٍ شديدة، ثم قالت وهي تُشير بوجهها خارج الخيمة:

- ارحلا.

فابتسمت سندس من زاوية فمها، ثم وضعت يدها داخل ردائها لتُخرج منه قنينة صغيرة مُغلقة بإتقان، هذه القنينة تحمل سائلاً كان قد أعدَّهُ لها جاد في الكهف من أعشابٍ وموادٍ سامة، لمّا طلبت منه ذلك بعد أن أخبرتها أحجارها باستضعاف شمس في الضيعة، فعوَّلت عليه في مرحلة استرداد الحقوق عندما تعود. ردَّت مُكفهرَّة:

- ليس قبل أن تنالين عقابكِ.

دارت عينا سمارة في مكانهما بذعر، وارتعشت أطرافها. ثم سريعًا فتحت سندس القنينة وقذفت ما بداخلها على كفيّ سمارة من أمامها من دون ارتباكٍ أو شفقةٍ عليها، لتصرخ عاليًا من أثر الألم الذي شعرت به، كأن نيرانًا ملتهبة راحت تحرق يديها، توجُّع لم تحتمله، وتبعات غير مرجوَّة. ولحظات حتى لم تعُد قادرة على تحريك كفيّ يديها، فتيقَّنت سريعًا بشلّ الحركة بهما وهي تنظر إليهما في حسرةٍ وأسى بالغ، الآن انتهى عملها، بل انتهت حياتها الطبيعية تمامًا، فبعد ما حدث لها لن تستطع فعل أي شيء إطلاقًا، فانخرطت في بكاءٍ أفرز دموعًا غزيرة وصلت إلى يديها العاجزتين عن الحركة، ولكن ما هي جدوى البكاء في النهاية؟

في هذه الآونة كانت سُندس وشمس تتابعان ما يجري بلهفة، تشفيان غليلهما المتأجج داخلهما، لم يمكثا كذلك في مكانهما كثيرًا، فقد أضافت العرَّافة قبل أن ترحلا وتتركان الداية تتعذَّب وحدها:

- الآن جاء دوره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- اذهب وأحضر لي ما طلبته، هيا.

أمر بها الريس داغر ولده علي، فأذعن سريعًا وترك ما بيدهِ وخرج من محل عملهما وراح يُنفّذ تلك الأوامر. ظل داغر يتابع عمله كما هو منتظر عودة ابنه، يُمسك بيدهِ اليُسرى صفيحة كبيرة من النحَّاس ويطرق عليها بمطرقة حديدية صلبة في يدهِ اليُمنى من أجل تشكيلها وإعدادها وتمرير عملية صناعتها. وجهه الذي تتعامد عليه أشعة الشمس عابس كالعادة دومًا، مُطرق غير آبه بشيء إطلاقًا، لكنه الآن فقط يعمل بعصبيةٍ مفرطة غير معتادة عليه، يطرق الصفيحة بقوةٍ شديدة غير مطلوبة، بل من الممكن أن تضُر الصفيحة وتُفسدها. يبدو أن عقله هائم الآن في صراعاتٍ شتى جعلته في هذه الحالة هكذا.

وبينما هو منهمك في عمله بعيدًا عما يدور حوله، جاءت إليه مَن كان يخشى لقاءها، ولجت وانتصبت أمامه لحظاتٍ تنظُر لهُ بعينين زائغتين تتجمَّع فيهما كلمات كثيرة تنتظر فقط لحظة خروجها، كانت سُندس بعد أن عادت شمس أدراجها ومكثت في الخيمة، وجاءت هي من أجل مقابلته وتحطيم ذاك الحجر الجاثم أعلى صدر حفيدتها، بتحطيم تهديده لها، فاندهش دهشةً يشوبها قليلٌ من الخوف.

لم ينبس بكلمةٍ واحدة، فأردفت هي بصوتٍ خفيض تملأه ثقة عمياء:

- ستنال عاقبة ما فعلته.

ظلت الدهشة حاضرة على وجه داغر حينًا طويلًا، يُفكر فيما سيقوله لسندس، فهو كان على دراية كاملة بحدوث هذا اللقاء منذ أن عرف بعودتها للضيعة مجددًا، لكنه لم يكُن يدري بقُربهِ هكذا! أراد أن يُظهر لها ثباته وقوته وانعدام قلقه منها، فعقد حاجبيه وزم شفتيه بضيقٍ، ثم قال لها:

- أردنا شمس، كنا سنحافظ عليها ونقوم بحمايتها وهي معنا، ما حدث كان فقط من أجل موافقتها!

- لقد أهنتموها، وضايقتموها، واستغللتم بُعدي عنها.

اهتز صوت الريس داغر وتلعثم:

- كُنا سنُعيد كل شيء إلى ما كان عليه مرة أخرى، وإن سألتها فستُخبرك بأنني كنت أبحث عنكِ كثيرًا، فمن دونكِ ليس للضيعة بأكملها قيمة وأهمية، صدقيني.

آنذاك انطمس الغضب في مقلتيّ سندس، واستطردت بنبرةٍ حادة:

- لن يُفارقكَ الندم قط!

رمقها بضجر ولم يرُد، فتابعت تُحذّره وهي تقترب منه أكثر:

- أستطيع أن أُعطّل عملكَ هذا نهائيًا، أن أفسد حياتك تمامًا إن لم تبتعد عنها.

حينئذٍ كانت قد دنت منه كثيرًا وهي مترددة، فوقفت وهلةً بالقُرب منه واستنشقت أنفاسه النابعة من فمهِ المرتعد، وبضع ثوانٍ حتى انزاح التردد من على وجهها وابتسمت بخُبثٍ ثم مالت برأسها على أذنهِ وهمست:

- لكنني لن أضر بكَ.

بعد ذلك عادت إلى الوراء بظهرها المحنيّ قيد خطوتين منه، فضحك داغر بثقةٍ مفتعلة ضحكة مبالغًا فيها وهو لا يزال يُبادلها النظرات. فأضافت فجأة:

- لأن أفعالك هي مَن ستقتصّ منكَ، وقريبًا.

قالتها العرافة بغموضٍ مريب، فارتسمت على ملامح الريس داغر معالم الذُعر والريبة، فهو على يقينٍ تام من أن سندس لم ولن تُخطئ في كلمةٍ واحدة تقولها. زُلزلت أوصاله وانتفض خائفًا بعد أن فشل في إظهار الصلابة والقسوة أمامها ثانيةً، فنظرت إليه شزرًا ثم أعرضت عنه أخيرًا ومضت بعيدًا في هدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تُلقي شمس نظراتها بتمعُّنٍ شديد صوب أعين جدتها الجالسة أمامها تلتقط أنفاسها لكي تستريح بعدما عادت من الخارج بعد المجهود الذي بذلته طوال اليوم، فلم تتوصل لشيءٍ يُرضي شغفها. لم تنتظر كثيرًا حتى سألتها بفضولٍ جليٍّ على لسانها:

- ماذا فعلتِ معه؟

فردَّت سندس ولم تكترث لسؤالها:

- لا تقلقي يا حبيبتي بعد الآن، سيبتعد تمامًا عنكِ هو وولده، ولن يقتربا منكِ مجددًا، أصبحتِ حرة.

تجاهلت شمس وتناست فضولها نحو معرفتها لما جرى منذ قليل، وابتسمت ابتسامة ملء ثغرها، ثم أقبلت على جدتها بسعادةٍ بالغة وقبّلت جبينها بحُبٍ صافٍ، وقالت

بصوتٍ حانٍ:

- أنتِ أماني، وقوتي.

سرعان ما عانقتها سندس بودٍ تعويضًا عما مرَّ في الآونة الماضية، لتجعلها تسكُن وتطمئن أكثر، وتكون هكذا قد أحيت داخلها شرايين جفَّت بها الدماء وتوقَّفت عن السريان. بعد ذلك بقليلٍ تركتها ونهضت من مجلسها على حين غُرَّة ثم هندمت رداءها من عليها مرة أخرى، فعاجلتها شمس متسائلة:

- ستخرجين؟

- أجل، سأذهب إلى البلدة.

- لقد رجعتِ أمس! فلتنتظري قليلًا وتأخذي راحتكِ أكثر.

هزَّت سندس رأسها علامةً للرفض:

- يجب أن ينتهي ذاك الأمر سريعًا، حتى لا يطول الشر أحدًا آخر.

صمتت شمس بغير رضى، وقلق، فاستطردت سندس وهي أمام مدخل الخيمة:

- لا تقلقي، فقط حافظي على نفسك.

ثم انسلت من الخيمة سريعًا، ورحلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكُن هادئة لياليه، أرقٌ دائم لم يفارقه، بالإضافة إلى آلام عدة في ظهره وعنقه ورأسه لم تبارحه لحظةً، فاستعصى عليه النوم وطلب الراحة لجسده، وظل يجول بخاطره طوال الوقت جميع ما مرَّ عليه من انتكاساتٍ في الأيام الأخيرة. فمن تأثير ذلك راح يافث يخطو في الممر الكبير الذي يتوسَّط خيام الضيعة مترنحًا غير متزن يكاد يقع من فرط الإعياء، حالته سيئة تمامًا، قلبه مُثقَّل بالهموم، وروحه دُمِّرت ولم يعُد يوجد منها إلا فُتات يحيا به دُنياه، جسدٌ هزيل لا يقو على تحمُّل السير، بدا رجلًا تائهًا غير قادر على اشتهاء أي شيء. هو الإنسان الذي حاول مرارًا وتكرارًا أن يتشبَّث بالنجاة، والآن في طريقه لأن يُدرك أنه لم يعُد يصلح لهذه لحياة.

لكنه بالرغم من ذلك بعد تفكير وكثير من التردد عكف على أن يأتي إلى شمس بعد أن تم إنقاذه وهو على شفا حفرةٍ من الموت، جاء لها خصيصًا وهو يعوُّل عليها آمالًا كثيرة، جاء وهو لا يعلم ما السبب الحقيقيّ وراء ذلك في هذا الحين، فلقد قاده عقله وقدماه إلى هنا من دون مبرر حقيقي غير أنه يريد أن يطمئن ويسكُن.

سار حثيثًا على قدر قوته التي قاربت على النفاد حتى وصل أخيرًا بالقُرب من خيمتها، وقف حينًا وتنفَّس الصعداء، ثم همَّ بإطلاق ثلاث صافرات بفمهِ وصدره المكدود علامة بينهما قد اتفقا عليها من قبل لتعرف بها أنه جاء لها، أطلق الصافرات ولم ينتظر وهلةً حتى أزاحت شمس مدخل خيمتها وخرجت تهرول

تجاهه سريعًا، كأنها كانت تمكث بالداخل في انتظاره على أحرٍّ من الجمر، فتلاشى داخله ذاك الحنين الجارف الذي راوده مؤخرًا وهو بعيد عنها.

تأمَّل يافث وجه شمس الذي ازداد إشراقًا ووضوحًا مما سبق، فابتسم قدر المستطاع فَرحًا برؤيتها ومشاهدته للسعادة البادية عليها، أمَّا هي فتريَّثت في النظر نحو قسماته الباهتة ووجهه الشاحب المنطفئ عن ذي قبل، فيبست ابتسامتها وحزنت مُشفقة عليه مما هو غارق فيه ويبدو بارزًا على مُحيَّاه من دون حديث.

مرَّت لحظات من السكون وتبادل النظرات بينهما، حتى قطعت شمس هذا الصمت الجامد بسؤالها مستفسرة:

- أين كنتَ هذه المدة؟ قلقتُ عليكَ كثيرًا.

ظل يافث صامتًا بضع ثوانٍ فقد أفقده اليأس حيويته ومعالمه الطبيعية، كأن جميع الكلمات داخله تكوَّمت في عنقهِ حتى انسدَّ وصار غير قادر على البوح والحديث معها. فأخذته شمس سريعًا وسارا سويًا بعيدًا عن الخيمة، وبعيدًا عن الضوم المنتشرين من حولهما، وذهبت به إلى المكان الذي تقابلا فيه أول مرة عند طرف الضيعة، وظلت تتكرر لقاءاتهما وأحاديثهما الماضية هناك كذلك. لمَّا وصلا داعبته ضاحكة بصوتها الرخيم وهي تنظر في عينيه:

- هنا ستتكلَّم، هيا أخبرني.

شعر يافث بسعادةٍ بالغة حيال سؤالها وقلقها وملاحظتها لغيابه طوال هذه الفترة، وعلم هكذا أنه يُقيم في بالها ولا يفارقه أبدًا، كما كان يأمل تمامًا. ولكنه طأطأ رأسه خجلًا ولم يستطع إبداء ذلك، ثم أردف بنبرةٍ خافتة:

- الأمور ليست على ما يُرام.

- كيف؟!

- كنت سأختفي للأبد ولن تريني مرة أخرى.

بُهتت شمس وانتبهت له وكلها آذانٌ صاغية، فاعتدل يافث وأخذ يسرد لها جميع الأحداث التي قابلته منذ أن تركها أخر مرة إلى أن قُبض عليه وما لاقاه في السجن مرورًا بما حدث معه يوم القصاص. انقبض قلب شمس وارتعدت بشدة، ازداد حُزنها وخوفها عليه أكثر، لكن حديثه جعلها تتساءل مشدوهة قبل أي ردٍ آخر:

- أنت مَن أنقذته جدتي؟

- جدتُكِ؟!

فأومأت رأسها قائلة:

- جدتي التي ظننتها اختُطفت هي عرَّافة الضوم التي ظهرت فجأة في البلدة لكي تُنقذك وتنقذ الباقين.

لاحت علامات الذهول والحيرة بازغة على وجه يافث، ولم ينبس حرفًا واحدًا غير مُصدق ما يمر على أذنيه من كلمات كهذه. في حين لانت قسمات شمس وأردفت باسمة الثغر:

- سندس دائمًا ما تُنقذ فرحتي وتُقيم راحتي، ظهرت لتنُقذني وتُخلصني من داغر وولده، وتُنقذك أيضًا من الهلاك، ومن أجلي، ومن أجل حريَّتك وخلاصك.

تهلَّلت ملامح يافث وأُزيل تعجُّبه مباشرةً واجتاحه إحساس غريب، الرابط بينهما يزداد ويقوى أكثر بمرور الوقت سواء بأفعالهما أو بمؤثرات نابعة من حولهما، صادفت كلماتها هواه، فاقترب منها بفمٍ بشوش وعينين ذائبتين في الهوى، وقال:

- جئتُ إليكِ يقينًا بأنكِ لن تهجريني مثلهم، مرَّت تلك المحنة فوجدتُ قدميّ تقودني إليكِ أنتِ تحديدًا، ولا أحدًا آخر.

أرهفت شمس السمع للكلمات، فأمسك يديها وتابع مبتهجًا:

- فلتجعلي يدكِ تُعانق يديّ، لأشعر بالطمأنينة والأمان.

سرت رعدة بينهما شعرا بها فور أن تلامسا، فنظرت له شمس بحنانٍ بالغٍ ووجنتين تكسوهما حُمرة طاغية ودقات قلب متسارعة، وشعر هو بسكينةٍ وجد فيها ضالته فغاب خلالها عن العالم من حوله. ثم سريعًا ارتمى وتكوَّم بين أعماقها دفء، بعد أن التحمت نظراتهما الولهى بشيءٍ من الوداعة، ليستقر أخيرًا بين ذراعيها في هيام، ويهدأ فؤاده وعقله اللذان خرَّبتهما تخبُّطات الأيام، فقد شُيِّد الملجأ أخيرًا، واكتمل شعورهما بالأمان التام الآن.

باغتته شمس:

- سأخبر سندس بكَ، وبهذه الصدفة التي ملأتني راحةً وجمالًا.

ثم سريعًا تابعت مرة أخرى بصوتٍ عذب ونعومةٍ خاصة بها:

- أنا معكَ، عدني ألا تتركني، أحتاجُكَ.

فرمقها يافث هامسًا:

- وأنا كذلك، فقط آمل أن يسمح القدر بهذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

(رجسٌ خفيّ)
البلدة..

غادر الحضور من أهل البلدة الباحة الكبرى منزعجين بعد توجيه حارث الأمر لهم بالانصراف مباشرةَ، فهم هناك قد تحمَّلوا أوار الشمس الحارقة، غير تركهم لأعمالهم وأشغالهم، علاوة على علامات الاستفهام التي حلَّت على ثنايا وجوههم بعدما حدث وقت تَجَمُّع تنفيذ القصاص الذي لم يعرفوا هل هو تم أم لا!! لكم كان مريبًا بالنسبة لهم ذلك الحدث المفاجئ الذي أجَّل بدوره عليهم الآمال التي كانوا يرجونها بعد انقضاء هذا اليوم.

ساد الهرج بضجةٍ عالية في طُرقات البلدة كلها من مشرقها حتى مغربها، حالة من الدهشة والذهول والخوف والطمأنينة والطموحات المرجوّة، كل في مساراتٍ متعارضة بسبب ما حدث، تشتتت بوصلة التفكير لدى الجميع فانتشرت تفسيرات شتَّى غزت مسامع قاطني البلدة في لمح البصر.

ها قد ظهر رجل الكهف الذي طالما سمعوا وتحدَّثوا عنه كثيرًا، فهناك من قال وآمن أنه مُخلّصهم الوحيد، بشير الصلاح الذي قيل لهم عنه، وجاء الآن لكي يُخلّصهم من تداعيات حول الوهن فلا تكتمل تتمَّته، النبيّ الذي نزل لهم بنبوءاتٍ تكشف الشرور الخفية فيعتدل الحال وتنتهي البائقة وتتلاشى ظُلمة هذه الفترة من الزمان. وهناك مَن خالفهم ورأى أن ظهور رجل الكهف وعرَّافة الضوم ما هو إلا عبارة عن خروج أفاعٍ من جحورها لكي تنثر السموم لإشعال الفتنة أكثر بين الناس، والوقوف في طريقهم، فأمطروا على سيرتهما وابلاً من السُباب وسيئ الكلمات في غيابهما. بينما كان بينهم أولئك الذين لم يؤمنوا بأي من تلك الأحاديث واعتقدوا تمامًا أنها تُرَّهات يجب ألا يأبهوا لها وعليهم الالتفات إلى حياتهم أفضل من هذه الثرثرة، ثم يرون في النهاية ما ستؤول إليه الأمور.

لم تكف الألسنة عن الكلام حتى يعرفوا ما سيتم بداخل سراي العمدة في وجود جاد وسندس وحارث، فكان ينتهي النقاش حول ما جرى ثم يلج بعده تلقائيًا نقاش آخر كأنَّ لم يَعُد وراءهم شيء غير الحديث ووضع التفسيرات والتحليلات المختلفة. لكن بالرغم من ذلك ومن كل هذه التناقضات فأهل البلدة أجمعين على اختلافهم، لا يأملون سوى وضوح المشهد من أمامهم، ثم صلاح الحال وتبدُّد الأزمة نهائيًا، وكفى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمْ تنخفض حرارة النهار بمرور الوقت، فظل قنديل وجاد وسندس منذ أن وصلوا وجلسوا في صحن السراي ينتظرون مجيء حارث من المحرقة بنفاد صبرٍ حتى يبدأ اجتماعهم المهم. العمدة ناقمٌ على ما حدث، فيجلس مكانه وهو يحمل بين طيَّات

رأسه شعلة نيران متوهّجة وقودها الأسئلة والقلق، أما رجل الكهف والعرَّافة فغير مكترثين به الآن إطلاقًا، يجلسان بهدوءٍ شديدٍ للغاية من أجل راحة جسدهما أولًا ثم لترتيب أفكارهما وانتقاء ما يجب أن يُقال وما يجب عليهما إخفاءه ثانيًا، ولأنهما أيضًا يريدان أن يكون الحديث مرة واحدة حتى لا يضيع الوقت أكثر من ذلك.

لمّا حضر حارث أخيرًا واطمأن منه قنديل عما قام به منذ أن تركا الباحة وجاءا إلى هنا، جلس بجوارهم لكي يكتمل هكذا الجَمع أخيرًا ويبدأ حوراهم لتُعرض الأسرار وتنكشف الخبايا. فاستهل قنديل الحديث قائلًا بتريُّث:

- أذعنتُ لكما من دون توضيحات، وانتظرت، وها قد آن دوركما.

حكَّ جاد ذقنه، ثم اعتدل في جلسته على نحوٍ بطيء، وتأهَّب للرد:

- بالطبع تريدون في البداية معرفة سرّ اجتماعي بسندس، لقد قابلتها صدفةً بالقرب من الكهف الذي كنتُ أقيم به، فُجئتُ بها لأنني لم أكُن أعرفها من قبل، وظننتها امرأة عجوز قررت أن تسلك ذات الدرب الذي قطعتُ فيه شوطًا كبيرًا من عمري مؤخرًا، لكن لم يكُن الأمر كذلك، فحين جلسنا سويًا وتحدَّثنا عما جرى لها وجرى في البلدة قررنا محاولة قراءة الحدث عن طريق ربط الخيوط ببعضها البعض، والتفكير جيدًا، ثم قامت هي بضرب أحجارها أيضًا لكي نصل لما هو خفي وتكتمل أطراف المعضلة، فوجدنا أن هناك عاملًا مشتركًا بين مقتل ولدكَ واختفائها، فهي كانت مُعرضة في اليوم التالي مباشرةً للقتل هي الأخرى، من ذات الرجل الذي قتل ولدكَ، لكنها هربت.

انتفض قنديل من مكانهِ صائحًا ونظراته تستجدي العَوْن:

- مَن هو؟ أخبراني.

فأشار له جاد بكلتا يديه ليتمالك نفسه، ثم تابع بهدوئه كما هو:

- لا نعرفه حتى الآن، ما نعرفه فقط أنه من البلدة وقابع فيها حتى الآن.

تنحنحت سندس، واقتحمت الحوار قائلةً:

- إنه خنزير به رجسٌ حقير. كنتُ كلما أضرب أحجاري في يدي تظهر في مخيلتي رؤية مشوَّشة لخنزير ملطّخ بالدماء هو الذي يقتل غيث، وكان هو نفسه الذي جاءني لكي يقتلني في الرؤيا التي هربتُ من الضيعة بعدها مباشرةً، فطنتُ حينئذ أن الرابط بيننا واحد، فحاولنا كثيرًا فك تلك العقدة ومعرفة سر هذا الخنزير وما ورائه، لكن كنا نفشل مرارًا وتكرارًا، فلأول مرة تتعسَّر عليّ معرفة ما ينجلي خلف أمر كهذا، ذلك القاتل يعرف جيدًا ما يفعله وكيف يمحو آثار فعلته، فلا ينكشف أو يُفضح أمره.

- إذًا ما علينا فعله الآن لنجده؟

- قبل أن نظهر لكم أرسلنا إلى الضيعة صندوقًا كبيرًا به خنزير عليه نفس الأعراض التي توصَّلنا لها من الرؤيا والأحجار، أمر جاد أحد رُعاة الأغنام

بإحضاره من بلدة مجاورة لبلدتكم، وذلك من أجل أن يكون هو البداية، لأن بالطبع القاتل سيحاول التردُّد على الضيعة من أجل تقصّي أخباري لتنفيذ مخططه ومحاولة قتلي، فلمّا يعلم بأمر هذا الصندوق سيعرف أننا بدأنا في كشف أمره، فتبدأ خطواته في التشتُّت والاضطراب وهنا سيتولَّد الخطأ الذي سنصل له من خلاله، ومن ناحيةٍ أخرى سيتساءل البعض عن سر ذلك الصندوق وما فيه، ومن الممكن أن يصلوا هم لشيء قد يُفيدنا، كانت هذه هي الخطوة الأولى لكن يبدو أننا أخطأنا في تقييمها، فلم تأت بثمارها حتى الآن.

عقَّب جاد قائلًا:

- لمَّا علمنا بيوم القصاص وأنكم تنوون الانتقام من أشخاصٍ ليس لهم ذنب، قررنا الظهور لكم لمنع ذلك، ولكي يتم القصاص الحق، من القاتل الحقيقيّ. إنها أوامر بالموت، والخراب، يجب أن تُمنع ويُقضي على منفِّذها والآمر بها. نحن هنا الآن معكم، عقدنا العزم على المساعدة بما يتسنَّى لنا القيام به، ولا نريد أن يكون ظهورنا سدى.

نظر قنديل شزرًا صوب حارث يُمرر له الحيرة والقلق اللذين يكادان يفتكان به، حديث جاد وسندس لم يصل به إلى مكانٍ هادئ يستطيع منه القصاص لولده، بل زاد الأمر تعقيدًا أكثر، وازدادت صعوبة الوصول أكثر عما كانت عليه سابقًا، فيبدو أن الأمر أكبر بكثير مما كان يظن هو ومساعده. لكن بعيدًا عن ذلك قرر قنديل أن يُقحم ما حدث أيضًا في البلدة داخل حديثهم، وسأل مستفسرًا علّه يصل لإجابة:

- وماذا عن يوميّ الضباب والمائة روح التي زهقت من دون تفسيرٍ بيّن؟

بُهت جاد متسائلًا هو الآخر:

- لم نسمع عن ذلك الأمر، انقطعت أخبار البلدة عنا مؤخرًا، ماذا حدث بالضبط؟

آنذاك أجاب عليه حارث موضحًا:

- كانتا ليلتين متتاليتين انتشر فيهما داخل البلدة ضباب كثيف ونعيق مؤلم للآذان، وجميع من ساروا في الخارج بين هذا الضباب وسمعوا ذلك النعيق كانت تظهر عليهم أعراض متشابهة تمامًا بينهم، وحين كانت تُشرق الشمس كان الضباب يتبدَّد والنعيق يتلاشى نهائيًا، فيموت هؤلاء الناس مباشرةً ولا نستطيع إنقاذهم.

وأضاف قنديل بنبرة يأس:

- ولم نصل لتفسيرٍ حتى الآن.

بدا التعجُّب بازغًا على ملامح جاد وسندس، امتعضا وبدأ عقلاهما تلقائيًا يربطان بين هذا الحدث والقاتل الخفيّ ظنًا منهما أنه قد يكون المتسبب في حدوثه أيضًا. لكن سندس قررت سريعًا أن تضع يدها داخل ردائها وتُخرج منه كيسًا صغيرًا تضع فيه أحجارها، سكبت ما بالكيس على يدها، ثم وضعت الكيس فارغًا على المنضدة أمامها، ومن تلقاء نفسها أحكمت قبضة يديها الاثنتين على الأحجار مُغمضةً عينيها، ثم راحت تُحرِّك يديها سريعًا مجيئًا وذهابًا وقد غابت تمامًا عن الرجال من حولها،

ظلت في ذلك الوضع قليلًا وجميعهم يلقونها بنظرات ترقبٍ وانتظار، حتى توقفت أخيرًا وفتحت عينيها ووضعت الأحجار في الكيس مجددًا وأعادته داخل ردائها. فتعجَّل قنديل بالقول:

- ها؟

ابتسمت سندس ثم أجابت بتأنٍ:

- ليس للضباب علاقة بذلك القاتل، لم تتكرَّر الرؤية الخاصة به.

- إذًا ماذا وجدتِ؟

- الإجابة تكمُن عند الغريب، وسحره.

اندهش قنديل ولم يفهم مقصدها قط، تجهَّم وجهه هو وحارث، وراحا يحاولان تفسير قول سندس، فهي قد أوقعتهما بلغزها هذا في هاوية سحيقة الفرار منها عسير. لكن تبدَّل الحال سريعًا، فلم ينقضِ الكثير من الوقت حتى أشرق وجه حارث فجأةً كأنه وجد الإجابة، فأردف في عُجالة:

- وجدته، من مدةٍ قريبة جاء للبلدة رجل غريب ليس من هنا، يدَّعي أنه يعمل في السحر، لا يوجد غيره.

حينذاك اكتست ملامح قنديل بالغضب، واهتزّت قسماته ضجرًا، وتبدَّل اكفهراره بمقتٍ شديد، وقال:

- أحضر العساكر لنذهب له الآن، وسآتي معكَ لكي نعلم ما أمر هذا الساحر، ومَن وراءه، ولمَ جاء البلدة خصيصًا ليفعل ذلك؟!

- حسنًا.

ثم نهض حارث من مكانه وتركهم من أجل تنفيذ أوامر العمدة، الذي قال مرة أخرى:

- ستتكرَّر هذه الجلسة ثانيةً، وسيتم توفير مكان خاص لجاد مثلما يُريد حتى ننتهي من هذا الأمر، ونرى ماذا سنفعل في هذه العقبة الشاقة، وبالطبع أنتِ يا سندس ستعودين أدراجك أخيرًا، وستجلسين في الضيعة بجوار عائلتك، ولكن عليكِ أن تأتي غدًا لنُكمل حديثنا هذا.

وافقا كليهما على كلمات قنديل، وانفضَّ الجَمع بعد أن همَّ كل منهما على النهوض والمغادرة أيضًا، لكي يتركاه يتجه إلى حارث ليذهبا سويًا إلى هذا الساحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسفل سماء قاربت الشمس على الزوال منها ومغادرتها، اجتمع قنديل عند مقر الهيئة بحارث وبرفقته بضعة عشر رجلًا من الحامية مُسلَّحين جيدًا وملقّنين بالتعليمات، ثم هنيهة من الوقت وبادروا جميعًا في السير من مكانهم وتحرَّكوا.

على خَطى وتوجيهات حارث ساروا واحدًا تلو الآخر صوب بيت حجري صغير الحجم مسقوف بأعمدةٍ خشبية متينة يوجد بالقرب من مكان السوق، فما إن اقتربوا تمامًا منه حتى أمر قنديل منفعلًا أحد العساكر أن يكسر ذاك الباب القصير مباشرةً، فنفَّذ الأمر تلقائيًا، لكي يتَّسع الطريق على مصراعيه أمام العمدة للدخول سريعًا إلى فناء هذا البيت بسيط الحال، ومن خلفه يتبعه مساعده ثم بقية الحامية.

تقابل قنديل وجهًا لوجه مع رجلٍ قصير القامة، بدنه نحيل للغاية، وبشرته حنطية خالصة، كان مُضطجعًا في منتصف بيته على فراشٍ قديم ولكنه فوجئ وصُدم حين وجدهم يقتحمون عليه خلوته هكذا من دون استئذان، لكن هؤلاء هم رُعاة البلدة! فلن يستطيع التفوُّه بشيء، فانتصب ووقف أمامهم مرتعدًا وقد التزم صمته في حين زاغت عيناه وبدأت أطرافه ترتعش من الخوف لمّا التفَّت العساكر من حوله وحاصروه.

اقترب منه قنديل وهو يُحدِّق في وجههِ جيدًا، ظل يتأمله مُغتاظًا لبضع ثوانٍ من دون أن يتكلَّم معه، فدنا منهما حارث هو الآخر لكي يقطع هذا الصمت بسؤاله بصوتٍ أجش:

- ما اسمُكَ؟

دارت نظراته بريبةٍ شديدة إليهما كأنه فقد النطق للحظات، ثم أجاب عليه بعد ذلك بخوفٍ جعل نبرته خافتة:

- بخيت.

- ولمَ أنت هنا الآن؟

- أنا غريبٌ عن أهل البلدة، جئتُ هنا فقيرًا على أمل أن أجد مأواي وزادي عندكم، ولكي تكون بلدتكم هي مرتعي الدائم.

حينئذٍ أشار قنديل نحو العساكر الملتفين حوله وهو يقول متوعِّدا:

- إن لم تُجب على سؤالي القادم بصدق، فسأجعل هؤلاء يقتلونك الآن ثم تُدفن في مكانك من دون أن يعلم أحد.

فأومأ بخيت برأسه موافقًا والفزع جليّ عليه، فتابع قنديل:

- من المتسبب في الضباب الذي اجتاح البلدة؟

اتسعت حدقتا بخيت، وتفاقمت الصدمة والرهبة داخله، وصار غير قادر على تمالك نفسه أمامهم، فبدا للحظاتٍ ساهمًا في الفراغ من حوله لا يعلم ما المتوجِّب عليه فعله. كرَّر العمدة سؤاله مجددًا باقتضاب؛ فانتبه بخيت إليه وقد ازدادت سرعة أنفاسه في الخروج من صدره، مثل ازدياد قلقه تمامًا، وذلك قبل أن يُجيب أخيرًا متلعثمًا:

- سأقول كل شيء. كما أخبرتكم فإنني جئتُ إلى هنا فقيرًا، لا أملك ثمن زاد يومي ولا مكانًا أقيم فيه، صرتُ أتنقَّل في البلدة لمدة يومين كاملين بُغية سداد جوعي من

هذا وذاك حتى أجد عملًا لكي تعتدل الأمور، فقابلتَ حينها تاجرًا في السوق، لمّا علم أنني أُجيد السحر أخبرني أنه سيقوم بتوفير بيت صغير أمكث فيه، ومال أُسيّر به أموري في هذا التوقيت، وذلك مقابل أن أقوم له بأمرٍ واحدٍ فقط، وهو تنفيذي لتعويذة تصيب الضرر بأكبر عدد من أهل البلدة وتقضي عليهم، فما كان أمامي من خيار آخر غير القبول، وبالفعل نفَّذتُ هذا، وسريعًا، والبقية تعلمونها.

صاح حارث:

- لا نعلمها، مَن هو هذا التاجر؟ تحدَّث.

تردَّد بخيت لوهلة، ولكنه يعلم أنه لا يوجد أمامه مفر منهم، فأجاب:

- تاجر غلال، يُدعى يافث، لـ...

فقاطعه حارث قائلًا:

- كيف؟! لقد كان في السجن قبل أن يحدُث ذلك.

- كلا، ما أخبرتكم به كان قد تم قبل أن يُقبض على يافث، ولقد تسلَّمت منه هذا البيت وأخذت منه المال وكميةٍ بسيطة من الغلال بعدما انتهت استجوابات مقتل ابن العمدة بيومين أو أكثر، لا أتذكَّر بالضبط.

اندهش قنديل وبُهت حين وقعت هذه الكلمات على مسمعه، رمق حارث بجواره فوجده مشدوهًا غير قادر على استيعاب هذا الخبر هو الآخر، يافث الذي أُنقذت روحه وتم إبعاده عن طريق الموت منذ ساعاتٍ معدودات هو الذي تسبَّب في كلِّ ما فات!! كان هذا غير معقول تمامًا بالنسبة لهما.

أكمل بخيت:

- سأخبركم أيضًا سببًا آخرَ جعلني أذعن له، علَّكم تكونوا رحماء بي بعض الشيء، لقد أخبرني أنه يُريد فعل ذلك تنفيذًا لوحي جاء له في منامه ذات يوم، استفسرتُ منه عن ماهية هذا الوحي، فقال لي حينها إن طائرًا ضخمًا أزرق اللون لم يرَ مثله من قبل هبط عليه من السماء، وترك له لفافة ورقية كبيرة بين يديه ثم وقف على كتفه الأيسر، فتح اللفافة وبدأ يقرأ ما بداخلها، فوجدها مرسالًا له من والديه في الأعلى، يُخبرانه داخلها أنهما يريدانه أن ينتقم لهما من أهل البلدة جميعًا، يقتلهم ويقتص منهم لأنهم مَن أسهموا في موتهما بسبب بُخلهم الشديد وعدم مساعدتهم لهما، ورفضهم للوقوف بجانبهما في الضائقة التي مرَّا بها، وهكذا سيرقدان آمنين، وتغمرهما الراحة المطلقة. وحين أن انتهى من القراءة أخبرني أنه ردَّ وقال بالضبط "لن يمُر الكثير حتى أقوم بذلك، وآتي إليكما"، فلمّا قالها سقط هذا الطائر الغريب بثقلهِ بين يديه وقد أسلم روحه ومات، فاستيقظ من نومه فزِعًا وخائفًا، لكنه عزم أن يُنفِّذ ما أمر به.

زمَّ قنديل شفتيه منزعجًا وهو يُفكر مليًّا، ثم لحظاتٍ وأمر حارث قائلًا:

- ارحل الآن أنت ورجالك، والغد تَلقون القبض على هذا الوغد، ليس الآن حتى لا يُثار الجدل أكثر بين الناس، واتركني الآن مع بخيت.

وافق حارث سريعًا وانسحب بهدوءٍ تام هو ورجاله مُطيعًا للعمدة من دون أن ينبِس بكلمةٍ واحدة. فأخذ قنديل نَفَسًا كبيرًا ملء صدره، وزفره بتروٍّ، ثم تابع وقد قطّب حاجبيه:

- حسنًا، كما قُلت، سنكون رحماء بكَ، فسأتركَكَ وشأنكَ في هذا البيت، ولن تلقى جزاء فعلتك.

تهلَّلت ملامح بخيت وانقلب حاله للنقيض تمامًا، هدأ قلبه المرتجف وبدأ خوفه يقل تدريجيًا ليفترَّ ثغره بابتسامةٍ صغيرة ابتسم على إثرها قنديل الذي أكمل مرةً أخرى:

- لكن بشرطٍ واحدٍ أيضًا، لقد أثبتَّ أنك ماهر في السحر، وأنا أريدكَ في مهمة لن يستطيع القيامِ بها غيركَ، فهي أهم بكثيرٍ من البلدة وأهلها وما حدث لهم، وإن أفلحتَ في إنهائها فلكَ جميع ما تأمله، وأكثر.

هزَّ بخيت منكبيه قائلًا من دون تفكيرٍ كثير:

- وما تكون يا صعلوك بَين الملوك!

فسعل ثم أكمل مجددًا وهو يومئ برأسه:

- هه، موافق.

فابتسم قنديل وربَّت على كتفه، ثم رحل مباشرةً بعد أن قال له أخيرًا:

- تأتتي السراي غدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما انتهى من لقائهِ الحميم الذي لطَّف من صفو مزاجهِ، وأعاد لهُ الأمل مرةً أخرى، وأعطاه دفعةً قوية للأمام، اللقاء الذي لن يُفارق ذاكرته قط، رجع يافث إلى أدراجه مجددًا عائدًا من الضيعة، ولم يتجه صوب مكانٍ آخر. اضطجع بظهرهِ على أريكةٍ عريضة ترتكز على الحائط في منتصف بيته بعدما تجرَّع قدرًا كبيرًا من قنينة المياه بُغية إراحة جسده المُتعب، ومن ثم إعطاء رأسه فرصة ثمينة من أجل التفكير بهدوءٍ فيما حدث اليوم، وما مرَّ عليه في الفترة المنقضية، فلن يرتاح جسده كليًّا إلا مع راحة رأسه أيضًا بانتهاء معركة الأفكار المتضاربة والمتزاحمة داخله، التي تُسبب له القلق طوال الوقت فلا تجعله يهنأ، فتضيق عليه آفاق روحه وتسود العتمة داخلها بعد كل هذا الكم من الهموم والهزائم والانتكاسات المتتالية في الدهليز الذي خُصص لمسار حياته.

صار يافث يمقت مثل هذه الأوقات، التي طفقت تراوده كثيرًا في الأيام الأخيرة، الأوقات التي يعصف فيها عقله وابلًا من الأفكار النزقة، التي تُشتته وتجعله حائرًا مترددًا في أمره، ومن ثم تجعله عاريًا ضعيفًا أمام ذاته حينما يُحصي أخطاءه وسقطاته، فيزداد ضيقه أكثر ويندم عليها أشدّ الندم، غير خذلان البعض له في آونة

لا تحتمل هذا أبدًا، وعلاوةَ على الفشل في تحقيق أحلامه وأمنياته. ثم يلي ذلك البُغض الأكبر، الذي يُدركه حين مجيء جيش التساؤلات ومحاسبة الذات له يوميًا كالمعتاد قبل الحلول في سُباتٍ يبتعد فيه عن العالم، فحينها يتم سَكب جُلّ عَبَراته ليتحطَّم ما قد نجا منه بقيَّة اليوم.

ولكن يتوجَّب عليه فعل ذلك الآن، الحديث مع نفسه حاليًا سيكون في هدوءٍ تام على عكس المرات السابقة. فهو عائد لتوِّهِ من عند شمس التي صار طوال الطريق من عندها وحتى انتهى إلى بيته يُفكر فيها وفي حديثه معها، فشمس بالنسبةِ إليه هي الشيء الوحيد الذي لا يحمل تجاهه تيهًا وحيرة مثل الباقي، هي اختياره ومُبتغاه وقراره الصائب، فيقول لذاته في نهاية الأمر: "أجل، إنها هي ولا أحدٌ غيرها، هي التي واجهت عيناها مظالم وافتراءات عديدة دُسَّت في جنبات قلبي لكي أحاول تعويضها بما هو أفضل وأنقى من ذلك، بما تستحق ملاقاته. أجل هي المُراد، هي لُطف الكلام، وهي المنأى الذي يُحوِّل كل سوءٍ إلى منفعة".

أسند يافث يديه المتشابكتين اللتين ترتعشان خلف رأسه، وتوسَّدهما، وغاب ببصرهِ ناظرًا إلى أعلى، هائمًا وهو يُحدِّث نفسه بصفاءٍ داخليّ بعد أن زفر آهةٍ مسموعة: "أيقنت الآن بعد انقضاء الفترة الماضية بامتناني الشديد إلى هذين اليومين المهمين أولهما حين جاءني ذاك الوحي الذي أهداني إلى أخذ حق والديّ، وإنهاء غضبي تجاه هؤلاء الذين كانت لهم يدّ في موتهما، والآن أنا راضٍ كل الرضا، فبالرغم من أن هذه الرؤيا تحققت وأنا في السجن ولم أرَ بنفسي، إلا أن هذا لا يَهُم، المهم فقط أنها تحققت وتمَّت لكي تستطيعا يا مَن أفتقدهما كثيرًا أن تهنآ وتستريحا حتى يأتي موعدي وأصعد إليكما ويكتمل جمعنا الذي لم يُحدث من قبل. أما الثاني فكان حينما قابلتُ هذه الشمس الجميلة المشرقة دومًا لأول مرة على قبيل الصدفة، صدفة أسهمت في جعلي أتحمَّل وأصبر على هذه الأيام الثِقال. كنتُ آمل كثيرًا يا أبويّ أن تكونا حاضرين لترياني مع فتاةٍ على يقينٍ تام من أنها لن تخذلني، سعادتي آنذاك ستكون مضاعفة، كنتُ أتمنى أيضًا أن تجدا ولدكما يوم زيجته وهو ناجح في حياته وتجارته ويحيا حياة هادئة وهنيئة. لكنني كنتُ، لا أستطيع فعل أكثر من أنني كنتُ أرجو هذه اللحظات".

هزَّ يافث رأسه بتنهيدةٍ طويلة، ثم اعتدل على الأريكة مرةً أخرى وقد وضع يديه الاثنتين على وجههِ، ثم فَرَك ثناياه جيدًا لكي يفيق من وجومهِ وتجهُّمهِ هذا، بعد ذلك مباشرةً نهض من مكانه قاصدًا الاتجاه نحو غرفته ليلتحف بدثار النوم بعد هذا اليوم الطويل علَّه يستريح بعض الوقت من هذه الضجة المُثارة داخله. لكن لم يحدث ذلك، لأنه تفاجأ حينئذ بصفعةٍ قاسية ليست على البال وهو لا يزال واقفًا في منتصف بيته بانكسار الباب الخارجي ودخول بعض العساكر منه بغتةً وَسَط ذهوله واندهاشه، اتسعت عيناه عن أخرهما وارتعد تلقائيًا، أطرق صامتًا من فرط توجُّسهِ ولم يستطع أن يتكلم معهم، فانقضَّوا عليه سريعًا بقوةٍ غاشمة من دون أن يعطوا له فرصة لاستيعاب ما يحدث، أمسكوه وأطبقوا على فمهِ ثم حملوه معهم وساروا به في خفيةٍ من هذا البيت إلى السجن ثانية، وهو غير قادر حتى على مقاومتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضيعة..

تجلس سندس القرفصاء في البقعة ذاتها بطرف الخيمة من الداخل كالمعتاد كل يوم بعدما تستيقظ من نومها بقليل. رمقت شمس أمامها مرتبكة في تحرُّكاتها ونظرات عينيها كأنها وقعت في الحيرة تجاه أمرٍ ما، ولا تجد هدى لما تفعله، فنادت عليها لكي تقترب وتجلس بجوارها وتطمئن عليها، فأذعنت شمس وفعلت ذلك سريعًا في خجل. فسألتها سندس آنذاك:

- ما بكِ؟ يبدو وكأنكِ تريدين أن تقولي شيئًا ما منذ الأمس!

راحت شمس تُقلِّب نظرها بين جدتها والأرض في تردُّدٍ بيّن، قبل أن تُجيب أخيرًا بصوتٍ خفيض:

- لقد عاد يا جدتي.

- مَن هو؟

- الفتى الذي أخبرتُكِ عنه، وستندهشين حينما تعرفين مَن هو بالتحديد!

ابتسمت سندس برحب، وقالت:

- الفرحة مرسومة على وجهكِ، وذلك سيُسعدني كثيرًا، أكملي.

فتحمَّست شمس أكثر، وتأهبت للقول مفترَّة الثغر:

- يافث، التاجر الذي حرَّرتماه قبل أن يلقى حتفه في يوم القصاص هذا، أشكُركِ كثيرًا يا جدتي على ذلك.

حينئذٍ أطرقت سندس مشدوهة، وتجمَّدت تعابيرها مثل الجمادات الصمَّاء بلا كلمةٍ أو حركة، لقد فوجئت واندهشت حقًا مما قيل لها، بل لم تُصدِّق سخرية هذا الرابط العجيب بين الحدث هنا وهناك! فأعطت نفسها حيِّزًا من الوقت لكي تُفكِّر جيدًا في ردٍّ مناسبٍ يُقلل من وطأة الخبر الذي يخفى على حفيدتها حتى الآن. فتعجَّبت شمس هي الأخرى حين وجدتها هكذا مرتابة ومتوجِّسة، فعاجلتها قائلة:

- ما بكِ أنتِ يا جدتي؟!

تنهَّدت سندس وابتلعت ريقها، ثم قررت أن تُنهي صمتها وتجيب على حفيدتها بما يجب أن تعرفه:

- اسمعي وتفهَّمي جيدًا. لمّا كنتُ عند العمدة أمس في المجلس الثاني بيننا، علمتُ منه ومن ساحرٍ هناك أن يافث هذا تسبَّب في حدوث مصيبةٍ أضرَّت بالبلدة وقضت على أرواحٍ عديدة فيها بلا ذنب، وتم القبض عليه مجددًا أول أمس، في اليوم التالي بعد عتقه من الموت مباشرةً، وحتى أكون صريحةً معكِ يا ابنتي فأنا التي توصَّلتُ لذلك، وحقًا لم أكن أعرف ما بينكما، الآن هو سيلقى حتفه لا محالة، ولا يوجد له مناص من مصيره بعدما كُشف أمره للعمدة، المرة الأولى كان مظلومًا، أما الثانية فلا، ويستحق فعلًا ما سيؤول إليه.

صفعة أخرى أشد قوة. فانتفضت شمس واكتست ملامحها بأسى دفين بعدما عَلت منها شهقة مصحوبة بعويلٍ جارف، صُدمت صدمة شديدة تفوق في حدّتها جميع ما مرَّ عليها سابقًا، فالأمل حاليًا كان مرتفعًا ليُضاهي هامات السماء، فبذلك تبدَّلت الغبطة والأمل إلى حُزنٍ وعجزٍ طريح الأرض تمرُّ عليه أقدام المشاة بلا انتباه. تلألأت عيناها بالدموع بوضوحٍ غير قادرة على أن تتكلَّم، وازداد نحيبها أكثر، فازداد وجهها حُمرة وهي تُحرِّكه يمينًا ويسارًا قائلة بشجن:

- لا، مستحيل!

خرجت هاتان الكلمتان من فمها بصعوبةٍ بالغة، فقد شعرت شمس أن الحياة ضاقت من حولها مجددًا، هذه الحياة التي لم تُنصفها قط، وتُقسم ألا تجعلها تحيا معيشةً رغدة، فقط تُصر على معاندتها وإيلامها بين الفينة والأخرى، وأسرها وحدها في صحراءٍ لا يضل بها ضال. شمس منذ لحظات كانت تنوي إخبار جدتها بهذا الرجل الذي تطمئن وتسعد بوجوده وتريد إكمال حياتها معه، فتلاقي هذا الخبر الذي وَقَع عليها كصاعقةٍ لطمت وجهها وحطَّمت فؤادها بكل قسوة.

انكبَّت سندس عليها وراحت تُقبِّل جبينها بلُطفٍ ثم عانقتها بودٍّ لكي تُطمئنها وتُهدّئ من روعها، قبل أن تستطرد:

- لا عليكِ يا صغيرتي، اصبري، وسيأتي لكِ القدر برجلٍ يستحقك وتستحقينه.

لم تنبس شمس ببنت شفة، وتفاقم استياؤها أكثر. فتابعت سندس:

- هذا الفتى لم يأخذ وقتًا كبيرًا في حياتك كما قلتِ، فستستطيعين تناسيه.

ظلت شاردة، فقط تستمع:

- ليس كل ما نأمله ونريده نحصل عليه، وهذا هو ما تعلَّمته في السنين العديدة الماضية، ويجب عليكِ أن تعرفينه يا ابنتي.

بحُزنٍ طأطأت شمس رأسها لوهلة، ثم رفعتها مجددًا بنظرةٍ تشي بالتوبيخ، وأردفت:

- حقًا أنا لا أعرف يافث منذ وقتٍ طويل، لكنني تعلَّقتُ به كثيرًا في هذه المدة القصيرة، وتمنَّيتُ وجوده الدائم، فقد رأيتُ أنه مَن سيكون بوصلتي في الحياة، الأمر ليس بالوقت الذي انقضى بيننا، بل بالاحتياج والشعور داخلنا، وهل هناك ما هو أجلّ وأنقى من الطمأنينة والاحتياج للحُكم على مشاعرنا؟! إنه أمر ليس بأيدينا لنُغيّره!

لاح الأسف على وجه سندس التي حزنت واغتمَّت بشدة، في حين أكملت شمس:

- وليس كل ما نحتاج إليه ونهواه ننساه بسهولةٍ كأن شيئًا لم يحدُث في يومٍ من الأيام، كيف ننسى تلك النظرات المتبادلة بيننا؟ كيف ننسى هذه الكلمات التي تخرج من أفواهنا لتذهب مباشرةً نحو قلوبنا وتستقر داخلها؟ كيف ننسى آمالنا وترتيباتنا لما هو قادم؟ كيف ذلك؟ كيف؟

ثم تبدَّلت نبرت صوتها إلى النقيض على حين غرَّة، وأضافت بحُرقة:

- ظهرتِ بعد غيابكِ لكي تنقذيه، ثم بعدها مباشرةَ تسببتِ في موته، لمَ ذلك يا جدتي؟!

سندس في مأزق، ولا تجد ما تقوله، فبما يُجدي القول الآن؟ إنها على دراية كاملة بما تشعر به شمس من معاناةٍ وانكسارٍ وخيبة أمل. فدنت منها بقلبٍ ينادي بشفقةٍ عليها، وضمّتها إلى صدرها وربَّتت علَى ظهرها بعطفٍ وحنان، حتى تقول لها من دون حديثٍ إنها لا زالت بجوارها ولن تتركها ثانيةً وأن ما حدث لم تقصد به شيئًا إطلاقًا. ولكن شمس لم تسكن أو تهدأ، فقد استمرَّ بكاؤها الحار، تسكب دمعها الذي يغادر مقلتيها التعيستين بغزارةٍ في مواساتها، ولم ينقطع سوى مرة واحدة فقط، لمّا همست بصوتٍ متقطِّعٍ على إثره وهي قابعة بين كتفيّ جدتها:

- القدر لم يسمح بوجودكَ جانبي، أعلم أنكَ كنتَ تريد ذلك، لكن العالم أبى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البلدة..

مع حلول الليل بظلمته وهدوئه كان قنديل وحارث قد امتثلا بأنَفَةٍ وعلوّ شأنٍ أمام يافث المُلقى على أرض الزنزانة في السجن مكبَّل الأيدي في مهانةٍ واحتقار، ومن خلفهما يقف ثلاثة عساكر. بدا يافث صامدًا لم يهتز بالرغم من خوفه وارتباكه وصدمته في البداية، لأنه رغم عودة الأمل إليه تجاه حياته بعد يوم القصاص فإنه ظلَّ مدججًا باحتمالاتٍ شنيعة تجاه مصيره النهائيّ طوال الوقت، فانزاحت صدمته ورهبته سريعًا وكأنه قد تعوَّد على السقوط من أعلى الحافة كثيرًا، وأَلِف مثل هذه الهزائم وتوقَّعها فلم يتأثَّر بها. دنا منه قنديل بضع خطواتٍ وعيناه تملأهما نظرات انتصار وتوبيخ في آنٍ واحد، ثم هدر بصوتهِ مُعنِّفا إيَّاه:

- لقد أنقذكَ رجل الكهف والعرَّافة يوم القصاص، ولكن مصيركُ يصمم أن يؤول إلى الهلاك.

رمقه يافث بنظرة ازدراءٍ ولم يأبه له، فتابع العمدة:

- ستُقتل، في الخفاء ومن دون علم الناس، لأنكَ الخاسر الذليل بما فعلته.

فولّى يافث وجهه بالتقاء قنديل آنذاك، ثم أردف مبتسمًا من زاوية فمه:

- يحدث ما يحدث، فهكذا انتصرتُ.

امتعض قنديل وزفر أنفاسًا ثائرة أثناء رميه يافث بنظراتٍ تحمل بين طيّاتها معانيٍ عديدة، ثم رفع يده اليُمنى لأعلى إشارةً منه إلى العساكر من خلفه فأتوا إليه مباشرةً، ليحتدم صوته حينئذٍ في قوةٍ ووضوح وهو يأمرهم:

- انهوا الأمر، فورًا.

ثم عاد بظهره إلى الوراء مرةٍ أخرى متأنيًا بخطى ثابتة، ووقف بجوار حارث. التفَّت العساكر حول يافث سريعًا، اثنان منهم أمسكاه ثم أوقفاه بينهما في استسلام تام منه، ثم انتصب من أمامه ثالثهم الذي سرعان ما أدخل يده بين سترته وأخرجَ منْ

داخلها خنجرًا حادًا بتحفّ شديد. انهار يافث تلقائيًا واستحال وجهه بلا دماء، وبدأت أنفاسه تتسارع بشدة، مثلها مثل دقات قلبه المرتعد الذي انفلت منه زمام الأمور ولم يَعُد قادرًا على التماسك ثانيةً، لكنه أيضًا بالرغم من ذلك لم تترقرق من عينيه دمعة واحدة، ولم تنبثق من فاهه آهة، فقط ينتظر تعجيل قضاء أمره المحتوم.

مرت وهلة من اضطراباته البادية على وجهه بوضوح، حتى رفع العسكري خنجره عاليًا بنظراتٍ حادة وقلبٍ جافٍ غليظ، ثم هوى به سريعًا بعنفٍ وقسوةٍ على رقبته التي انفجرت منها الدماء بغزارة لتكوِّن بعد سقوطها بركة كبيرة تُزيِّن الزنزانة. تهدَّم جسد يافث وارتمى على الأرض ساقطًا على وجهه جاحظ العينين بين دمائه التي تكوَّمت حوله، لم تجد روحه وقتًا كافيًا لكي تكافح في نزوحها من جسده، فقد تهدج صدره فزعًا، وتهدجَّت أنفاسه هلعًا، وجعل يلتقط ما تبقى منها بصعوبةٍ بالغة في ثوانٍ معدودات قبل أن تنتهي تمامًا، وتتوقَّف، ويلقى حتفه ويهلك.

بعد ذلك أمر حارث هؤلاء العساكر أن يأخذوا جثة يافث في خفاءٍ عن أعين الناس، ويتجهوا بها في عُجالةٍ صوب المحرقة، لتتم مراسم دفنه هناك، ثم يعودوا مجددًا كل إلى مكانه، ولا يتحدثوا فيما حدث إطلاقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ذلك خرج قنديل وحارث من السجن سويًا، وسارا في دربهما مبتعدين عنه.

- الآن انتهينا من هذا التاجر وقد لاقى جزاء فعلته، فماذا بعد؟

استهلَّ بها حارث الحديث أثناء سيرهما، فردَّ عليه قنديل مُجيبًا بعد صمتٍ لم يَدُم كثيرًا:

- قبل أي شيء، علينا ألا ننس خلافنا مع المستعمرة.

- لا تقلق، توصَّلتُ لخطةٍ معهم أرى أنه لا يوجد غيرها أنسب لنا ولهم.

- ما هي؟

- سأجلس مع...

فقاطعه قنديل مشيرًا بيده للسكوت، ثم قال:

- رأسي لا تحتمل الآن، أثقُ بكَ تمام الثقة، فافعل ما تراه نافعًا لنا.

فقال حارث بإيماءةٍ خفيفة:

- حسنًا، سأذهب إلى المستعمرة في صباح الغد، وأُنهي كل شيء.

- جيدٌ، سأنتظر مجيئك. لكن قبل ذلك عليكَ أن تُتم تجهيزات المجلس من أجل بخيت الساحر وسندس العرَّافة كما طلبا أمس في اجتماعهما معي في السراي، لنستطيع هكذا أن ننتهي من النصف المتبقي لهذه المعضلة الشاقة، ونرتاح من هذا الضجيج.

- لا تقلق، سيكون كل شيء في أفضل حال.

حينئذٍ كانا قد وصلا إلى مفترق طرق، فودّع حارث قنديل ثم تركه واتجه إلى بيته لكي ينال قسطًا من النوم، ليهم العمدة في فعل ذلك هو الآخر سيرًا على قدميه في مرةٍ لا تتكرر كثيرًا، يناجي نفسه ويُفكِّر بتروٍّ أثناء مشيه، فوصل إلى السراي بعد حينٍ طويلٍ من الوقت.

صعد قنديل الذي بدا عليه التعب ودلف إلى غرفة نومه مباشرةً ولم يَحيد إلى مكانٍ آخر، فوجد على الفور سوزان زوجته جالسة على فراشهما ولم تتم بعد، الأرق لم يفارقها قط منذ أيام لمّا حلّ عليها، فصار وجهها شاحبًا، وملامحها قاربت على أن تذبل وعيناها أوشكتا أن تشيخا. اقترب منها قنديل قبل أن يُبدّل ملابسه ثم جلس بجوارها وراح يمسِّد خصلات شعرها المنسدلة، وهو يقول:

- اطمئني، ما حدث في يوم القصاص لا يعني أننا عجزنا في أخذ حق ابننا، هذا فقط كان تأجيلاً لبضعة أيام، فلا تقلقي حبيبتي.

كعادة سوزان أجهشت في البكاء، فكلما تُذكر سيرة ولدها غيث تشعر بغصةٍ مؤلمة في قلبها، رغم أنه لا يُفارق عقلها قط. فهمَّ قنديل سريعًا في ضم يديها وتقبيلهما، ثم معانقتها عناقًا حارًا شعر من خلاله بالأنين المكتوم داخل صدر زوجته، فازداد حزنه هو الآخر على حالها حزنًا إضافيًا بالرغم مما هو تائه فيه. تمتم في أذنها:

- أعدُكِ يا حبيبتي، وحينها ستعودين سوزان التي عاهدتها دومًا.

ثم ربَّت على كتفها بحنانٍ بالغ وهي لا زالت بين ذراعيه تبكي، بعد أن وارى غلظته وحدَّته خلف حبه وإخلاصه الشديد لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المستعمرة..

يجلس ضوي بزهوٍ على مكتب الراعي متكئًا بظهره على كرسيه، وعلامات الذهول لا زالت تثب على وجهه بعشوائية منذ جاء إليه حارث في زيارةٍ لم تخطُر على باله قط. وافق ضوي على إجراء هذه المقابلة بينهما بعد أن أبدى حارث سماحة موقفه وصفاء نيّته بحضوره أعزلَ وبمفرده رغم عدم إفصاحه عما وراء هذه الزيارة من سر خفيّ، فسريعًا أمر الأستاذة بالمغادرة اليوم من دون أن يُعطيها أجرها متحججًا أن درسها لم يكتمل بعد، ثم أعطى الإذن للمراقبين من أجل جمع الصبايا وتقييدهن في مكانهن المُخصص لهن بالأعلى، حتى يتسنَّى له الحديث مع مساعد العمدة في مناخٍ مناسبٍ وأريحيةٍ تامة بعيدًا عن الضوضاء.

بلا مقدمات استهل حارث كلامه قائلًا بنبرةٍ حادة:

- أعلمُ أنك تحتاجنا، ونحن نحتاج بُعدكَ عنا.

لم تكُن كلماته على هوى ضوي، فاستاء منها، وأراد أن يُكشّر عن أنيابه. فصاح:

- لا تظن أن مقتل الراعي سيمُر هكذا، بإمكاني قتلُكَ الآن، ثم قتل عمدتُكَ بعدكَ.

ابتسم حارث بثقة ولم يكترث لتهديده، ثم قال:

- جميعنا نعلم أنك أكثر الناس سعادةَ بمقتل الراعي، فأنتَ مَن سيأخذ مكانه.

امتعض ضوي ولم يَرُد. فتابع حارث:

- بل أنتَ أخذت مكانه بالفعل من قبل أن يُقتَل.

- ماذا تريد؟

- نتقابل في منتصف الطريق، بحلٍ يُرضي كلانا.

لم يفهم ضوي مقصد حارث الذي ظلَّ يُحدِّق تجاهه بهدوءٍ مريبٍ للغاية، فسَهَمت عيناه والتزم الصمت، وآثر أن يستمع له وهو يوضِّح:

- بدلًا من استنزاف قوانا أكثر من ذلك في هذه الخصومة، علينا أن نُنهيها بما يناسب الجميع، وأنا عندي الحل الأفضل. نحن قضينا على الراعي وأخذنا ثأرنا منه، وأنت بدورك سرقت مالنا كله، فما سيحدُث الآن هو أنكَ ستعيد ما تبقى عندكَ من هذا المال وتنهي هذه الخصومة، مقابل أننا سنتركك وشأنكَ تحلّ محلّ الراعي وتصبح أنتَ الراعي الجديد وحاكم هذه المستعمرة، وبالإضافة لذلك ستعود الأمور بيننا إلى ما كانت عليها سابقًا، فستعودون لمتابعة عملكم وإكمال تجارتكم في البلدة مرةً أخرى مع التسهيلات التي كنا نقوم بها معكم، ومع مرور الوقت ستعوّضون هذا المال. وهكذا تنتهي هذه المعركة القائمة بينا ونتحاشى بعضنا البعض، أنتم في طريقكم كما كنتم، ونحن بعيدًا عنكم كما كنا.

شَرَد ضوي ببصرهِ وعَقَد حاجبيه جرَّاء ما قيل له، ثم غاب بعقلهِ بعيدًا عن حارث يُفكِّر بعُمقٍ ويحاول هضم هذا العرض الذي يُعَد حدثًا فاصلًا فيما سيجري في الأيام المقبلة، هذا الحديث الذي مرَّ على خاطره من قبل كذلك، لكن كان مرورًا بلا أثرٍ آنذاك، وحاليًا ها قد عاد مجددًا حاملًا أهمية هذه المرة. فلمْ ينقضِ وقت طويل في هذا الوضع، حتى اهتدى ضوي إلى قراره سريعًا فاعتدلت ملامحه وتبدَّد ضيقها ووجومها، ثم ابتسم بخُبثٍ ملء فمه، وانبسطت أساريره علامةً منه بالإيجاب، فقد رأى داخله أن هذا حقًا هو التصرُّف الأفضل، ليستطيع أن يُعلي شأنه فيما بعد أكثر وأكثر، بعيدًا عن عِراكٍ لن ينتهي مع البلدة أبدًا، ولن يُخلِّف بعده شيئًا سوى الخسائر.

فأصدر ضحكة مدوية بصوتٍ عالٍ، ثم أردف بهزةٍ بطيئة لرأسه:

- حسنًا، اتفقنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البلدة..

جاد رجُل الكهف، وسندس عرَّافة الضوم، وبخيت الساحر. يجتمع ثلاثتهم في بيتٍ صغير الحجم هيئته جيدة يقبع مكانه في أقصى شمال البلدة، ويُعَد من أملاك العمدة، وهو البيت الذي خُصص من أجل أن يُقيم فيه جاد هذه الأيام إلى أن ينتهوا من هذا الأمر تمامًا بلا رجعة، ويتم حل المعضلة نهائيًا.

كان حارث قد أعدّ لهم مجلسًا في منتصف البيت، أحضر فيه كل شيء كما طلبوا وأرادوا بالضبط، فجلس ثلاثتهم على هيئة مثلثٍ رأسه يقبع عند بخيت، وجميعهم من حول منضدة دائرية الشكل مُغطّاة تمامًا بجلد الغزال، ويرتكز في منتصفها بالضبط صحن نحاسي صغير أُلقي فيه العديد من الأبخرة والأعشاب، فظل يتصاعد منه دخان هائل عبَّأ أرجاء المكان كله كسحابةٍ بيضاء يشوبها بعض السواد.

همَّ بخيت بحمل حبَّات الرمال الحمراء بين يديه من السطل المجاور للمنضدة، ثم راح بطريقةٍ مُنمَّقةٍ وسرعةٍ فائقة يرسم بها على ذاك الجلد مثلثات متداخلة كوَّنت في النهاية أشكالًا سداسية الرؤوس، بعد ذلك أخذ عود البوص الصغير ثم غمسه في المحبرة ذات الحبر الأحمر وطفق يكتب داخل هذه الأشكال حروفًا عشوائية ويرسم أشكالًا غامضة بحجمٍ صغير للغاية حتى ملأ جميع الفراغات الموجودة داخل تلك الرمال.

بَلَغ بخيت نهاية إعداد المناخ وتهيئته لهما. وأول ما بدأ في فعله كخطوةٍ ابتدائيةٍ هو ترتيله لطلسم من أجل إزاحة الغشاوة من على أحجار سندس تحسُّبًا إن كان ذلك يحدث بفعل فَاعل، لكي تتسنَّى لها الرؤية والقراءة جيدًا. ولمّا انتهى مباشرة استهل الخطوات التالية بقراءته لبعض الطلاسم والتعويذات مُحرِّكًا يديه أعلى ما خطَّه على المنضدة من أمامه، بجانب سندس التي راحت تضرب أحجارها بطريقتها المعتادة، من أجل أن يصل كليهما في أقرب وقتٍ إلى الخفيّ في الأمر، وإلى ما ينجلي خلف مرأى جميع مَن في البلدة، ويكتشفون ماهيته الغامضة، وَسَط تمعُّن شديد ومتابعة دقيقة من جاد الجالس بجوارهما.

راود بخيت وسندس في البداية إخلال وضجة في الرؤية كما كان يحدث من قبل، وظلَّ يتكرَّر هذا لبعض الوقت لكنهما لم يتأثرا بذلك وأكملا رغم صعوبة هذا التكليف عليهما، حتى تبدَّل الأمر رويدًا رويدًا وبدأت تُكشف لهما تفسيرات جديدة ومختلفة تارة، بالإضافة إلى إطلالة نفس الخنزير المُلطَّخ بالدماء الذي كان يظهر من قبل تارةٍ أخرى. بعد ذلك بهنيهةٍ من الزمن استطاعا أن يَعبُرا ويصلا في النهاية إلى الضفة الثانية من الرؤية، إلى معرفة المجهول وكيف سيتم حل العقدة، فقد استحال تعسُّرهم إلى تمكُّنٍ يسير، وتوصَّل كلاهما إلى الشيء ذاته في الآن ذاته بعد إخفاقٍ قابلهما في البداية لكنه لم يَدُم كثيرًا، كان شيئًا احتسباه سريعًا أنه الخيط الذي سيتتبعانه إلى أن يصلا في منتهاه لمعرفة الفاعل الحقيقيّ، ثم كشفه للجميع.

تبادل بخيت وسندس تلك الرؤى سويًا، ثم تم عرضها بوضوحٍ على جاد وتناقشوا حولها. بعد ذلك استطرد الأول:

- هذه الكلمات السُفلية مدسوسة في البلدة.

فردَّت عليه سندس:

- يجب أن نتخلَّص منها في أقرب وقتٍ ممكن، بعدما نعرف الاسم منها.

- بالضبط.

ثم وجَّه نظره صوب جاد قائلًا على عجل:

- سأذهب أنا وسندس من أجل إنهاء ذاك الأمر بالطريقة المُثلى، وعليك أنتَ بالذهاب إلى العمدة وتبليغه بما حدث؛ ليطمئن.

فأومأ جاد برأسه ببطءٍ ناتج عن قواه الواهنة، ثم نهض معهما في صمتٍ ليغادروا جميعًا هذا البيت، كل خلال مساره كما عقدوا الاتفاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لفترةٍ ليست وجيزة، استمرَّ تبادُل أطراف الحديث باستفاضةٍ بين أهل الرأي وخمسة رجال من الحامية يُعدّون من كبار عساكر حارث وأهمهم شأنًا، بعثوا مرسالًا إلى عثمان صباح الأمس من أجل إتمام هذه الجلسة للأهمية القصوى، ولأن معاناتهم قد بلغت الحلقوم وهوى صبرهم إلى الحضيض كما زعموا، فتمت تلبية ندائهم سريعًا. كان الحوار يسير على نحوٍ هادئ، وإذ فجأةً، تحوَّل هذا الهدوء السائد بينهم منذ البداية إلى جلبةٍ ثقيلة الاحتمال، عندما صاح عنتر متذمِّرا:

- لقد طفح الكيل، إننا المخطئون حتى الآن بصبرنا هذا!

ثم تبعهُ رزق قائلًا بالنبرة ذاتها:

- أخشى ممن في البلدة أن يحتسبونا متواطئين معه!

حينئذٍ أربد وجه عثمان فنهض من مجلسه بتؤدةٍ شديدة وهو يُشير إليهما بالسكوت، ثم سمح لهؤلاءِ العساكر بعدما أفرغوا ما بجعبتهم بالمغادرة الآن على أن يُرسل لهم بالحضور ثانيةً في أقرب وقت، فيكونون في الانتظار. بعد ذلك مباشرةً عاد مُطرقًا إلى مكانه مجددًا ويبدو على قسماته الوجوم جليًّا للجالسين جواره، فارتفع صوت جعفر آنذاك مستنكرًا:

- الرجل الذي قُتل يوم القصاص هو المُتسبب في اختفاء الصبايا الغامض من البلدة في الأعوام السابقة، يا لحسرتي! عُمدة البلدة كان يتعامل من دون علمنا مع رجلٍ عديم الإنسانية بتسليم بناتنا له من أجل حفنةٍ من المال! لم أرَ جرمًا أدنى وأحقر من هذا!

فعقَّب بشير عليه:

- وبسبب اختطاف قنديل له أجرت حاشيته الهجوم على بيت المال، وسرقونا! لذلك لم يُخبرنا بماهيته قبل يوم القصاص، فقط قال إنه تاجر من خارج البلدة، ثم أخفى أمر المتسببين في الهجوم كأنه لم يتوصَّل لشيء حتى لا نكتشف فعلته، ونحن صدقناه، لقد خدعنا هكذا مرة أخرى!

ثم أضاف رزق متهدِّجًا:

- لو كنا نعلم حينها لما أذعنّا له، وما أقمنا يوم القصاص قط!

ليتابع بعده عنتر الذي قطَّب جبينه:

- يوم القصاص الذي ظهر فيه رجل الكهف وعرَّافة الضوم في ظاهرةٍ غريبة وقالا كلامًا أشد غرابة، ولم يدعنا نعرف شيئًا عما يفعلونه سويًا وما دار بينهم إلى الآن، الوضع مريبٌ للغاية!

بتتالٍ ومن دون انقطاع، ازدادت مزاحمات الحديث إزعاجًا وإيلامًا كأمطارٍ متوقِّدة السخونة تهطل بغزارةٍ على رأس عثمان الذي ظلَّ كما هو منذ أن رحل العساكر، هائمًا يُفكر وحده بتريُّثٍ في منأى تمامًا عن الباقين. سأم مما يجري حوله الآن، فرفع وجهه ومرَّرهُ نحوهم جميعًا، ثم أردف:

- لن نُعدّد الأخطاء والجرائم ثانيةً، لقد انقضى الأمر.

انتبهوا إليه مترقَّبين، فأكمل بحزم:

- من الممكن أن يطول الضرر بعضًا من الأبرياء، لكن لا يَهُم، عليهم أن يضحوا من أجل البلدة، فما سيتم هو المفر والخلاص من هذه العقبات الوَعِرة، لنبدأ بعدئذٍ المضي في دربٍ جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أحرِّ من الجمر، يجلس قنديل مُترقِّبًا في سراياه وقد سيطر عليه القلق واضطراب البال وهو لا يزال ينتظر مجيء الخبر اليقين إليه بفارغ الصبر، فبلغ الانزعاج أشدّه جرّاء رأسه الذي يشتعل بحُرقة، فحرارة الانتظار أشد تأجُّجًا من موقد النيران. سَمِع نداء أحد رجاله من الخارج باقتراب حضور رجل الكهف، فنهض من على كرسيه منتبهًا يتوق لتعجيل ولوجه إليه، فلمّا حدث هذا بعد حينٍ قصيرٍ من الوقت وطلَّ جاد الأشيب أمامه، شرع في الحديث مباشرةً متسائلًا بشغفٍ:

- ماذا حدث؟

التقط جاد أنفاسه، ثم أجاب:

- اطمئن، لقد أتمّوا الغرض.

- وأين هما الآن؟

- هنالك رسالة تحتوي بداخلها على عباراتٍ هي التي كانت العامل الأكبر فيما جرى، وها قد ذهب كل من بخيت وسندس لكي يُخرجاها من مكانها، ويكتشفا الشخص الذي كتبها، ثم التخلُّص سريعًا منها.

شرد قنديل ببصرهِ بعيدًا عن جاد، وهو يكبح انفعاله ويُتمتم:

- جيدٌ، هذا يعني أن معرفة القاتل باتت وشيكة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انزوت الشمس خلف أدراج السماء وحلَّت ظُلمة الليل، فلم تكُن الرؤية واضحة تمامًا وراء هذا البناء المتهالك المهجور منذ زمنٍ طويل، الذي يقف عنده حارث وثلاثة

من رجاله برفقة كلٍ من بخيت وسندس. هذا المكان المُقفر يقبع بالقرب من المحرقة، فكان البعض ممن يقفون الآن وَجِلين وخائفين قليلًا من لوثة الحكايات المنتشرة بين الناس عن خطورة هذه المنطقة وما يجري فيها ليلًا.

أعطى حارث الأمر إلى رجاله بالحفر جيدًا في المكان الذي أشار إليه بخيت، فانكفأ ثلاثتهم بأيديهم على هذه الأرض الجدبة وهمّوا بالتنفيذ والنبش سريعًا، إلى أن أحدثوا من أسفلهم حفرة كبيرة وليست بالعميقة، لكن وجدوا داخلها بالفعل ما جاءوا من أجله، لفافة ورقية طويلة كانت متوارية بين التراب، فأمسكها أحد العساكر ونظّفها جيدًا من هذه الأتربة، ثم نهض وقرَّبها من حارث الذي عاد بظهره للوراء وهو يشير له بأن يُعطيها إلى بخيت أولًا.

التقط منه بخيت هذه اللفافة بعلامات وجهٍ باردة، ثم قام بفك عقدتها وفتحها بتأنٍ بالغٍ وسَطَ ترصُّد أعين الواقفين حوله. نظر داخلها بتمعُّن، فوجدها كما كان يتكهَّنَ بالضبط، ورقة مكتوبٌ نَصِّها الذي هو عبارة عن طلسم سُفليٍّ بدماءٍ قاتمة السواد، طلسم لم يعِ مثله من قبل، فانشَدَه وذُهل بشدةٍ مما رأتهُ عيناه قبل أن يُسلِّم اللفافة بحالها إلى سندس، التي طفقت هي الأخرى تُمرِّر عينيها سريعًا بين طيَّاتها وهي غاضبة، فهدهدتها ضغائن شرِّها أكثر، ثم انكبَّت تُفكِّر في هذا السبب الجلل الذي يلزم لتأديته هذه الكلمات السُفلية ذات الجانب الغرائبي! قبل أن تتمالك ذاتها مجددًا وتفيق من شرودها ثم تستطرد بصوتٍ مسموعٍ هذا الاسم المكتوب في منتصف الورقة لذاك الرجل مدوِّن هذا الطلسم وخادمه ومُنفِّذه، فتلقَّت أذنا حارث الاسم ووضعته داخل ثنايا عقله محتفظة به، ثم تابعت سندس مجددًا بإيماءة:

- إذًا ها هي نهاية الخيط.

فردَّ عليها حارث محتدمًا، والغضب يتطاير من فوَّهتيّ عينيه:

- إنه مُربِّي الخنازير، كما توقعنا مؤخرًا.

ثم ولّى وجهه صوب بخيت ثانيةً، وأضاف:

- احرقها فورًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خارج سراي العمدة، انتصب قنديل بجسدٍ تملأهُ شرارة من الغضب والاهتياج ووجه يبدو عليه السخط واضحًا أمام حارث وبخيت وسندس، ومن خلفهم يجتمع زُمرة من العساكر مُحمَّلين بأسلحتهم ومتأهبين جيدًا للنزوح من هنا، أما جاد فلم يكُن موجودًا بينهم، كأن الأرض قد انشقَّت وابتلعته، أو سُحُب السماء انقضَّت عليه واختطفته، ولكن لم يأبه أحد منهم لذلك إطلاقًا، فكل تركيزهم الآن ينصبّ نحو ذاك الرجل الآثم الوضيع الذي أرهقهم وأرهبهم مرارًا وتكرارًا، وها قد جاء الوقت لردعه تمامًا.

بعد ذلك صاح قنديل الذي استشاط غيظًا، قبل أن يغادروا مكانهم:

- القاتل قتيل لا محالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

(غُرَّة الـخـلاص)

سماءٌ مُقمرة يشوبها جوٌ ضبابيّ، فكانت الرؤية غير واضحة بعض الشيء وهو ينثر بتثاقُلٍ حبّات الذرة الصغيرة التي تملأ الدلو الذي بين يديه أمام هذه الدجاجات. هنيهة من الوقت وانتهى، لكنه لم يتركها ويعود للداخل مباشرةً، فقد صوَّب نظرهُ بأملٍ مرجوٍّ نحو ديكٍ كان يُحدِّق تجاهه ولم يلتفت للمنثور أسفله، ثم همس بخيبة أمل:

- ألن يأتني ثانيةً؟ هكذا أخلف بالعهد الذي بيننا!

في أقصى شرق البلدة، وفي منأى تمامًا عن غالبية البيوت المتجاورة، بُني ذاك البيت وبجانبه تلك الحظيرة وحدهما بعيدًا عن غَمرة الجميع. حظيرة كبيرة هي الوحيدة من نوعها في البلدة، تُرعى وتُربَّى داخلها خنازير بمختلف الأعمار بُغية الاستفادة من جلودها ولحومها، علاوة على وجود سياج قصير يقبع على مسافة قصيرة في أخر الحظيرة مُلتف ويحوي داخله بعض الديكة والدجاجات يتم الانتفاع بها سواء بأكلها أو ببيعها أو حتى ببيضاتها.

وكلاهما ملكٌ لمُربِّي الحيوانات كما يُطلق عليه، إسحق. كهلٌ بدين يميل إلى القصر، أشيب الشعر، وبطنه مترديَّة من أمامه، عيناه اليُمنى واسعة، أما اليُسرى فقد جار عليها الزمن وأحالها رمادًا، صوته غليظ لا يخرج من فاهه إلا برفقة حشرجةٍ طفيفة، ولا يملك في حياته كلها سوى هذا البيت وهذه الحظيرة التي توفِّر له قوت يومه منذ عقدين فائتين، فقد كوَّنها من جهدٍ قضى على بدنه وأضعف من قواه، فهو يتيم الأب والأم، لقيط لا يُعرف له أصلٌ عائلي، وجده أهالي البلدة مُلقى في أحد الأزقة وكان حينها ابن عامين لا يملك سوى سِنّتين بارزتين في الفك الأعلى بفمه فقط! فصار بعضًا من الرجال القدامى يعتني به برفقة أولاده بين الفينة والأخرى، حتى كَبُر قليلًا وتعلَّم السير والكلام وزادت مُتطلباته؛ فسئموا منه وتركوه يعود إلى الطريق مرة أخرى، فصار وحده يُقارع تحديَّات العالم، ويتعلَّم منها، عانى في البداية كثيرًا من العديد من الصعوبات، إلى أن صار فتى يافعًا قادرًا على تحمُّل مسئولية ذاته، والعيش إنسانًا، وكل ذلك تحكيه قسمات وجهه.

كان إسحق قد أنهى لتوِّه أشغال الحظيرة في نهاية اليوم بعد أن أطعم الخنازير، ووضع لها المياه، ثم فعل نفس الشيء برمّته مع الدجاج. بعدئذٍ مشى حثيثًا مُطأطئ الرأس إلى باب بيته الصغير الذي يتسع لمرور جسده بالضبط، فدفعه ودخل متأنيًا. بيتٌ كئيب خالٍ من الأثاث، لا يوجد به سوى بعض المقتنيات البالية، فقط يكتظ بالألم والذكريات البائسة التي لا تبرح حتى تنهش في روحه وتأكل منها يوميًا قبل أن يَخلُد إلى النوم، يعيش داخله في مناخٍ مُحزنٍ مكلل بالوحدةِ واليأس، ولكنه قد أَلِف ذلك.

جلس بانهزام بيِّن على كرسيه الذي يهتزّ مجيئًا وذهابًا ذي الكتف الأيمن المكسور، صدرهُ يعلو ويهبط بتتابع منتظم، نظرهُ موجهٌ للاشيء، يضُم قبضة يدهُ اليُمنى إلى كفِّ يدهِ الأيسر، يُفكِّر ملَيًّا وهو يتحرَّك مع هزّات الكرسي. جوٌ هادئ، الضوضاء فقط في عقله، يسأل نفسه بحيرةٍ ذات السؤال الذي يُكررهُ كل يوم ولا يجد له إجابة: «هل ما فعلتهُ هو الصواب؟» ثم يتبع سؤاله قائلًا في داخله أيضًا: «هم المذنبون، وهذا قدرهم، أنا فقط كنتُ سببًا لتنفيذه.» يَزفُر أنفاسه بإحباطٍ ثم يُتابع: «لمْ أكمل المطلوب حتى الآن! قيلولاتي لم تَعُد تُجدي نفعًا كما قيل لي، ما العمل؟! أين أنتَ؟».

تاه وترامى بعيدًا داخل دوامات رأسه. ولكن على حين غرَّة، سمع إسحق ضجيجًا وصوتًا مزعجًا ودبيبًا عنيفًا لأقدام في الخارج؛ فتشتت تفكيره لوهلة، وانتفض. همَّ لينهض من مكانه لكي يرى ما الذي يحدُث، ففوجئ أكثر بتحطُم باب بيته واقتحام بعض العساكر له بجهامةٍ مرسومة على وجوههم، ثم في أعقابهم مباشرةً دلف كل من قنديل وحارث وبخيت وسندس، وهو في مكانه يتابِعهم بذهولٍ وخوف، فسقط قلبه سريعًا بين قدميه مذعورًا، وبات غير قادر على تمالُك ذاته.

التفَّت من حوله العساكر من تلقاء أنفسهم وحاصروه جيدًا، ثم أمسكوه من كتفيه بقوةٍ وجعلوه يجثو على ركبتيه ممتثلًا، وقد تصبب عرق غزير من جبينه، فكان أسفلهم كغزالةٍ واهنة يُحيطها جَمع من الأسود المفترسة ولا تستطيع الفكاك من مصيرها المحتوم بالهلاك. دنا منه قنديل قائلًا بصوتٍ حانقٍ وهو ينظر له من الأعلى:

- لقد ظهر شرُّكَ، وانكشفت خبيئتُكَ.

تكتَّم إسحق، لا يستطيع النطق من هول صدمته. فأضاف العمدة:

- أنت مَن قتلت غيث، وكنتَ على وشك قتل العرَّافة كذلك.

فتحرَّكت سندس آنذاك خطوتين إلى الأمام بجوار قنديل، وأردفت منفعلة:

- ساعدني المدد الإلهي في اللحظات الأخيرة، فهربتُ بعيدًا، والآن جئتُ لأنتقم.

الأعين من حول إسحق تتربَّص به، جميعهم منتصبون ينظرون له بتمعُّنٍ منتظرين رد فعله بنفاد صبر، لأنهم على درايةٍ كاملة أن هناك أمرًا غير عادي قد حدث من أجل كل هذا، إنه الرجل الأبله والضعيف في نظرهم دومًا، فكيف يصدُر منه هذا الكَم من الأذى والضرر غير المسبوق!

مرَّت اللحظات تُسابق بعضها بصعوبةٍ شاقةٍ على نَفْس إسحق، إلى أن استطاع تمالُك نفسهِ وهزيمة خوفهِ وكَبْح قلقهِ ممن أمامه، تأجَّج واستحال حاله من الضعف والخوار إلى الثورة والكيد جرَّاء ما يُحيط به، فأصبح ككرة جليد ظلت تتدحرج من القمة إلى أن كَبُرت تدريجيًا وصارت ضخمة هائلة ستمزِّق ما أسفل الجبل أشلاءً حينما تصل إلى سفحه. بعنفٍ أخذ نفسًا عميقًا ملء صدره، وشرارة الغضب بازغة من مقلتيه، ثم زفره باهتياجٍ ليُطلق بعد ذاك لجام فاهه كسوطٍ مفعَّم بالنيران، وهو يسرد لهم ما يريدون سماعه وما لا يريدونه بإسهابٍ شديد، لأنه أوقنَ في النهاية أنها ستكون أخر كلماته، فلن يُخبّئ كلمةً واحدةً داخله بعد الآن كما كان يفعل دومًا، إنه الأبكم الذي عادت إليه أخيرًا هبة التحدُّث، فأمسك زمامها جيدًا، وانطلق:

- أعلم أنه لن تكون لي شفاعة مهما كان، ولكنني لن أموت وهذه الكلمات حبيسة داخلي. إنني وُلدتُ لكي أعاني، لكي أذوق مرارة الدنيا، وهذه المعاناة بدأت من عندكم أنتم يا معشر البلدة، فجميعكم السبب فيما آلت إليه حالتي الآن. منذ الصغر وأنتم تنعتونني بأنني عديم الفائدة، وقبيح الشكل، وغير محبوب. أنا مذموم من الكل، الناس لا يزالون حتى الآن يقولون لي إنني نتاج علاقة مُحرمَّة، ينادونني بابن الحرام طوال الوقت، وذلك لمجرد أنهم وجدوني مهجورًا في الطريق ولم يعرفوا لوالديّ «طريق جُرَّة»! الجانب المظلم داخلي كان دائمًا على مرمى بصر الجميع، فظلَّ الكبير قبل الصغير ينفر مني كأنني حثالة قميئة يجب أن يتجنبها، وذلك قبل انشغالي بالخنازير التي تشمئزون منها أيضًا. كنتُ ولا زلتُ وحيدًا بلا أصدقاءٍ يُخففون من هذا الحمل، فطفح بي الكيل، وكرهتُ جميع مَن في البلدة، وانصرفت عن التعامل معهم، فلا أختلطُ بأحدٍ غير وقت البيع والشراء فقط، سواءً عندي أم في السوق. بسببكم كرهتُ لحظات الأمل والنور التي كانت تُضيء داخليٍ وتجعلني أتطلّع للأمام، أبغضها، لأنني كنتُ عندما أتقدَّم خطوة واحدة أهوى ساقطًا وتُكسر عُنقي. أنا رجل قاربتُ على الخمسين من عمري ولا زلتُ بلا زوجة! بلا أطفال! نساء البلدة يرفضنني بحُجَّة شكلي البشع، عشتُ وحيدًا، وسأموت وحيدًا، ليعلم الآتون فيما بعد أنكم القبيحون ولستُ أنا، إنه قُبح مَن آذوني، تجمَّع منهم ليحلّ في وجهي. العزيز سيرته جيدة بين الناس حتى الآن، حتى بعد موته! فلمَ أنا سيرتي سيئة بين الجميع وأنا لم أفعل لأحدٍ شيئًا! عالمكم هذا غيرُ عادل بالمرة. أنا لا أطلب أن أحيا معيشة تملأها الرفاهية بدلًا من هذه الخيبات المتتالية، فقط ما أردته أن تكون حياتي هادئة، بلا صخب، فماذا كان سيحدُث إن كان الشعور الدائم هو الحب؟ لا بغض ولا ضغينة. للحظاتٍ كثيرة كنتُ غير متأكد من تمام آدميتي وحريتي، والشيء الوحيد الذي أنا على يقين منه حتى الآن، هو أنني دائمًا أتألم.

تغيَّرت نبرته، وهدأ صوته قليلًا، وأحنى رأسه بخزي:

- لكن ماذا أقول! فإنه ذلك الشيطان اللعين، هو مَن جعل الجميع يفعلون ذلك معي، هو مَن أخرج السيئ فيهم ووجَّههُ لي، وهو أيضًا السبب فيما جرى في البلدة، وفيما جعلكم تقفون هنا معي، لأنه تجسَّد لي، فوضعني في تلك الورطة ورحل، حلَّ الخراب بالبلدة ورحل، أي أنه خذلني مثلكم تمامًا. فمنذ أيام طوال لم أحصِ عددها بسبب الخوف والقلق من تبعات فعلي، كنتُ أنهي أشغالي في الحظيرة كما هي العادة يوميًا، وإذ فجأة وجدتُ أكبر وأقدم خنزيرٍ عندي يقترب مني وينظر لي باستمرار، فتعجَّبتُ كثيرًا ودنوت منه، ثم ازداد التَعجُّب أكثر إلى أن انقلب لرهبةٍ وذُعر، فقد لاقيتُ ذلك الخنزير يتحدَّث مثلنا تمامًا، مثل أي إنسانٍ عاديّ، فتصلَّبت قدماي على الأرض ولم أقو على الحركة إطلاقًا من هول الموقف، وظللت أستمع إليه. وجدته يخبرني أنه يشعُر بي، ويحزن من أجل آلامي، وإنه هنا لكي يبدد هذه الآلام، ويعكس الأمور إلى نقيضها، فبدلًا من أن أكون مذمومًا من الجميع، أكون محبوبًا ومهمًا بالنسبةِ لهم، علّني أكون العزيز الجديد، ويكون لي تمثال مثله بالضبط، قلتُ له كيف ذلك؟ فأجابني بأنه سيجعلني أمتلك العديد من القوى التي ستجعل أهل البلدة أجمعين يترددون إليّ، ويحتاجونني طوال الوقت، فلم أتردد ثانية

إلا وسألته عنها، فوعدني أنه في البداية سيجعل القبول موجودًا عند الجميع تجاهي، غير أنني سأستطيع فعل ما لن يقدر عليه أحد، فستكون عندي المقدرة على محادثة الجمادات وفعل ما أشاؤه، ورؤية المستقبل في منامي لأستطيع ردّ الأخطار القادمة، ومعرفة كيفية مداواة الجروح بمجرد النظر إليها. راق لي هذا العرض كثيرًا، وتحمَّستُ له، ووجدته الفرصة التي لن تتكرَّر لكسب قلوب مَن في البلدة، هه، الفرصة التي ستجعل من ابن الحرام رجلًا يُخلَّد بسيرةٍ عَطِرة، ولو كان أحد منكم مكاني فلن يرفض أبدًا، فاستسلمتُ له تلقائيًا وآمنت بحديثه، لأنني كنتُ أريد مَن ينتشلني مِن هذه الظُلمة، وهو وعدني بذلك، لكن وضع شرطًا واحدًا من أجل تحقيق وعده، وقبل أن يقوله همس لي بنبرته الملتوية «أنتَ لستَ وحدُكَ في ذاك الدرب، أنت ثالث ثلاثة، بادؤهم ومنهيهم، وجميعكم المكلَّفون وباختيار القدر، لذا لا يمكن رفض هذا المسار.» فرغم عدم معرفتي بهذين الشخصين الآخرين! وكيف سيُسهمان فيما سأفعله! فإن كلماته هذه تتردد في أذنيّ منذ أن سمعتها آنذاك، ولم أنسها قط، لأنها هي السبب الأكبر لموافقتي على شرطه.

حينئذٍ تبلورت في عينيه دمعتان صادقتان لم يقدر على تطويقهما:

- ذَكَر لي شرطًا واحدًا نظير تحقيق ما وعدني به وتنفيذه، كان عبارةً عن روحين ثمينتين! فقد طلب مني أن أقتل ابن العمدة، وعرَّافة الضوم، وفي الحين الذي سأفعل بهما هذا سيكون هو موجودًا جواري لكي يخطف هاتين الروحين قبل صعودهما إلى السماء، وبعدها سيكون كل شيء متاحًا لي. فازداد خوفي أكثر، وأخبرته أنني أضعف من أن أفعل ذلك، فقال سريعًا إنني لن أفعل شيئًا معقَّدًا! فقط ما عليّ فعله هو أن أنام، قبل الميعاد الذي أُحدده لأقتل أيًا منهما عليّ أن آخذ قيلولة قصيرة، وخلال هذه القيلولة سأحلم بمكان وجود هذا الشخص وكيف سأقوم بقتله في لحظةٍ آمنةٍ تختفي فيها كل العيون، أي الموت بطريقةٍ مناسبة وخطةٍ مُحكمة لن يستطيع أحد إفشالها أو حتى كشفي حينها. لكن من أجل إتمام وتنفيذ هذا على أكمل وجه فعليّ فعل أمرٍ مهم أولًا، وهو كتابة ما سيُمليه عليّ في لفافة ورقية ثم دسّها في مكانٍ بعيد، فأذعنتُ ونفَّذتُ ذلك سريعًا وكتبتُ جميع ما قاله لي. بعد ذلك مباشرةً وجدت ذلك الخنزير وقد صمت نهائيًا، وعاد لطبيعته قبل أن يتمايل في مكانه حينًا ويصير طريح الأرض، فاقتربت منه سريعًا لأجده قد مات. علمتُ حينئذ أن دوره انتهى وها قد بدأ دوري، إنه تجَّسد لي في لحظة ضعف، أملى عليّ عرضه ثم شرطه، فأغواني للشرِّ ووافقتُ، أقرَّ ميثاق الدم، ثم تركني ورحل. ذهبتُ ودسستُ اللفافة التي كتبتها في مكانٍ بعيد بالقرب من المحرقة لندرة الحركة هناك، ومن اليوم التالي بدأتُ في التنفيذ كما قيل لي، وبالفعل قررتُ قتل غيث أولًا، فنمتُ، وحلمتُ حينها بما حدث بالضبط قبل وقوعه. نهضت من نومي وأخذت خنجرًا كان ملكي، وخرجتُ من هذا البيت، فوجدتُ خطاي تقودني بين الطرق والأزقة لا إراديًا، وجدتني أسير وحدي، فلم أقابل شخصًا واحدًا أمامي، حتى وصلت للمكان الذي جاءني في الحلم أثناء قيلولتي، لم أنتظر ثواني كثيرة إلى أن رأيت غيث قادمًا تجاهي، فغرزت الخنجر في صدره وهربتُ سريعًا عائدًا إلى بيتي من الطريق ذاته

الذي سلكته أثناء مجيئي، تم الأمر حقًا بأمان ولم يرمقني أحد، ولم يتوصَّل لي أحد بعدها.

تنهَّد بنَفَسٍ شجيّ، ثم وجَّه نظرهُ نحو سندس وهو يهز رأسه عاتبًا:

- لكن العَقَبة قابلتني في الخطوة التالية، كانت عندكِ أنتِ يا عرَّافة الضوم! أنتِ السبب. عند قيلولتي الثانية حلمتُ أنكِ تجلسين خارج خيمتكِ قبل مطلع الشمس وحدكِ، تبدين خائفة للغاية، والطريق إليكِ بدا خاليًا، فقط لا يوجد سوى هذه النار المشتعلة من أمامكِ، فخرجتُ وجئتُ إليكِ سريعًا، لكنني لم أجدكِ، فتحتُ مدخل الخيمة فلم أجد غير فتاة نائمة وحدها، ولم أعثر لكِ على أثرٍ واحدٍ أسير وراءه من أجل العثور عليكِ، فتملَّكني اليأس والرهبة، ثم رحلت خالي الوفاض. دُفن ابن العمدة بعدئذٍ وبدأت الاستجوابات تملأ أركان البلدة، وبالطبع كنتُ مرعوبًا لمّا جاء دوري، لكنني فُجئتُ أثناء حديثي مع العساكر بثقةٍ وثباتٍ لم أعهدهما عليّ! نفيتُ كل شيء بهدوء شديد، وأبعدتُ التهمة عني، لا، هو مَن أبعدها ولستُ أنا. بعد ذلك تعسَّر الوضع عليّ، ولم يظهر لي ثانيةً، ولم تَعُد قيلولاتي وغفواتي تفي بغرضها، فمنذ أيام طوال وأنا ألزمُ بيتي ولا أبرحه، منتظرًا إيّاه، وإيِّاك، لأن ما وُعدتُ به لم يتحقق. في البداية لمْ أتساءل كثيرًا عن سبب اختياركِ أنتِ وابن العمدة بالتحديد، فظننتُ أنه عقاب قاسٍ للعمدة على ظُلمه وأخطائه وفساده، عوقب في ذريَّته، وأنتِ حتى لا تكشفين فعلتي بأي طريقةٍ تستطيعين فعلها، ولأنني رأيتُ أيضًا أنكِ سيئة، حقيرة، تبيعين الوهم وتتكسبين من ورائه المال، بزعمك امتلاككِ لمَلَكاتٍ خاصة بكِ، جميعكم مذنبون، جميعكم تستحقون الموت والعقاب. وأنا كذلك، أعلم أني أستحق الموت على فعلتي هذه، لكني آمل شيئًا أخيرًا، آمل من مَلَك الموت ألا يكون مثلكم، آمل أن يُعانقني، يُقبِّلني، قبل أن يستلّ روحي.

عمَّ السكوت، ومن داخله انتشرت المفاجأة، والذهول، والحزن، والشفقة، والسخرية، كل في مساراتٍ متضاربة. أنهى إسحق حديثه الذي عضَّ قلوب بعضهم، وفرغ بما في جعبته من أسى يُمكن قوله والتعبير عنه، لكنه لم ينتهِ بعد من ذاك الألم الكامن في دواخله، بل تفاقم أكثر وأكثر ليقينه التام بما سيحدُث بعد حينٍ لن تطول مدته، فقد أزف الوقت، وما عليه سوى الانتظار والتحسُّر فقط، حتى تنجح مفاوضات يديه مع عينيه لإيقاف هذا البكاء، ثم المضي إلى النهاية بكل ثباتٍ وشجاعة، فهو يبتغي ألا يموت مثلما عاش حياته، جبانًا.

الأمر جللٌ، لكن قنديل في عالم آخر غير عالمهم تمامًا، يقف مُستاءً ومندهشًا من نظرات العطف والرأفة التي رآها نابعة من عساكره، ومن بخيت على استحياء، فلم يُحرِّك ما قُذف على مسمعه شعرةً واحدة في رأسه، وسُكب شعوره في براحٍ من التِيه، فقرر كسر هذا الصمت والاعتدال سريعًا بقوله بنبرةٍ باردة:

- هه، الخير لا يُبنى على شرٍ.

وهنيهة، ثم أضاف متهكِّما:

- ستموت فعلًا، الدم لا يؤتي إلا بالدم.

فرمقه إسحق من أسفل بدونية، ورد:

- لا بأس، جيدٌ أنكَ تعلم ذلك.

احتدم قنديل وانفعل إثر هذا القول، فتصاعدت داخله ألسنة اللهب تتراقص وتتمايل، لكنه لم يُعِره اهتمامًا، وسرعان ما كظم غيظه وتمالك نفسه، لئلا يُشعر مَن حوله باهتزاز ثقته بسبب ذلك الرجل المنحني على الأرض بينهم. وسريعًا، نظر إلى حارث نظرة آمرة، تبعها مستطردًا:

- إنهِ الأمر.

فأومأ حارث برأسه، قائلًا:

- حسنًا، أعلمُ ما عليّ فعله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أُخذَ إسحق من بيتهِ مُتأبَّطا الوحدة رفيقة دربه إلى زنزانةٍ مُظلمة مُنفردة في السجن ينعدم دخول الضوء إليها، ومكث هناك ليلتين متتاليتين. وبتوصيةٍ من العمدة وحارث، تعرَّى العذاب من أمامه بجميع أنواعه وُطرقه، ليذوق مرارته طوال الوقت بلا رحمة أو هوادة، من مهانةٍ كلامية إلى تعدٍّ شرسٍ بالضرب، إلى منع وصول الطعام والشراب إليه، حتى إنه لم يسلم من الانتهاكات الشرجية! فتم إبادة إنسانيته تمامًا، إلى أن صار حُطام رجل.

نُفخ في البوق، وأُعلن للناس عن يوم القصاص أخيرًا، وانتشر بينهم على لسان كثيرٍ من العساكر وصول العمدة إلى القاتل الحقيقيّ عن طريق مساهمات جاد، رجلُ الكهف الذي عاد إلى مثواه ومستقرّه ثانيةً بعد أن أدّى مهمته، بإبادة الشر وكشف الباطن لهم. ثم جاءت المرحلة التالية من إذاعة الأخبار، وتحجيم مسار الحديث في جانبٍ واحد، فقد شُوِّهت سيرة إسحق بين أهالي البلدة أكثر وأكثر جرَّاء ما ظلّ يتردد بين الأفواه من أحاديثٍ أصدرها حارث لهم انتقاها مما قيل لهم قبل القبض عليه، كانت أخبارًا صحيحة وغير صحيحة، فقد وصل بهم الأمر إلى أنهم قالوا إنه هو المُتسبب في خلق الضباب الذي اجتاح البلدة منذ فترة، وذلك غير تداعيات القتل بالطبع، فراح البعض يلعنون اسمه وشخصه بأفظع الشتائم، ويسبّون والديه بكلماتٍ بذيئة تُضاهي نتاج نسلهما، حتى إنهم تمنّوا موته والخلاص منه بكل قسوة.

كانت الباحة الكُبرى في جنوب البلدة كما هي، مُعدَّة ومُكتملة من كل شيءٍ منذ المرة الأخيرة، فجاء يوم القصاص المُعلن مكررًا بحذافيره، عدا أمر وحيد هو الذي اختلف عن ذي قبل، وهو أنه لم يحضر كثير من رجال البلدة للمتابعة، قلة قليلة فقط هي التي حضرت، وكسر الباقي بندًا من أوامر قنديل التي أصدرها بعد موت غيث مباشرةً، ولم يكترثوا له.

أخرج العساكر إسحق من السجن مثل الأشباح، مقهورًا، مُحطمًا، وعلامات الضرب بازغة في جسده على هيئة ندوبٍ زرقاء متورّمة. قادوه وهو في قمة الهلع إلى المنصة المنصوبة في الباحة أمام ذهولٍ ومقتٍ منتشرين في أعيُن الذين

حضروا، ثم ألقوه أسفل المقصلة سريعًا، ورُبط وحده في ذل واحتقارٍ بمقابلة أشعة الشمس الحارقة وهو مغمض العينين، فلم يرَ ذاك الرجل الهَرِم بينَ الواقفين قِبَل المنصة وهو يتساءل بصوتٍ عالٍ، ويضحك بتشفٍّ:

- أين شيطانه الآن؟ لقد تخلَّى عن خليل شرِّه.

بعدئذٍ جاء في الموعد المحدد بالضبط قنديل وحارث ومعهما سندس التي فضّلت أن تُكمل انتقامها برؤيته وهو يُقتل ويُدفن. تم هكذا شمل اليوم، لكن كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة للعمدة ومساعده في بادئ الأمر ألا وهي عدم حضور أهل الرأي، ووجود عدد قليل من رجال البلدة، لكن رغم تعجُّبهما واندهاشهما فإن قنديل لم يُلقِ بالًا لشيءٍ كهذا، وتغاضى عنه، عازمًا ألا يُرهق باله بالتفكير كثيرًا الآن، وهمَّ بإكمال الحدث، والثأر لابنه غيث بعد طول غياب، فقام بإعطاء الإذن مباشرةً إلى رجل المقصلة ليُنهي الأمر، وآثر ألا ينتظر كثيرًا لكي يُوقف نزيف توجُّعه هو وسوزان على ابنهما، بلا رجعة.

وفي لمح البصر، ووسَط صيحات الحاضرين، منح رجل المقصلة تفويضًا بالتحرُّر إلى النصل الحاد لكي يعْدو بأقصى سرعةٍ صوب رقبة إسحق، ليفصلها تمامًا عن جسده، فانفرطت دماؤه تسيل بغزارةٍ مهولة على النطع الموجود على المنصة، وتحت المقصلة. حينئذٍ فُتح قفص إسحق الصدري، ثم خرج منه القلب مُتثاقلًا ليُحلِّق بتروٍّ أعلى هذه الرأس التي غادرت جسدها للتوّ، وطفق يعزف لها بشغفٍ ألحانًا عذبة، تُطرب تلك الثواني الأخيرة في حياتها، بعيدًا عن كمّ الأسى الذي ملأ جنباتها طوال هذه السنين التي عاشتها، تعاني وتُفكِّر في معاناتها فقط.

بعد ذلك بقليلٍ من الوقت، حُمل جسد إسحق ورأسه على محفَّةٍ كبيرة لكي يسلك دربه الأخير، ويتم دفنه، ثم ذهبوا به إلى المحرقة. خرجت الروح أخيرًا، وتوقَّف ألمها، وانقطع أنينها الدائم، هي روحٌ كانت تأمل فقط الحصول على المعاملة بلُطفٍ وودٍ، والظفر بابتسامةٍ بشوشة من الوجوه أمامها، إنها كانت تبتغي الهدوء ليس أكثر، ولكن ها هي الآن قد تركت كل ذلك، وبَعُدت عنه، ونجت من هذه الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المحرقة..

انطفأ النهار، وبدأ الليل يحلّ مكانه تدريجيًا، فحمل العساكر المشاعل النارية وأوقدوها لتتضح الرؤية جيدًا للواقفين.

البلدة منذ بداية عهدها في قديم الأزل، شُيِّد داخلها مكانان لمرتع الموتى النهائيّ، مقابر الصالحين، والمحرقة. الأولى يُدفن فيها الأشخاص ذوو السيرة العَطِرة والعمل النافع والمحبوبون من أهل البلدة،- علاوة على مَن حظي بحق ارتكاب بعض الجرائم بأي شكلٍ من الأشكال-.

أما الثانية فخُصصت للمنبوذين في الأرض والسماء، لمقترفي الذنوب، الخطّائين، ومَن ماتوا على معصيةٍ أو إثم ما، والمحكوم عليهم بالإعدام. وذلك كتحذيرٍ ورادعٍ لأهالي البلدة لعدم ارتكاب الخطايا، والتفكير مرارًا وتكرارًا قبل إلحاق الأذى بأحدٍ،

أو أي شيءٍ ما. الناس هنا خَيِّروا في حياتهم بين اختيار مصيرهم في أول منازل الآخرة، فبمقابل هذا صاروا يعدّون لبعضهم الأخطاء والعثرات قبل الأفعال الصائبة، لأن المسيرة هي الأهم والأنفع في عُرف البلدة، لكن فيما يلي ذلك.. المنزلة التالية وما بعدها.. يعلمون جيدًا أنه أمر لا يَخُصهم، ولا يُبنى على آراء الأحياء قطعًا، فتوقَّف الأمر عندهم على تصنيف عملية الدفن، وفرز الموتى فقط.

هُنا المحرقة. مكانٌ مُعبَّق برائحةٍ شنيعة، يقبع في غرب البلدة، في منأى ومعزلٍ عن الأهالي كلها، أرضٌ واسعة مُقفِرَة، جدباء، متشققة من أسفل المارّ عليها، فلا تصلح لأي شيءٍ أبدًا، سوى ما بها الآن فقط. تحفّها من الأطراف صخور عاتية شاهقة الارتفاع، أما من داخلها فترتصّ مئات الأكوام من القش مصفوفة بترتيبٍ موازٍ لبعضها البعض، تكوِّن للناظر من السماء مربع قشٍ ضخمًا، ويعلو كل كومة منَ هذه صارٍ حديدي طويل مُرتكز بالمنتصف، يُربط ويُعلّق عليه بترتيبٍ متتالٍ الموتى مُتفحّمة أجسادهم، ومشوَّهي الملامح تمامًا، وذلك بالطبع قبل تآكل هذا الجلد الحالك بمرور الوقت، فلا يعرف أحد بعد ذلك أي جثة من الموجودين تخُص مَن! لأن الأسماء لا تُدوَّن.

يقف بالقرب من مدخل هذا المكان المهيب كل من قنديل وحارث، بالإضافة إلى سندس التي ينزّ الخوف من مسامها بسبب خوفها ورهبتها من هول المحرقة، لكنها هنا في البلدة منذ بداية اليوم من أجل هذه اللحظة بالتحديد، فلا يُمكن إضاعتها بأي حالٍ من الأحوال.

وها قد أحضر العساكر المحفّة الموضوع عليها جسد إسحق، ورأسه، فدنا منهم هؤلاء الثلاثة برفقة باقي العساكر، ثم توقَّفوا جميعًا على يسارِ مدخل المحرقة، وذلك أمام هذا الفرن الهائل المبني هناك، كان فرنًا حجريًا عملاقًا مُغطى بالطمي، فتحته فقط تحتاج إلى عشرة فطاحل من الرجال من أجل سدّها، أما من الداخل فمساحته رحبة تتحمَّل التهام أكبر عدد من الجثث، وفيه تتم أول مرحلة من مراحل الدفن، فأول ما يجري بعد دخول الجثة التي ستُدفن إلى المحرقة هو رميها داخل هذا الفرن بعد إشعال نيران الموقد داخله، وهذا ما حدث للتوّ مع إسحق، قُذف جسده أولًا داخل النار، ومن ثم رأسه، فتصاعد الدخان وتأجَّجت تلك النيران، وهاجت أكثر، إلى أن صارت تتراقص داخل بؤبؤي عينيّ قنديل الواقف أمامها مُنتشٍ بالانتصار والقضاء على تلك الغصة المؤلمة في قلبه.

مرَّت وهلة من الوقت، ثم أُطفئت هذه النيران القائظة، وانتظروا لحظات أخرى قليلة، ثم قام الرجل المسئول عن هذا الفرن بانتشال الجثة من داخله محروقة تمامًا، لكنها غير متآكلة من اللهب، لأنها لم تُترك طويلًا، ثم سلّمها للعساكر فحملوها وذهبوا بها إلى كومة قشٍ فارغة، ها قد آتى دورها الآن لكي تزدان مثل قريناتها، فتم تعليق تلك الجثة عليها. جسد إسحق على الصاري، وبجانبه من الأسفل وُضع الرأس، مثلما حدث مع الراعي بالضبط.

آنذاك أطلق قنديل آهة حارة، أراحته، ثم تبعها قائلًا بسكينةٍ غير معتادة:

- فلتهدئي الآن يا حبيبتي، لقد أخذتُ ثأر فتانا المُدلل.

تلا ذلك نظرة نحو سندس من جواره، واستدراكه باسمًا:

- شكرًا جزيلًا لكِ على مساعدتنا.

فردَّت عليه بفتور من دون أن تُشيح نظرها من على جثة إسحق:

- هكذا ساعدتُ نفسي قبلكم، جميعنا كنا في المأزق ذاته.

فأومأ قنديل برأسه، ولم يَرُد، بينما حارث كان يتابعهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما غادر الباحة الكبرى كل من الحضور والمُنظّمين، وانفضَّت مراسم يوم القصاص نهائيًا بلا رجعة، فُتحت الأبواب، وبدأ أهالي البلدة بأسرِها في الخروج من بيوتهم في الآن الذي تحدَّد لهم بالضبط، والتجمُّع رويدًا رويدًا في مختلف الطرق والأزقة، لكي يكتمل الحشد، وتبدأ المسيرة نحو الخلاص.

فمنذ بضعة أيام، وبتخطيطٍ وتدبيرٍ من أهل الرأي الذين عزموا الانقلاب على قنديل، العمدة الحالي لِلبلدة، والتخلُّص منه عن طريق هؤلاء الرعايا الذين ينتظرون أقرب فرصة للفكاك من بين قبضته بأيّ طريقةٍ ممكنة، بعد كل ما لاقوه منه في تلك الفترات المنقضية. فقد قرر أهل الرأي بمساعدة بعض كبار العساكر الذين طفح بهم الكيل، أن يدسّوا الكُره والغضب أكثر في مسام رجال ونساء البلدة، بأن تقوم هذه العساكر بالمرور في خفيةٍ على بيوت البلدة كلها وبالتحديد مَن هم على خلافٍ كبيرٍ مع العمدة، وأن يُعطّلوا فكرة انتظار انقضاء مشاغله كما يُردد هو طيلة الوقت، بإخبار قاطني تلك البيوت بما أقرّوه من عزل العمدة الحالي بالقوة مجبرًا خلال هذه الفرصة، وعدم التهاون معه أكثر من ذلك، والقضاء عليه من دون حسابٍ جرَّاء أخطائه التي لا تُغتفر، ومن ثم تعيين عمدة جديد يصادف هوى الجميع، ليستطيعوا فيما بعد البدء وفق حقبةٍ جديدة، والقضاء تمامًا على هذه الحقبة الفاسدة.

تم التخطيط جيدًا، وجرى الاتفاق مُسبقًا بين أهل الرأي وهؤلاء العساكر على كل شيءٍ سيحدث لتتم الثورة على أكمل وجه، تحدَّد الموعد، والمكان، وعلم بهما أهالي البلدة سرًا، إلى أن تجمهروا وصار الحدث في العلانية. بالرغم من أن أهل الرأي هم أصحاب اليد العُليا في كل ما يجري، فإنهم ظلوا بعيدًا تمامًا، ولم يظهروا قط، فقط مَن كان في هذه المسيرة التي التقت وبدأت حركتها من عند تمثال العزيز، هم حشد غفير يحوي الكبير والصغير من أهالي البلدة، وفي مقدمتهم بالطبع عشرات من العساكر ذوي الخبرة والشجاعة الكافية يُمسكون مقاليد تلك الحركة. فساروا جميعهم منتفضين في ثورةٍ عارمة صوب المحرقة، وهم على علم بوجود قنديل وحارث هناك، ساروا بينما يشتعل في صدورهم ذاك الغضب الجامح، الذي تستدعيه ألبستهم المنسوجة من خيوط الرغبة، والأمل، والحرية المطلقة، لكي ينبثقوا من جحورهم ويندفعوا إلى أبعد مدى في طريقهم من الظلام نحو النور.

فعلى هدى المشاعل النارية الموقدة في أيديهم المرفوعة للسماء، وصلوا أخيرًا إلى المحرقة، لكي ينفّذوا تتمَّة الخطة. كانوا يرددون في مسيرتهم منذ البداية نداءات ضدِ ظلم وتعسُّف قنديل، وتعنُّت وجور حارث من ورائه، فراحت نداءاتهم تلك

يتردّد صداها لتملأ جنبات المحرقة جلجلة، حينما صاروا أمام مدخلها مباشرةَ، فصارت هذه الكلمات كسهامٍ مقذوفةٍ لتخترق آذان العمدة ومساعده، وتريقها دمًا.

فبينما كان قنديل وحارث ومن جوارهم سندس لا يزالون منتصبين أمام جثة إسحق بعدما عُلّقت على الصاري، حلّت عليهم هذه الصاعقة من السماء ولطمت رؤوسهم لينتبهوا لما هو قادم، فهمّوا جميعًا بالذهاب سريعًا إلى مدخل المحرقة؛ لكي يروا ما هذا الذي يحدث، وهناك، كان التقاء الضدين، والنقيضين.

يحتشد بالخارج أهالي البلدة يهتفون ضد العمدة، ويسبّونه بأفظع الشتائم تهدئةً للفوضى المشتعلة داخلهم بسببه. أما من الداخل فيقف هو أمامهم، ومعه مساعده وعرَّافة الضوم شريكتهما الثالثة، ومن ورائهم تلتفّ بعض العساكر لحراستهم، فغطَّ الوجوم ملامحهم، غير مصدقين ما يرونه، وغير قادرين على تحمُّل وطأة هذه الصدمة، التي لن يُحمد عقباها إطلاقًا.

تأفَّف قنديل وهمس لحارث مُرتابًا:

- فلتتصرَّف.

فصاح حارث إلى هذا الجَمع بالتوقُّف، لكن لم يكترث له أحد. حينئذٍ استدار بصدره بطيئًا للوراء، ثم طوَّح ذراعه الأيمن في الهواء يأمُر العساكر من خلفه بالحركة، وإطلاق النيران لإيقافهم بالقوة. لكن لم تجرِ الأمور كما ظن، فازداد الطين بلّة، وانقلب الأمر رأسًا على عقب، وتفاقمت الصدمة إلى أن بلغت أقصاها، فقد عَصَت العساكر أوامر حارث، وقاموا بهجره والذهاب إلى قرنائهم في حركة غدرٍ خادعة، والوقوف بجانب أهاليهم، كما هو متفق بينهم.

سندس في قمة الرعب، وحارث تيبَّست قسماته وهو يحاول تمالك ذاته، لكن قنديل عاد لعنجهيته وصرخ بصوت شابٍ يافع:

- ستندمون أشدّ الندم، أنا عمدتكم، اخضعوا لي.

آنذاك بدأ الثوَّار في التقدُّم تدريجيًا إلى الأمام، يبعثرون ثورتهم في أنحاء المحرقة، ومحاصرة هؤلاء الثلاثة، الذين تقهقروا بخوفهم وفزعهم إلى الوراء، لتسقط عجرفتهم أسفلهم وتزحف على الأرض في ذُلٍّ واحتقار. شلّ الذعر تفكير كل من قنديل وحارث، وتشنَّجت أعضاء جسديهما، واتسعت عيونهما رهبةً من مقت هؤلاء المتمرّدين. عَلَت الهتافات، واحتدَّ هياج أهالي البلدة، فابتلعت سندس ريقها بمشقة، وهمست بصوتٍ مبحوح:

- إنها النهاية!

وبالفعل صدق قولها. فقد راح البعض ممن هو بين هذا الحشد الثائر يرمون المشاعل النارية التي في أيديهم باتجاه قنديل وحارث وسندس، لتتفعل معهم العساكر وتتبعهم بإطلاق رصاصات بنادقهم بعشوائيةٍ على ثلاثتهم كذلك، «ليتسطّحوا» على الأرض هالكين سريعًا جرَّاء هذه الضربات المتتالية، مصروعين بين دمائهم التي أجّجت نيران هذا الحريق الذي أقامته المشاعل من حولهم بعد أن عَلِقت بملابسهم،

كان حريقًا هائلًا راحوا يحتضرون داخله، يمزّق ويشوي أجسادهم، ليكون رماد هؤلاء الثلاثة هو وقود المرحلة الجديدة، وقَدَرهم هو غُرَّة الخلاص.

مرَّ الوقت على مهلٍ وَسَط صيحات أهالي البلدة المنتشية، والمزيّنة ببهجة النصر، حتى انطفأت تلك النيران من حول هذه الجثث المتفحّمة، التي تآكلت تمامًا. فقام البعض من رجال البلدة وقتئذٍ بحملهم على ثلاث محفَّاتٍ كبار، والذهاب بهم إلى أكوام القش التي حان دورها لكي تحمل رفيق وحدتها، ثم تعليقهم عليها بتتابعٍ بجانب بعضهم البعض، لتتم هكذا مراسم دفنهم هم الآخرين، وتغيير المسار.

لم ينقض وقت طويلٍ حتى غادروا جميعهم المحرقة، بعدما نجحت خطتهم، واكتمل مرادهم أخيرًا. فحلّ بعدهم مباشرةً سيلٌ من الغربان؛ ليحوم أعلى المحرقة بحركةٍ متداخلة وغير منتظمة، كانت الغربان تصدح بنعيقها العالي، لتؤنس وَحشَة هذه الجثث من أسفلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الـخـاتـمـة

مرَّت الشهور متلاحقة..

فأما قبل.. كان الوضع لا يَسُر أحدًا في البلدة، أصبح الجمال نوعًا نادر الوجود، واعتاد الجميع على تذوُّق القُبح، ليتساوى هكذا كل شيءٍ في أعين الناظرين بلا أيّة تفرقة، لكن لم يَطُل هذا الوضع كثيرًا، فبعد أن يئس الأهالي وسُلب منهم الأمل، وتجرَّدوا من أمانيهم ليرتدوا لباس الإخفاق والخيبة، طلَّ عليهم أهل الرأي بالفعل الصائب والتحرُّك المُنقذ من ضلال الانتظار، وتخليصهم تمامًا من الوعود الزائفة، فعوَّلوا على ذاك الأمر آمالًا ومطالبَ شتى، علَّها تُبهج تلك الحسرة التي داخلهم.

ثم من بين سكون خيام الكفَّة الأخرى، كانت هناك شمس تحاول التعافي والإشراق بعد هذه الصدمة الأخيرة، التي لا زالت تلتهم جنبات فؤادها بنهم وشراهةٍ مفرطة، بينما جدتها وأغلب صديقاتها في الضيعة يحاولن إقناعها بأن الكلَّ زائل، ولا يوجد قط ما هو دائم، وخسارة الأشخاص أمر طبيعي للغاية، فلا تبتئس هكذا، لأنه بالرغم من ذلك فالحياة تسير كما هي بلا نقصانٍ لشيء، وكأن فقدًا لم يَحدُث! ولكنها لا تأبه لثرثرتهن هذه، وتتجنَّبهن.

وإذا صُوِّب النظر قليلًا على الجهة التي في منأى عن آذان وملمح الجميع، الدرب الذميم والكريه الذي لا يهواه سوى سالكيه من عديمي القلوب، فسيتم إيجاد تطلُّعات متقدمة لخطواتٍ في عملٍ مرتقبٍ سيُجنى من ورائها مال وفير، فضوي الراعي الجديد يستعدّ مع بعض المراقبين في المستعمرة للدخول إلى البلدة ثانية، وعودة مباشرة أشغالهم وتجارتهم هناك من جديد، لازدهار العوائد، وزيادتها أكثر.

وأما بعد.. فسارت البلدة في دربٍ مضطربٍ ومُقلقٍ للغاية بعد موت قنديل الذي انتحرت زوجته ولم تطق ما لاقته من الناس، أو بالأحرى نجاح الثورة عليه، تزعزعت الأوضاع وحلَّت التخبُّطات من جميع الاتجاهات، فبالرغم من الفرحة العارمة التي ملأت أرجاء البلدة لأيام طوال بعد ذلك الحدث الجلل، فإنها استحالت في النهاية إلى اختلافاتٍ واعتراضاتٍ بين الناس على مَن سيكون العمدة القادم، مَن هو الذي سيقودهم إلى الصلاح، وترميم الإخفاقات السابقة، فكان على أهل الرأي الإسراع في إتمام هذا الأمر حتى لا تؤول البلدة إلى مصيرٍ أسوأ وأسوأ، وحتى لا ينفلت الزمام من بين أيديهم، لكن ما أخّرهم فقط هو وعودهم المُلزَمة باختيار رجلٍ يُناسب رغبة عموم الأهالي، على عكس العادة سابقًا، وهذا ما صعَّب الاختيار بعض الشيء.

ومن ناحيةٍ أخرى، زلزل خبر مقتل سندس عامة الضيعة، وأثّر في نفوسهم جميعًا بالسلب، بل أوغر قلوب بعض رجالها بالانتقام لعرَّافتهم من أهل البلدة، ولكن تمالكوا غضبهم فيما بعد، وتراجعوا عن ذلك الفعل، لمّا تداركوا ضعفهم وقِلّة إمكانياتهم مقابل قوة البلدة وقدراتها، وبعيدًا عن هذا التضارب، كانت هناك مَن تفاقمت آلامها، فراحت تذرف الدماء من بين عينيها حزنًا وكمدًا على جدتها ليلًا ونهارًا، شمس التي ضُربت في مقتلٍ بعد هلاك سندس، التي كانت سندها ومأمنها،

فعادت إلى ثكناتها وجحرها من جديد، لتعاني مرة أخرى في نوبة الحزن المميتة تلك، التي تأكل من روحها ببطءٍ شديد، فقد فقدت كل شيءٍ تمامًا، حتى الأمل في أنها لا زالت تحيا على هذه الأرض التي تبغضها كثيرًا! بعد ذلك بمدةٍ ليست بالقليلة، حدث هناك أيضًا ما غيَّر مجرى الأمور داخل الضيعة، فقد فوجئ الضوم ذات صباحٍ بخبر مقتل الريّس داغر على يدّ أحد التُجّار من خارج الضيعة، اختلفوا في البيع والشراء مرارًا وتكرارًا، إلى أن تفاقم هذا النزاع وتحوَّل إلى عراكٍ انتهى بظفر ذاك التاجر بروح داغر من جسده، والقضاء عليه بلا هوادة. وفي عالم آخر لا يَخُص هؤلاء البشر، ظلَّت المستعمرة تسير كما هي في طريقها اللاإنسانَيّ على خطةٍ بديلة، فقد استمرَّ ضوي يمارس عمله مع القرى الأخرى والتُجَّار القدامى غير آبهٍ بشيءٍ يُعكّر صفوه، فلم يتأثر قط بموت قنديل حليفه، وصعوبة دخوله إلى البلدة مجددًا، بل لم يكترث له حتى، فتابع تجارته بعيدًا، وجرت الأوضاع معه على أكمل وجه من دون خسائر.

أما الآن.. فقد علم الجميع أن العالم يتغيّر في لحظة، من الأعلى للأدنى والعكس تمامًا، يُبدّل جلده بين الفينة والأخرى، ولا يخضع لمستقرٍ أبدًا. فقد قضى أهل الرأي على حيرتهم الشديدة أخيرًا، وتم اختيار عمدة جديدٍ لكي يحكم البلدة ويُمسك مقاليدها، مع بعض التغييرات الجذرية في العديد من المناصب بالطبع، فسَكَنت عقول الناس وأفئدتهم، ونالت البلدة قسطًا من الهدوء غير المعتاد، بعد التغيُّر الكبير الذي طرأ على الجميع، فقد تكاتفت أيديهم بودٍ وصدقٍ على نُصرة مكانهم وعلوّ شأنه وإصلاح ما به، وتعاهدوا كلهم على نسيان ما فات ومَرّ، عازمين البدء من جديد للوصول إلى ما هو أفضل وأمثل لهم، متريِّثين لا يشغلون بالهم بالالتفات لمقربة الوصول، ليقينهم التام بأن البلوغ حتمي طالما يباشرون العمل بجهدٍ ودأبٍ وإخلاص، فسيحصدون ثمار عملهم هذا آجلًا أم عاجلًا، ويعيشون بعدئذٍ في رغدٍ وسلامٍ هادئين.

وفي الضفّة الأخرى، اشتدَّ عود علي بعد موت الريس داغر، وتغيَّر تمامًا، فكان موت أبيه بمثابة السُلَّم الذي صعد من خلاله إلى مرحلة النضوج والإدراك الكافي، وصار هو كبير الضيعة الجديد، وأكمل عمل أبيه فلم يُغلقه أو يُنهي أمره، واستمر هكذا إلى أن وثق به الضوم جميعًا، لاختلافه الطفيف عن الريس داغر، فلم يكُن غليظًا وفظًا مثله، كان يتعامل مع الكل بدهاءٍ ورجاحة عقل، فراح يحمي الضعيف من بطش القوي، والضعيف من حقد خليله، ويُحجِّم نفوذ المُفلحين حتى لا يكبروا عليه هناك، ويظل هو الأقوى دومًا، وبعيدًا عن هذا، فلمْ ينس علي حلمه السابق، وما تمناه كثيرًا، وظل يحاول طوال الوقت حتى انتصر، ووصل إليه في نهاية المطاف، فبعد محاولاتٍ عدة منه بجانب الهمس الدائم من بعض الصبايا، استطاعوا أن يجعلوا شمس توافق على الزواج منه، ليكون هو قَدَرُها في الضيعة، فقد وافقت الفتاة مضطرة، غير مبتغية شيئًا من تلك الزيجة سوى العضد الذي تتكئ عليه، لأنها أيقنت عدم قدرتها على المعيشة وحدها، فرضخت إليه، واستسلمت رغم كُرهها للأمر.

وفي جانبٍ لم يسلم من التحوّلات والانقلابات، كانت خاتمته هي الفناء، والتبدّد والزوال تمامًا من ثنايا هذا العالم، فبسبب سقطاتٍ وعثراتٍ متتالية وقع فيها ضوي بعد هوسه بالمال الوفير الذي صار بين يديه، علاوة على ازدياد جشعه وجحود قلبه أكثر وأكثر، زادت خلافاته وخصوماته مع بعض القرى والكثير من التُجّار في تتمّة الأمر، إلى أن تحالفوا سويًا على إسقاطه وإبعاده عن طريقهم، فقرروا كشف هوية المستعمرة وتبيانها على مرأى ومسمع من الجميع، وعدم إخفاء وجودها ثانيةً، فثار غضب عامّة الناس، وتضامنوا مع بعضهم البعض بأن كوّنوا جيشًا كبيرًا وقرروا الهجوم على هذه المستعمرة، لتحرير بناتهن وعتقهن من هناك، والقضاء على هذا المكان الفاسد والمقزز، وتدميره، وبالفعل نجحوا في ذلك، ولم يستطع الحرّاس والمراقبون التصدّي لهم، وتمت إبادتهم جميعًا، وعلى رأسهم الراعي، ضوي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(1)- جؤجؤ: مجتمع عظام صدر الإنسان.

(2)- تكم: لزمه، وأقام به.

(3)- أهم مراسم إتمام الزواج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الفصل الأول

(خيوط شكٍ وخداع)

الفصل الثاني

(فَقْد.. وتبعاته)

ضيعة الضوم..

الفصل الثالث

(هاجس الوهن)

المستعمرة..

الفصل الرابع

(نُصرة ضعيف)

الضيعة..

الفصل الخامس

(رجسٌ خفيّ)

البلدة..

الفصل السادس

(غُرَّة الخلاص)

الخاتمة